مكتبة التاريخ الوسيط

ورثة الأمبراطورية الرومانية

الغرب الجرمانى - العالم الإسلامى - الدولة البيزنطية

تأليف
ريتشارد أ. ساليفان

ترجمة وتقديم
الدكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٥

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢٥ إسكندرية

ورثة الأمبراطورية الرومانية

الغرب الجرمانى - العالم الإسلامى - الدولة البيزنطية

تأليف

ريتشارد أ. ساليڤان

ترجمة وتقديم

الدكتور جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٥

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر والتوزيع

ت ٣٩٤٧٢ _ إسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٥

هذه ترجمة كتاب :

Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, Ithaca,

New York (Cornell University Press), 1960.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، فى لغته الأصلية ،
سنة ١٩٦٠ ، وتولت طبعــه مطبعة جــامعة كورنل
بالولايات المتحدة الامريكية .

تصدير

الطبعة الأولى للترجمة العربية

عنوان هذا الكتاب فى طبعته الأصلية باللغة الانجليزية « ورثة الامبراطورية الرومانية » ، تأليف ريتشارد أ • ساليفان ، بجامعة متشيجان الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية • وقد قمنا بنقله الى اللغة العربية ، مع التقديم له ، وتزويده بكشاف بأسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات • وأضفنا الى العنوان الأصلى عنوانا فرعيا هو « الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية » ليعبر بدقة عن محوى الكتاب ومضمونه • كما زودنا الترجمة بعدد قليل جدا من الكلمات أو العبارات القصيرة المركزة بهدف الايضاح أو التعريف ، ووضعنا كل كلمة أو عبارة منها بين حاصرتين •

والكتاب يعطى صورة حية نابضة ، أمينة محايدة ، عن الحضارات والقوى الثلاث التى برزت على مسرح الأحداث عقب انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية القديمة ، وحتى أواسط القرن العاشر الميلادى • وهذه القوى هى : الممالك الجرمانية التى قامت على أنقاض العالم الرومانى فى الغرب ، والدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، والدولة الاسلامية •

ومنهج ساليفان يقوم — باختصار — على القاء نظرة طائر ، موضوعية شاملة ، على الحضارات الثلاث التى برزت ونمت ، ورسخت وتوطدت ، ثم ضعفت وتفتتت ، فوق سواحل البحر المتوسط على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، منذ بداية العصور الوسطى وحتى أواسط القرن العاشر الميلادى • ويقسم هذه الفترة الى ثلاثة أدوار ، لكل منها سماته ومميزاته وخصائصه • الدور الاول ويمتد من سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية العصور الوسطى حتى حوالى عام ٧٥٠م •

وفيه بدأت تظهر وتتشكل المجتمعات والحضارات الجديدة . أما الدور الثانى ، فيشغل الفترة من حوالى عام ٧٥٠ م وحتى عام ٨٥٠ م تقريبا. ويمتاز بصفة عامة بطابع الوحدة الذى اتسمت به كل قوة من هذه القوى الثلاث . ويبدأ الدور الثالث بعد عام ٨٥٠ م ويستمر حتى حوالى عام ٩٥٠ م . ويتميز بالانقسام والتفكك الذى أصاب هذه القوى ، مع بيان أسبابه والنتائج المترتبة عليه فى الأحقاب التالية . والمؤلف فى كل دور من هذه الأدوار الثلاثة يربط بين القوى والحضارات الثلاث التى ورثت العالم الرومانى القديم ، فى تناسق وانسجام تامين ، وفى دراسة مدققة متعمقة مقارنة .

هذا ، وقد تولت مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية نشر هـذا الكتاب ضمن سلسلة « مكتبة التاريخ الوسيط » .

والله أسأله السداد ،

الاسكندرية فى أول يوليو ١٩٨٤

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة المترجم

يستعرض ريتشارد ساليفان فى مؤلفه فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، وفترة العصور المبكرة ، عندما كان كل شيء فى تغير تدريجى مستمر ، ولم يكن هناك أى شيء ثابت على حاله . وكان الرأى السائد لفترة غير قصيرة أن أصول اوروبا الحديثة ، كما نعرفها انما ترجع الى العصر الكارولنجى . وكان المؤرخون المتخصصون يتناولون هذا العصر — عادة — باعتباره تطورا قائما بذاته ، ومستقلا عن كافة المؤثرات الخارجية من حوله . ولكن ساليفان حاول ابقاء الضوء على التغييرات الخطيرة التى كان الغرب الأوروبى مسرحا لها خلال تلك القرون ، وذلك فى سياق الحديث عن العالم الرومانى — الهللينستى ، حيث أخذت تتشكل وتتبلور بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ثلاثة مجتمعات جديدة مستقلة عن بعضها ، وليس مجتمعا واحدا فقط . ومع ذلك ، فقد تفاعلت فيما بينها ، بأساليب متشابهة تثير الدهشة والغرابة .

والكتاب يقع فى ثلاثة فصول طوال تسبقها مقدمة : الأول بعنوان « ورثة الحضارة الرومانية » ، والثانى بعنوان « نهضة الغرب » ، والثالث بعنوان « الانقسام الداخلى فى الحضارة الجديدة » . وواضح أن المؤلف ينظر نظرة موضوعية شاملة على المجتمعات الثلاثة والحضارات الثلاث التى تلونت فوق أنقاض الامبراطورية الرومانية القديمة ، وذلك عندما أنهال الجرمان البرابرة داخل جوفها ، وقضوا عليها فى وقت كانت فيه الأزمات العنيفة من سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وفكرية وعسكرية تهد كيانها وتقوض بنيانها .

استهل ساليفان مؤلفه بمقدمة أشار فيها الى مرثاة البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤) التى ينوح فيها على ما أصاب روما والغرب على أيدى البرابرة ، مبينا أن بقايا التراث اليونانى — الرومانى كانت لاتزال موجودة حتى نهاية القرن السادس الميلادى ، وأن الدولة الرومانية

الشرقية التى ورثت روما القديمة تراثها وحضارتها لم تصل فى أقصى اتساع لها الى ما وصلت اليه الدولة القديمة ، وأن الامبراطورية الرومانية الشرقية فى القرن السادس الميلادى لم تكن بحال الامبراطورية القديمة. ثم ذكر أن الديانة المسيحية كانت الرباط المتين لوحدة العالم المسيحى فى بداية العصر الوسيط ، وعاملا من عوامل وحدة حوض البحر المتوسط . ولكن التمزق والخلافات الدينية والمذهبية أفقدت المسيحية دورها كرباط متين لوحدة هذا العالم . وأصبحت — على العكس من ذلك — عاملا من عوامل تفتته وتمزقه . وبالنسبة للوحدة الثقافية ، فقد غدت غير ذات موضوع بسبب الحاجز اللغوى بين شقى العالم المسيحى . وأما عن العلوم فقد تضاءلت وانكمشت ، وان كان قد تم الحفاظ على قدر ضئيل منها داخل جدران الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية فى الغرب .

وفى الفصل الأول الذى جعل عنوانه « ورثة الحضارة الرومانية »، تحدث عن التطور التاريخى الذى طرأ على العالم الرومانى بعد انهياره وسقوطه ، خلال الفترة الممتدة من حوالى عام ٦٠٠ م حتى أواسط القرن الثامن الميلادى . فذكر أن العالم الواحد ، ويعنى بذلك الامبراطورية الرومانية القديمة ، قد انقسم الى ثلاثة عوالم هى : العالم البيزنطى ، والعالم الاسلامى ، والغرب الجرمانى . وبالنسبة للعالم البيزنطى ، فقد أشار الى الامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، وسياسته فى الداخل والخارج ، ومدى ما حققه فيها من نجاح أو فشل . وتوصل الى أن جستنيان كان لايزال رومانيا ، وأنه حتى عهده لم تكن هناك دولة بيزنطية بالمعنى المفهوم ، اذ كانت السمة العامة التى تميز بها حكمه هى طابع الوحدة ، أى اعادة وحدة العالم الرومانى التى قضى عليها الجرمان البرابرة . ولذلك فهو فى نظره آخر الأباطرة الرومان ، وأنه لم يصبح بيزنطيا بعد .

وانتقل الى الحديث عن خلفاء جستنيان ، والمشاكل التى واجهتهم على حدود الدولة الشمالية والشرقية والغربية ، وكذلك صراع الامبراطور

هرقل (٦١٠ — ٦٤١) ضد الفرس والآفار والسلاف والعرب ، والنتائج التى ترتبت على ذلك فيما يتعلق بضعف الدولـــة البيزنطية وانكماش رقعتها ، خاصة بعد انسلاخ مصر والشام وجانب من آسيـــا الصغرى وشمال افريقية عنها ، حتى أصبحت حدودها لا تتعدى العاصمة ومـــا حواليها • وحتى القسطنطينية ، فقد تعرضت لهجمات العرب عليهـــا فى عهد الخلافة الأموية ، وكادت أن تسقط فى قبضة الأمويين فى بدايـــات القرن الثامن الميلادى (بدايات القرن الثـــانى الهجرى) لولا تصدى الامبراطور ليـــو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠) للهجـــوم البرى والبحرى الذى تعرضت له العـــاصمة فى عهد سابع الخلفـــاء الأمويين سليمان ابن عبد الملك،والذى شهد عصره أيضا بداية الصراع اللاأيقونى الذى تركت آثاره أوخم العواقب على العالم الأوروبى المسيحى بشقيه• وهكذا أخذت ملامح الحضارة البيزنطية فى الوضوح بعد أن اصطبغت بالصبغة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، وبعد أن استمدت جذورها من التراث اليونانى القديم ولغته اليونانية •

وبينما كانت الدولة البيزنطية تعيش فى ظل الفوضى والاضطرابات التى انهكتها عسكريا وماليا ، الى جانب مشاكلهـــا الأخرى العديدة فى الداخل والخارج ، فقد ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى أوائل القرن السابع يدعو الناس بعامة والعرب بخاصة الى نبذ عبادة الأصنام والى وحدانية الله لا شريك له • ووجدت فيه القبائل العربية المتصارعة رمزا لوحدتها وأملا لمستقبلها ، فدخلت فيه أفواجا • وخرجت من شبه الجزيرة نشرا لدعوتها ، وتأمينا لها من مناوشات جيران لهـــا يتاخمونها الحدود ويناصبونها العداء • وهكذا قامت حركة الفتوحات الاسلامية على أساس فكرة الجهاد ، باعتباره مبدأ وعقيـــدة ، وضرورة سياسية وحربية ، اقتضتها سلامة وأمن الدولة العربية الفتية التى أخذت تتكون آنذاك ، والتى أخذت تمتد وتتسع لتشمل خلال فترة قصيرة من الزمن المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج •

عظيمة وقديمة ، مثل حضارات مصر والشام والعراق والفرس واليونان والرومان ، فضلا عن حضارات الشرق الأقصى مثل الهند والصين . وأفاد العرب من كل تلك الحضارات ، وعملوا على التنسيق بينهما . وكانت الثمرة النهائية هي انصهار حضارات كل البلاد المفتوحة مع حضارة العرب فى بوتقة واحدة أنتجت حضارة جديدة شامخة ، لها مقوماتها وكيانها وخصائصها ومميزاتها ،هي الحضارة العربية الاسلامية التيقامت على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية ، ومن هنا اشتقت اسمها المركب . ولا شك أن وحدة اللسان الى جانب وحدة العقيدة الجديدة ، أوجدا رباطا قويا وحد بين الفاتحين العرب وأهالى البلاد المفتوحة .

وأما الغرب الأوروبى ، فقد كان خلال القرون الأولى من العصور الوسطى مسرحا عجيبا للفوضى والقلاقل التى نتجت عن غزوات الجرمان البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية. ويلاحظ أن العناصر الجرمانية المبكرة لم تقض على الحضارة والأنظمة الرومانية تماما ، بل أخذت بها، وعملت على تكييفها لتلائم الوضع الجديد . مثال واضح لذلك ثيودوريك Theodoric زعيم القوط الشرقيين (٤٩٣ — ٥٢٦) الذى أسس دولة فى ايطاليا استمرت حتى أواسط القرن السادس . فقد واصل التقاليد الرومانية القديمة ، مع الاحتفاظ بشىء من عنف النظام المتبربر . وكان ينظر الى المدينة الرومانية كمثل أعلى يجب أن يقتدى به . وعلى هذا استوزر شيوخ الرومان ،واستخدم كثيرا من الرومانيين فى ادارة دفة الحكومة فى البلاد . لقد تقبل المثل والتقاليد الرومانية القديمة ، مع ايمانه بقوة روما وعظمة الامبراطورية الرومانية . وساعد على ذلك استخدام الرومان فى أواخر عهدهم القوط كجند مرتزقة فى جيوشهم . فكانوا على علم بكل كبيرة وصغيرة فى العالم الرومانى ، وعاشوا فى ظل حضارته . وما يقال عن ثيودوريك فى هذا الشأن ، يقال أيضا عن كلوفيس

Clovis ملك الفرنجة فى غالة (٤٨١ — ٥١٠) • فقد حصل كل منهما على لقب الملك الشرعى على أراضيه من أباطرة الدولة الرومانية الشرقية وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة • ويدل هذا على أنه بالرغم من اسهام الجرمان فى القضاء على الامبراطورية الرومانية ، الا أنها مع ذلك لم تندثر تماما • لقد ظلت التقاليد والقوانين الرومانية ، كما عاشت روما بعد سقوط الامبراطورية القديمة ، ولكن فى قالب مغاير يتلائم والأوضاع الجديدة التى طرأت على مسرح الأحداث فى الغرب وقتذاك •

وكان استقرار الفرنجة فى غالة بقيادة كلوفيس بدايـــة لتأسيس الدولة الميروفنجية (٤٨١ — ٧٥١) التى كانت تنقســـم الى قسمين : أحدهما شرقى جرمانى الصبغة ، والآخر غربى رومانى الطابع ، وعلى كل منهما حاكم يسمى « أمير القصر » • وتعاقب على حكم هذه الدولة بعد موت مؤسسها عدد من الملوك الضعاف ، فى وقت اشتد فيه ساعد وزراء القصر ، الى أن انتهى الأمر فى أواسط القرن الثامن أن أصبح أحد وزراء القسمين وهو بين القصير الحاكم الأوحد للدولة بقسميها ، بينما الملوك الميروفنجيون الضعاف ألعوبة لا حول لهم ولا طول • وبين هذا هو آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الأسرة التى أعقبتها وهى الأسرة الكارولنجية التى نسبت الى شارلمان أو شارل العظيم (٧٦٨ — ٨١٤) ابن بين القصير ، وذلك بفضل قوة شخصيته واتساع فتوحاته •

على أية حـــال ، يلاحظ أن العناصر المتبربـــرة التى قضت على الامبراطورية الرومانية القديمة ، وفى مقدمتها القوط والفرنجة ، والتى أسست على أنقاضها دولا وممالك جرمانية ، كانت تختلف عنها فى نواح عديدة • فبينما كانت الامبراطورية الرومانية بيروقراطية الصبغة والطابع مركزية الحكم والادارة ، زالت فى ظل الدول الجرمانيـــة البيروقراطية الرومانية القديمة ، وزالت معها مركزية الحكم والادارة • كذلك زالت الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض • وظهرت طبقة حاكمة جديدة قوامها الغزاة الجرمان استمدت قوتها من الأرض التى استولت عليها •

كذلك أصبحت القرية بحضارتها الريفية الزراعية هى العمود الفقرى للمجتمع ، بعد أن كانت المدينـــة بسكانها الأحرار ونشاطهـــا التجارى والصناعى وحضارتها المدنية هى صلب هذا المجتمع •

وفى غمرة هذه الأحداث التى ألمت بالغرب ، وما صاحبها من تغير فى النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية ، ظهرت البـــذور الأولى للاقطاع الذى يعتبر من الملامح المميزة للمجتمع الغربى الوسيط ، ويعبر عن روح هذا المجتمع أصدق تعبير • وهو — باختصار — عبـــارة عن علاقة بين سيد ومسود قوامها الأرض وماتغله من خـــيرات ، بموجب واجبات والتزامات يؤديها التابع لسيده المتبوع • وقد أدت الى ظهوره عوامل مختلفة متعددة ترتبط بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، تتمثل فى علاقات التبعية الشخصية التى كانت موجودة عند الجرمـــان حتى قبل استقرارهم فى جوف الامبراطورية الرومانية ، ونظام الحماية عند الرومان فى أواخر عهدهم • وقد حافظ الجرمان ، وهم فى الأصل قوم رعويون زراعيون ، على هذه الأوضاع بعد غزواتهم • وكـــان هذا أساسا لنظام الاقطاع الذى ساد الغرب فى العصور الوسطى • وقـــد ارتبط هذا النظام بسياسة الاقتصاد الطبيعى Natural Economy أو الاقتصاد الاقطـــاعى Manorial Economy ، بدلا من الاقتصاد النقدى أو المالى Money Economy الذى كان عماد الدولة الرومانية القديمة • وهذا يعنى — باختصار — أن المجتمع الغربى فى ظل الاقطاع واقتصاده الطبيعى ، لم توجد فيه دولة أو أمة أو قومية أو غيرها من لزوميات الأمم والدول الحديثة والحكومات الشرعية ، مثل اللغة والآداب والتقاليد الموروثة والجيش القومى المدرب أحسن تدريب والمزود بالسلاح والأسطول المزود بأطقم من البحارة • كذلك لم يوجد فيه ما يعرف بالثروة العامة ، أو رءوس الأمـــوال النامية ، أو الجهـــاز الادارى الذى يدير دولاب العمل ، أو الموارد المالية الثابتة ، لان العلاقة بين الأفرد فى ظله أساسها الأرض ، والارض لا تلد مالا يسمح بالانفاق على كل هذه النواحى •

وكنتيجة لما تقدم ، نما الاتجاه نحو المحلية بدل المركزية ، وأصبح أى سيد اقطاعى هو ملك فى دائرة اقطاعه ، بينما غدا الملك هو الأول بين أقرانه فحسب ، ليس لهمن سلطان على غيره من السادة الأشراف الا بمقدار ما يملك من الأرض ، فى وقت أصبح أساس هـذا المجتمع هو الأرض ، أو حسبما قال المـؤرخ الفرنسى جيرار Guerard « من كان صاحب أرض صارت له بالتبعية أحقية فى السلطة » ويكفى للتدليل على ذلك أن شارلمان ، على الرغم من اتساع فتوحاته وامتداد رقعتها ، لم يكن عنده فى الخدمة سفينة واحدة أو جيش قائم من القوات المرتزقة، بما يسمح بالابقاء على الامبراطورية التى تم احياؤها فى عهده .

وترتب على ما تقدم أن الأرض أصبحت أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الغرب . وأصبح اقتصاد هذا المجتمع كما يقول العالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne فى كتابيه « مـدن العصور الوسطى » و « تاريخ اوروبـا الاقتصادى والاجتمـاعى فى العصور الوسطى » ، اقتصادا زراعيا بعد عودة المجتمع الأوروبى الى حضارة الريف . كذلك تدهورت المدن الرومانية ، وانغلقت على نفسها ، وقل سكانها ، وتدهورت التجارة فيها ، وأصبحت شبه معدومـة فى القرون الأولى من العصر الوسيط . وغدت هذه المدن مجرد مراكز دينية متدهورة تعيش فى سبات عميق ، ولا يدب فيها النشاط الا أيام المواسم والأعياد، لتعود بعد ذلك الى وحدتها وعزلتهـا القاتلة . وقد تحـدث عن ذلك بالتفصيل ارشيبالد لويس A. Lewis فى مؤلفه « القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط » .

● واذا كان هذا التطور قد شمل الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد امتد ليشمل أيضا الحياة الدينية ، وكانت المسيحية وقتها قد تأصلت فى اوروبا بعد صراع عنيف مع الديانة الوثنية ، وبعد الاعتراف الرسمى بها . وأصبحت الكنيسة الرومانية الغربية ، بحكم الظروف التى أحاطت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصـر الوسيط ، مستقلة عن الدولـة ،

وبكلمة أدق فى التعبير ، أصبحت دولة داخل الدولة ، وليست جزءا منها كما كان الحال فى الامبراطورية البيزنطية • لقد اعتبرت نفسها الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة ، وورثت الأباطرة الرومان مركزهم ونفوذهم بعد آن أصبح الكرسى الامبراطورى فى الغرب شاغرا بأنتقال الأباطرة الى الشرق وتأسيس القسطنطينية لتصبح عاصمة لدولة جديدة هى الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية •

ولم تنس روما أبدا أن القسطنطينية هى « روما الجديدة » أو « روما ثانية » بعد انتقال الأباطرة الرومان اليها ، وأنها هى التى ورثت التراث الرومانى القديم ، بينما انهار الغرب تحت ضربات الجرمان البرابرة • وبدأت روما تشعر بالغيرة والحسد والكراهية من سميتها ، وظل هذا ماثلا أمام أعين البابوية • هذا ، بينما اصطبغ الغرب بصبغة لاتينية جرمانية واضحة ، وارتبطت حضارته باللغة اللاتينية ، وانطبع الشرق بطابع هللينى ملموس وارتبطت حضارته باللغة اليونانية • وكان هذا هو بداية الخلاف والانشقاق المذهبى بين الكنيستين الشرقية والغربية •وتجلى فى المجامع المسكونية الأولى التى عقدت للنظر فى البدع والهرطقات التى تعرض لها العالم المسيحى وقتذاك • ففى المجمع الثانى الذى عقد فى مدينة القسطنطينية عام ٣٨١م ، ظهر التنافس واضحا بين روما والقسطنطينية • ففيه جعل لأسقف روما الأسبقية والمكان الاول ، وجعل لأسقف القسطنطينية المقام الثانى بين أساقفة العالم المسيحى وقتها • ونتيجة لذلك بذرت بذور العداء والبغضاء بين كنيستى روما والقسطنطينية ، وازداد عامل الغيرة والكراهية الذى تفاقم مع الزمن • وقد اتضح ذلك فى المجمع المسكونى الثالث الذى عقد فى مدينة افسس بآسيا الصغرى عام ٤٣١ م للنظر فى بدعة نسطور أسقف القسطنطينية القائلة بأن العذراء أم للمسيح الانسان فحسب • وفى هذا المجمع وقف أسقف روما ضد النسطورية باعتبارها هرطقة • وهكذا زادت الهوة اتساعا بين روما والقسطنطينية ؛ وساعد الزمن وتطور الظروف والأحوال فى العالم الأوروبى بشقيه على ذلك •

وبمضى الوقت أخذت كنيسة روما تتفوق تدريجيا علـى كنيسة القسطنطينية وباقى الكنائس المسيحية ، وأصبح لأسقفها مركز الصدارة بين أقرانه ، خصوصا بعد أن خلا له الجو بسقوط روما فى أخريات القرن الخامس وانتقال الأباطرة الى القسطنطينية ، وبعد أن ورث القياصرة الأقدمين سلطانهـم ونفوذهم ، وبعد نجاحـه فى تخفيف آلام الناس وأحزانهم فى أوقات الفوضى والاضطراب التى صاحبت غزوات البرابرة، وبعد نشاطه فى التبشير بالدين الجديد . وهكذا أخذت أسقفية روما فى النمو حتى تحولت فى أخريات القرن السادس الى بابوية لهـا هيبتها وكيانها ومقوماتها وطابعها الخاص بها . وكان ذلك أيام جريجورى الكبير أول بابوات روما . وكان هذا البابا قد وضع الأساس الذى بنى عليه نفوذ بابوية روما فى الأمور الدينية والدنيوية على السواء . وكان يهدف من وراء ذلك استقلال الكنيسة الغربية عن زميلتها الكنيسة الشرقية فى الناحية الدينية . وكانت الخلافات القديمة السابقة عاملا مساعد على تدعيم هذه السياسة الانفصالية عن الكنيسة البيزنطية التى كانت تنظر هى الأخرى بحق وجودها فى القسطنطينية عاصمة الأباطرة الشرقيين كراعية للكنائس المسيحية الأخرى .

كان هذا بداية الانشقاق المذهبى الخطير بين الكنيستين ، الـذى استمر طوال العصور الوسطى ، والذى عانت منه المسيحية الأمرين . وقد اتسعت هوته وازدادت حدته بعد موت جريجورى الكبير عام ٦٠٤م. اذ كانت معالم الطريق واضحة تماما أمام خلفائـه الذين نهجوا نهجه واقتفوا خطاه . فنجد البابـا مارتين الأول (٦٤٩ — ٦٥٥) يقف فى أواسط القرن السابع موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهـاتها السياسية والمذهبية . بينما يواجه البابـا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) مشكلة الحركة اللاأيقونية التى قام بها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠) ، ويتحداه تحديا صريحا ، ويشجع الغربيين على اهمال قراراته . وأخذت الشقة تزداد بعدا بين الكنيستين

وبين اللاتين والإغريق ، حتى بات كل منهما ينظر الى الآخر على أنــه عدوه اللدود ومهرطق لأنه على غير مذهبه •

ولكن اذا كانت هذه الخلافات قد أساءت الى العالم المسيحى أكثر مما أفادته ، فقد كان لنشأة الرهبنة وسرعة انتشارها فى الغرب ، بسبب الظروف التى ألمت بالعالم وقتها فى فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، أهميتها • وكان أول نشأتها فى مصر على هيئة حركة توحدية ، ثم تطورها الى حركة حياة اجتماعية للرهبـــان وانتقلت الى اوروبا على يد اثناسيوس الذى كان أسقفا للاسكندرية ، ثـــم نفى من كرسيه ورحل الى روما سنة ٣٤٠م• وساعد ، أيضا، على سرعة أنتشارها كتابات عدد من المفكرين والقديسين أمثال القديس أوغسطين أوف هيبو St. Augustine of Hippo ، والقديس جيروم St. Jerome وبالاديوس Palladius ، وكاسيان Cassien • وكان هؤلاء وغيرهم قد زاروا الأديرة المصرية فى القرن الرابع ، وعاشوا بين الرهبان، واستمعوا اليهم والى اقوالهم وتعاليهم • وسجلوا ذلك كله فى مؤلفات ساعدت على انتشار الرهبنة فى الغرب •

ولم تتحقق الحركة الديرية على الوجه الأكمـــل فى الغرب الا فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادى على يد القديس بندكت St. Benedict of Nursia الذى أدخل الديرية هناك على أساس الحياة الاجتماعية للرهبان فى أديرة لها قوانينها وتقاليدها وأنظمتهـــا •

وما يهمنا هو دور هذه الأديرة فى الحفاظ على بقايا العلم القديم • اذ وجد فى كل دير منها نواة لمكتبة ، ومكان لنسخ الكتب ، ليواصل كل من يلمس فى نفسه نزعة علمية أو أدبية نشاطه العلمى والأدبى • وقـــد حفظت هذه الأديرة الكثير من التراث الكلاسيكى والكتب القديمة التى كانت فى خطر الزوال أثناء غزوات البرابرة • وداخل هذه المكاتب واصل

النساخ والمؤلفون تحرير الكتب التاريخية والأدبية واللاهوتية والقانونية التى لا يزال الكثير منها متداولا حتى اليوم . وأخذت هذه النزعة العلمية والأدبية فى النمو والاتساع فى الأديرة البندكتية ، فى وقت كان الناس فيه يغطون فى نوم عميق . ومع الزمن تأسست بعض المدارس فى تلك الأديرة هدفها تعليم الأطفال الذين أعدوا لكى ينخرطوا فى سلك الكهنوت فيما بعد . وعلى هذا كانت الديرية البندكتية منبعا للعلم ،وأدت خدمة واضحة للفكر والحضارة فى غرب اوروبا فى العصور الوسطى المبكرة ، التى تعارف بعض المؤرخين الغربيين الحديثين ، ومن بينهم و . ب . كير W.P. Ker ، على تسميتها بالعصور المظلمة .

تلك هى الأوضاع منذ سقوط الامبراطورية الرومانية وظهور قوى جديدة على أنقاضها ، وحتى أواسط القرن الثامن الميلادى تقريبا . وتلك هى أهم معالم هذا الدور الأول للقوى التى برزت على أنقاض العالم الرومانى والحضارات التى ارتبطت بها . وأما عن الدور الثانى الذى يشغل قرنا من الزمان ، من حوالى عام ٧٥٠ م حتى حوالى عام ٨٥٠ م، فقد رسخت فيه الأوضاع التى أشرنا اليها فى الدور الأول . وهو موضوع الفصل الثانى من كتاب ساليفان الذى جعل عنوانه « نهضة الغرب » .

ففيما يتعلق بالغرب ، فقد تميز الفرنجة بأهميتهم التاريخية الفائقة ، لأنه بدخولهم فى حظيرة الدول الأوروبية قامت حكومات جديدة فى غرب أوروبا لها طابعها وكيانها ومقوماتها . وعلى هذا الاساس قامت دولة فرنسا ودولة المانيا اللتان كان لهما شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى و فى التاريخ الحديث حتى يومنا هذا . وكانوا قد ارتحلوا من أواسط آسيا ، وعبروا نهر الراين ، واستقروا غربا فى غالة . ومؤسس دولتهم هو كلوفيس الذى نجح فى تأسيس الأسرة الميروفنجية ، التى أعقبتها الأسرة الكارولنجية نسبة الى شارلمان . وقد شن شارلمان حروبه

فى كل اتجاه : ضد المسلمين فى اسبانيا ، وضد العناصر الوثنية الجرمانية المتاخمة لحدوده ، وضد اللمبارديين فى شمال ايطاليا استجابة لاستغاثة كل من البابا ادريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) والبابا ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) به • وكان الثمن هو أن وضع البابا ليو الثالث التاج فوق رأس شارلمان فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م • وبذلك تم احياء امبراطورية القياصرة الأقدمين ، ولكن تحت اسم جديد هو « الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة » •

وقد ثارت نظريات عديدة حول تأسيس تلك الامبراطورية ، وترتبت آثار بالغة الخطورة حول احيائهـا ، وبخاصة فيمـا يتعلق بعلاقاتها بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، فى وقت كانت فيه عوامـل الخلاف كامنة وقائمة • ولقد تم احياء الامبراطورية فى الغرب فى عهد الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٩٧ — ٨٠٢) وكان ايذانا بفصم الارتبـاط الواهى الذى كان قائما بين رومـا والقسطنطينية منذ القـدم ، وزوال التبعية الشكلية التى كانت تدين بها روما للقسطنطينية • وغير خاف أن النزاع اللاأيقونى الذى بدأته الأسرة الأيسورية زمن مؤسسها ليـو الثالث ، فضلا عن وجود امرأة على العرش الامبراطورى ، الى جانب الخلافات القديمة المزمنة — كان كل ذلك من أهـم الأسباب التى اتخذهـا البابا الرومانى دفاعا عن عمله هذا • والمهم أنه منـذ ذلك التاريخ أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية بكلمة أدق وأوضح فى التعبير • ويعتبر كل من جميس برايس J. Bryce ، وجوفرى باراكلاف G. Barraclough من أفضل من تناول بالدراسة والتحليل موضوع الفكرة الامبراطورية فى العصور الوسطى ، والآراء والنظريات المتعلقة بها •

لقد أثار هـذا الحدث الكثير من الجـدل والخلاف بين المؤرخين والكتاب الحديثين المعنيين بالفكر السياسى وفلسفته فى العصور الوسطى• واعتبره برايس بدايـة الامبراطورية الرومانيـة المقدسة • واختلف

بارا كلاف معه فى الرأى ، قـائلا بأنه لـم تكن هنـاك آنذاك سوى امبراطورية واحدة فقط هى الامبراطورية الرومانية التى كـانت قائمة فعلا ، والمقصود بها الامبراطورة البيزنطية • ويزيـد الأمر وضوحا ، فيقول انه لم تكن هناك أى فكرة تتعلق بتأسيس امبراطورية جديدة فى الغرب منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وقيام الممالك الجرمانية على أنقاضها ، وأن كل الذى حدث هو انتخاب امبراطور آخر فى ذات الامبراطورية القائمة • والخلاصة أنه ترتب على احياء الامبراطورية فى الغرب قيـام المنافسة والعداء بينهـا وبين الامبراطوريـة فى الشرق وريثة روما القديمة • وهكـذا أدى تأسيس امبراطوريـة أخرى فى الغرب الى ازدياد عوامل الحقد والبغضاء بين شقى العالم المسيحى • وان المفاوضات التى دارت بين الجانبين أيام شارلمان وخلفائه ،وتردد الرسل والمبعوثين بين القسطنطينية وآخن ، هى خير دليل على ذلك •

ووسط هذه الأحداث كانت البذرة الاقطاعية تنمو بسرعة فى الغرب آنذاك بعد أن وجدت المناخ الملائم لها • وبدأت الملامـح الجديدة التى طبعها الاقتصاد الطبيعى على المجتمع الغربى فى الوضوح ، بينما أخذت الدولة شكلا مغايرا يتلائم وأوضاع عالم متغـير • اذ انتزع الفرنجة املاك الطبقة الرومانيـة القديمة صاحبـة الأرض • وكانت النتيجة الطبيعية أن حل محل الدولة الرومانية نبت جديد قوامه الغزاة الجرمان، وقد ارتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع التى أحاطت بأوروبا فى فترة الانتقال فزالت ضريبة الارض التى عرفها الرومان ، ولم يعد هناك مكان للجند المرتزقة ، وبات الجيش اقطاعيا فى تكوينه ، وانهـارت البيروقراطية الرومانية من أساسها ، واختفت تبعا لذلك طبقـة الاداريين العلمانيين المرتبطة بها • واندثرت مـع الزمن الطبقة الرومانية القديمـة صاحبة الأرض لتحل محلها طبقة جديدة من الغزاة الجرمان التصقت بالأرض التى انتزعتها من أصحابها الرومان المهزومين الذين جعلتهم أتباعا لهـا بصورة أو بأخرى • ونتج عن كل هذا نمو الاقطاعيات الكبيرة وتطورها،

حتى أنها أصبحت تشكل الوحدة الأساسية للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الغربى الوسيط منذ ذلك الحين ولقرون عديدة لاحقة .

هكذا قامت الدولة فى الغرب عـلى أساس اقتصاد طبيعى يرتبط بالأرض وما تنتجه من محاصيل وغلات . وأى هذا الى وجود مجتمعات محلية ، ووحدات اقتصادية مغلقة غير متطورة تعتمد على سياسة الاكتفاء الذاتى . ولم يعد ثمة ما يعوق النمو الاقطاعى والتقسيم الطبقى بين الأحرار وغير الأحرار . اذ كانت التربة ممهدة لنمو هذه البذرة الجديدة فى مجمتع أصبحت الغلبة فيه للقوى ، وأصبح من يملك الأرض يملك معها السلطة والنفوذ . وترتب عـلى ذلك أن حلت المحلية محـل الحكومة المركزية ، وبات المجتمع طبقيا فى تكوينه ، يتألف من طبقـات أفقية تتسع تدريجيا كلما نزلنا الى أسفل . على قمته السادة الاقطاعيون من رجال الدنيا والدين ، وفى قاعدته العريضة أغلبيـة ساحقة من العبيد والأقنان والأرقاء وصغار المستأجرين . وكان هؤلاء الافراد يتبعون من فوقهم وليس لهم من متبوعين دونهم . وفى هذا الهرم الطبقى كان أفراد كل طبقة يدينون لمن فوقهم بواجبات والتزامات معينة عرفت فى المصطلح الاقطاعى باسم واجبات الخدمة والتبعية الاقطاعية . كمـا كانت لهم امتيازات وحقوق خاصة على غيرهم عن هم دونهم ، حتى اذا أتينا الى قاعدة الهرم العريضة نجد رقيق الأرض والأقنان يدينـون لمن فوقهم بواجبات التبعية ،ولكن ليس لهم حقوق أو امتيازات على غيرهم عن هم دونهم .

ونتيجة لهذه الأوضـاع التى استجدت عـلى الغرب ، استقلت الكنيسة الرومانية اللاتينية عن الدولة تماما ، وأصبحت بمثابة دولة داخل الدولة باعتبارها الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة كمـا يقول جورج جوردون كولتون G.G. Coulton فى كتابه « عـالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » . لقد اتسع نفوذها ، وازدادت هيبتها ، وارتبطت مصالحها بالدولة الكارولنجية الجديدة . ومع تحول

اقتصاد الغرب من اقتصاد نقدي يتصل بالمدن والتجـارة الى اقتصاد طبيعي أو اقطاعي يتصل بالقرية والزراعة ، أصبح رجال الدين من كبار ملاك الأرض . فكانوا يقتنون العبيد ، ويتصرفون فيهم بالبيع والشراء، ويتبادلونهم ويقتسمونهم فيما بينهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الحكـام العلمانيين ، وذلك وفقا لمـا ذكره لـودو موريتز هـارتمان L.M. Hartmann فى مقاله المعنون « الدولة فى العصور الوسطى المبكرة» وحتى الديرية البندكتية أخذت هى الأخرى تسير نحو التدهور ، عندما ازدادت ثرواتها ، وعندما رأى الرهبان أن الفائض منها يغنيهم عن العمل فأخذوا فى التكاسل الذى أعقبه الفساد والتدهور ، وتركوا أمور الفلاحة لأتباعهم من الفلاحين يقومون بها تحت اشرافهم . وباتت ديرية بند كت فى أمس الحاجة الى الاصلاح .

هكذا دب الفساد فى الجهاز الكنسي بأكمله . ولكن استقرار الأحوال فى غالة بصفة خاصة ، وفى الغرب بوجه عام ، فى عصر شارلمان بعد أن هدأت غزوات البرابرة وخفت حدتها ، ساعدت على احياء نهضة دينية . اذ سعى شارلمان الى رفع المستوى العلمى لرجال الدين ، ووجه عناية زائدة الى الأديره وغيرهـا من المؤسسات الدينية ، وعمـل على رفع المستوى الثقافى للرهبان الذين أخذوا وقتها يهملون أصول العلم والتعليم . وآية ذلك الخطابات التى كان يبعث بهـا بين وقت وآخـر الى رؤساء الأديرة والوعاظ وغيرهم من رجال السلك الكهنوتى ، يستحثهم فيها على التزود بالثقافة الأدبية ، ومواصلة العلم والتعليم ، الى جانب الاهتمام بالشئون الدينية والأمور الروحية . وقد نص فى هـذه الرسائـل على ضرورة الاهتمام بالنطق السليم والكتابة الصحيحة الخالية من الأخطاء. كما دعا الى تدريس الفنون الحرة بجميع الكنائس، وتنقية الكتب المقدسة من الشوائب العالقة بها . وطالب بالاكثار من المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، وأن تفتح تلك المدارس أبوابها لكل من يرغب فى تلقى العـلم وبدون استثناء .

ولشارل العظيم الفضل فى احياء نهضة علمية شاملة نسبت اليه فعرفت باسم النهضة الكارولنجية•ويرى الكاتب شاتوبريان Chateaubriand أن أولى جامعات العصور الوسطى فى الغرب ، وهى جامعة باريس ، انما ترجع أصولها وجذورها الى تلك النهضة المبكرة • ولاشك أن شخصية شارلمان ، الى جانب نفوذه وطموحه وآماله العريضة ، كان لها أكبر الأثر فى تدعيم هذه النهضة التى تعتبر ، حسبما يقول جون لامونت J. LaMonte فى مؤلفه « عالم العصور الوسطى » ، من أهم مظاهر عصر شارلمان ، أن لم تكن أهمها على الاطلاق • فقد قامت بفضل رعايته وتشجيعه ، ولم تنحصر فى عاصمة ملكه اكس لاشابل فحسب ، وانما امتدت لتشمل باقى أجزاء دولته المترامية الأطراف • فقد استدعى الى عاصمته كثيرا من علماء عصره من مختلف أنحاء القارة الأوروبية ، من الأدباء والفلاسفة واللاهوتيين والمفكرين والمؤرخين ، وذلك للاشتغال بأمور العلم والتعليم فى مدرسة البلاط التى أسسها فى عاصمته لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته • وكانت هذه المدرسة بمثابة مركز علمى متنقل ، اذ أمر شارلمان بانتقالها معه أينما ذهب ، حتى وهو فى حملاته الحربية • كذلك اهتم بجمع المتبقى من الكتب القديمة التى ظلت باقية ولم تعد عليها عوادى الزمن من مؤلفات اللاتين القدامى • كما وجه عناية خاصة الى المكتبات • كذلك احتل التاريخ مكانة مرموقة فى النهضة الكارولنجية • اذا انتعشت حركة التدوين التاريخى ، وتقدم فن الكتابة التاريخية ، وظهر العديد من المؤلفات التاريخية • وعرف نظام الحوليات الديرية التى سجلت الكثير من الأحداث التاريخية الهامة ، والحوليات الملكية التى تناولت تاريخ الكارولنجيين وكانت تدون تحت اشراف رجال البلاط •

المهم أن النهضة الكارولنجية فى القرن التاسع امتدت لتشمل شتى نواحى العلم والمعرفة،ولتصبح خطوة أولى ومتواضعة الى الامام فى سبيل التقدم ، بعد قرون طويلة من الفوضى والظلام • وذلك خلافا لما ذكره كل من ألبرت ماليه A. Malet وجيل ايزاك J. Isaac ، من أن النهضة المذكورة كانت تعوزها صفات الجمال والحرية والجرأة التى

اتسمت بها الحركة الانسانية فى عصر النهضة ، وأنها كانت حركة للاحياء أكثر منها خلقا وابتكارا • لقد كان طبيعيا أن تقوم النهضة الكارولنجية على الاستيعاب والنقل والمحاكاة ، لتعقبها مرحلة الابـــداع والابتكار • ولكنها ، على أية حال ، تحدد بشكل واضح الملامح المميزة لمجتمع اوروبى غربى ناهض من بين ركام العالم الرومانى •

وفى هذا الوقت الذى تبلور فيه شكل الدولة فى الغرب الأوروبى من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة ، واتضحت سمات الحضارة الجديدة ، كانت الدولة الاسلامية التى تأسست عقب ظهـــور الاسلام ، واتسعت لتشمل المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج ، تمر هى الأخرى بمرحلة تغير وتطور • فلم تعد حركة الفتوحات اعتبارا من أواسط القرن الثامن الميلادى (أواسط القرن الثـــانى الهجرى) تسير علىنفس معدلها السابق • ومنذ ذلك الحين وجه المسئولون فى المجتمع الاسلامى عنايتهم وجهودهم لوضع أنظمة داخلية ترتكز عليها الدولة • وصاحب ذلك بداية الخلافة العباسية سنة ٧٥٠ م على أنقاض الدولـــة الأموية التى أدت ظروف عديدة متداخلة متشابكة فى بعضها الى الثورة ضدها والقضاء عليها •

وهكذا أصبحت بغداد هى عاصمة العالم الاسلامى بدلا من دمشق• وكان هذا يعنى بكلمة أدق انحسار الصبغة الهللينية وزيـــادة المؤثرات الفارسية•وكان من حسن حظ العباسيين أن تولى الحكم فى الفترة الأولى من دولتهم عددمنالخلفاء الأقوياء مثلهارون الرشيد الذىكانت لهصلات مع العاهل المسيحى المعاصر له الامبراطور شارلمان•وكان أبرز ما قام به بنو العباس هو تأكيد الطابع الدينى للدولة بحيث أصبح الخليفة هو أمير المؤمنين • وقد ترك هذا بصماته على الحضارة العربية الاسلامية التى أخذت مميزاتها وخصائصها وشكلها النهائى وقتذاك • وكـــان من أهم معالمها البيروقراطية ، فيما يتعلق بنظام الحكم والادارة ، وتغلب العنصر الفارسى فى كل مرافق الدولة ، وحياة الفخفخة والأبهـــة والبهاء التى عاشها الخلفاء وعلية القوم • وقد زودنا ساليفان بصورة حيـــة نابضة

عن بغداد عاصمة العباسيين ، وجامعة المأمون ، ودور الأغنياء ، والأسواق ، والمدارس ، والحركة والحياة عن طريق التجارة الصادرة والواردة • وبين كيف أنها نعمت بالرضاء والاستقرار اللذين جذبا اليها الرحالة والزوار والتجار من مختلف بقاع العالم •

لقد ذاع صيت بنى العباس حتى امتد من الشرق الى الغرب • وتم الاتصال بين عاهلى الاسلام والمسيحية : هارون الرشيد وشارلمان وتبودلت السفارات والهدايا بينهما • لقد كان هارون الرشيد يسعى لتأييد الفرنجة له ضد مسلمى اسبانيا ، مقابل حصول شارلمان على تفويض من الخليفة العباسى بحماية مسيحى فلسطين وتأمين طريق الحج الى بيت المقدس • وكان من أثر ذلك تخفيف الضغط الاسلامى على الغرب الأوروبى ، وتوقف الحملات العسكرية ضد الدولة البيزنطية ، فيما عدا بعض الجزر فى البحر المتوسط التى استولى عليها المسلمون من بيزنطة مثل كريت وصقلية •

وهكذا تميزت الخلافة العباسية ، وبخاصة فى عصرها الذهبى ، بعالميتها وبيروقراطيتها ، كما نعمت عاصمتها بالاستقرار والأمن والرخاء والازدهار الاقتصادى ، الامر الذى أدى الى اتساع دائرة الاسلام بدخول أعداد غفيرة فيه بفضل محاسنه ومزاياه ، بحيث أصبح الدين رباطا قويا للوحدة بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها • والحقيقة أن العصر العباسى ، وبخاصة الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن الى أواسط القرن التاسع الميلادى (من أواسط القرن الثانى الى أواسط القرن الثالث الهجرى) ، فترة هامة بالنسبة للدين الاسلامى • فقد تم دراسة وتفسير الأحاديث النبوية الشريفة ، ومحاولة التوفيق بين الاسلام والمفاهيم الدينية والفلسفة للبلاد المفتوحة بما لا يتعارض وتعاليم الاسلام • وبدأ الاهتمام كذلك بدراسة الفقة والشريعة •

وصاحب الرابطة الروحية للعالم الاسلامى نهضة ثقافية • ولا نغالى اذا قلنا ان القرن الأول من العصر العباسى يعتبر المولد الحقيقى لحضارة اسلامية متميزة • حقيقة ان هذه النهضة بدأت فى العصر الأموى ، ولكنها

لم تتألق الا فى العصر العباسى الأول • وقد أدت الى نقل كثـير من مؤلفات الفرس والهنود والاغريق القدامى ، فى الفلسفة والطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك والجغرافية والأدب ، الى اللغة العربية • وساعد على ذلك اتساع عقول ومدارك الحكام المسلمين • وكان من أهم ثمار هذه النهضةجمع الكتب والمخطوطات ، وانشاء المكتبات ، ونشاط حركة الترجمة ، وظهور أسماء لامعة من المترجمين • فضلا عن بقاء جانب كبير من التراث القديم ، وبخاصة التراث اليونانى ، حيـا فى التراجم العربية ، وعليها دراسات وتعليقات العرب • واذا كانت هذه الحركة قد بدأت بالترجمة ثم التقليد والمحاكاة ، فقد أعقب ذلك التجديد والابتكار فالخلق والابداع فى نواح عديدة فى المعرفة الانسانية • وهى فى هـذا تشبه نهضة أخرى زامنتها وزاملتها فى الطرف الآخر من العالم ، وهى النهضة الكارولنجية المعاصرة لها •

واذا اتجهنا الى الدولة الرومانية الشرقية فسوف نجد أن الصراع اللاأيقونى كان على أشده وقتذاك • لقـد بدأت هـذه الحملـة زمن الامبراطور ليو الثالث مؤسس الأسرة الأيسوريـة • وكانت مقـاومة البابوية والغرب لها شديدة ، وكان البابا على رأس الحزب المعـارض للامبراطور اللاأيقونى • وأخذ أهل الغرب يشنعون على ليو ، ويتهمونه بالعمل على القضاء على المسيحية • وترتب على هذه الحركة فى ايطاليا أن ضعفت سلطة الامبراطور البيزنطى فيها ، وأصبح ممثله فى رومـا مجرد ظل لا قيمة له • وانتهزت البابوية هذه الفرصة لتدعيم نفوذهـا واستقلالها على حساب القسطنطينية تنفيـذا للسياسة الاستقلاليـة والانفصالية التى وضع خيوطها جريجورى الكبير ، والمقصـود بذلك الاستقلال عن الامبراطورية البيزنطية وكنيستها الشرقية • ولهذا السبب قاوم بابوات روما حركة تحطيـم الصور والتماثيل تحقيقـا لمصالحهم الخاصة • وبلغ بهم الأمر أن تحالفوا مع اللمبارديين فى شمال ايطاليا فى سبيل طرد الحاميات البيزنطية من الجنوب الايطالى ، وقد تم لهم ذلك •

لقد كان طبيعيا أن تجد حركة الامبراطور ليو الثالث أثرا معاديا فى غرب اوروبا الذى تمسك بالأيقونية • ويجب ألا يغرب عن البال أن عوامل هذا التمسك كانت متوافرة فى الغرب الذى ظل لفترة مـــا وثنيا حتى بعد ظهور المسيحية وانتشارها هناك • لقد عارض الحركة اللاأيقونية بشدة حسبما أسلفنا • وبلغت المعارضة ذروتها عندما أصدر بابا رومـــا جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) قرارا بحرمان الامبراطور ليو الثالث وبادر ليو بالرد على قرار حرمانه بحرمان بابوية روما من كافة حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا • كما فصل جميع الكراسى الأسقفية عن بابويه روما ، وحولها الى بطريق القسطنطينية • وواضح أن هــذه الخطوة من جانب الطرفين كانت عاملا جديــدا يضاف الى العــوامل السابقة ، مما زاد من حدة الخلاف والشقـــاق بين العـــالمين البيزنطى والأوروبى الغربى ، وبـــين الكنيستين الشرقية والارثوذكسية والغربية الكاثوليكية • ولعل هذا يفسر موقف كل مـــن اللاتين والبيزنطيين حيال الآخر فى الأحقاب التالية •

لقدتركت هذه الحركة آثارهـــا طوال حكـــم الأسرة الأيسورية ، وخلال حكم الأسرة العامورية التى جاءت بعدها • فبعد وفاة ليو وحتى نهاية البيت الأيسورى حكم سبعة أبـــاطرة ما بين مؤيد للحركـــة مثل قسطنطين الخامس وليو الرابع ونقفور الأول الخامس ، وما بين معارض لها مثل الامبراطورة ايرين وميخائيل الأول • ويلاحظ بصفة عـــامة أن انذكور من أفراد هذه الأسرة كانوا من مؤيدى الحركة فيما عدا ميخائيل الأول ، بينما كانت الاناث ممثلة فى ايرين من معارضيها • ولهذا شهدت الدولة اضطرابات دينية عنيفـــة انعكست على علاقاتها بالـــغرب ، تلك العلاقات التى كانت سيئة ومتدهورة بالفعل ، فازدادت سوءا وتدهورا • ويتمثل ذلك عندما استولى اللمبارديون على مدينة رافنا عـــام ٧٥٠ م ، وعلى باقى ممتلكات بيزنطة فى وسط ايطاليا ، تشجعهم على ذلك بابوية روما ، حتى اذا كان عـــام ٧٥١ م لم تعـــد بيزنطة تمتلك شيئا شمال

مقاطعة كالابريا • وكان لهذا التطور فى العلاقات بين شقى العالم المسيحى نتائجه البعيدة المدى ، بينما وجد بابوات روما فى الفرنجة فى غالة خلفاء جدد وأقوياء لهم ، بعد أن ساءت العلاقات بينهم وبـــين اللمبارديين • وبالرغم من دعوة ايرين المجمع المسكونى السابع والأخير للانعقاد فى مدينة نيقية عام ٧٨٨ م للعمل على ارجاع عبادة الصور ، فلم يمنع هذا التصرف من جانبها البابا الرومانى ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) من تتويج شارلمان امبراطورا على الغرب عام ٨٠٠ م • وبذلك حول اليه تلك التبعية الشكلية التى كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية • وكانت هذه نقطة أخرى على طريق التباعد بين روما والقسطنطينية ، وايذانـــا بفصم كل ما تبقى من ارتباط بينهمـــا • ومنذ ذلك التاريـــخ أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانيه الشرقية•

واستمر الصراع اللاأيقونى فى عصر الأسرة العامورية (٨٢٠ — ٨٦٧)، وكان موقف أباطرتها من الحركة امتدادا لموقف الأسرة الأيسورية فكان ميخائيل الثانى وثيوفيلوس من المؤيدين لها ، بينما كانت ثيودورا — التى كانت وصية على ابنها ميخائيل الثالث فيمـــا بين عامى ٨٤٢ و ٨٥٦ — من المعارضين لها •

وأما عن سمات الحضارة البيزنطية آنذاك ، فيمكن القول ان الدولة البيزنطية استمدتها لكونها وريثة روما القديمة وحضارتها • كان بيزنطة بيروقراطية الصبغة والطابع ، مركزية الحكم والادارة • وقد ارتكز هذا النظام البيروقراطى المركزى على قاعدة اقتصادية متينة هى الضرائب حسبما يقول لودو موريتز هارتمان • ومون النظام الضرائبى خزانـــة الامبراطور ، أى خزانة الدولة ، بفيض لا ينقطع من المال ، مكنـــه من مواصلة العمل دون توقف بهيئة موظفيه الضخمة ، مع الاحتفاظ بجيش دائم ثابت وأسطول بحرى كبير • وقد أهتـــم بهذه الناحية عـــدد من المؤرخين الحديثين المعنيين بالتاريخ البيزنطى ، وعـــلى رأسهم ستيفن

رانسيمان S. Runciman ، ونورمان بينز N. Baynes
وموس Moss ، وجورج استزوجورسكى G. Ostrogorsky

والخلاصة أن نجاح البيزنطيين فى تنظيم جيوشهم وأساطيلهم ،الى جانب جهازهم الدبلوماسى النشط وحكومتهم البيروقراطية المركزيـــة ، فضلا عن الاهتمام المتزايد بنظام الثيمات وهو تنظيم عسكرى قوى فى مناطق الحدود المعرضة للخطر ــ كل هذا مكن الدولة من الصمود أمام الهزات العنيفة التى تعرضت لها • ويرجع الفضـــل الأول فى ذلك الى نظامها المالى المتين القائم على سياسة الاقتصاد النقدى حسبما يرى كل من شارل ديل Ch. Diehl وهارتمان •

أما الكنيسة البيزنطية فقد ظلت جزءا لا يتجزأ من الدولة • وكان الامبراطور هو رأس الكنيسة منذ أن اعترف قسطنطين الكبير بالمسيحية فى أوائل القرن الرابع ، وبكنيستها باعتبارها الدولـــة ، وبالامبراطور باعتباره الرئيس الدينى الأعلى لها • وقد رفع هذا من شأن الامبراطور ومقامه • فالامبراطور ، حسبما قال ليو الثالث الأيسورى ، هو «حارس أبواب السماء وراعى القطيع مثل بطرس كبير الرسل » • وقد حـــال الوضع دون قيام صراع مكشوف بين الكنيسة والدولة فى بيزنطة ، بعكس الحال فى الغرب حيث كانت الكنيسة الرومانية دولة داخل الدولة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية والأمور الدنيوية •

وفيما يتعلق بقـــانون الايكلوجا Ecloga الـــذى أصدره ليو الثالث عام ٧٣٩ وبصماته على الحضارة البيزنطية ، فيمكن تلخيصه بأن القصد منه ، كما يقول ليو نفســـه ، هو أدخال المبـــادىء المسيحية فى القانون البيزنطى • لقد كان ليو رجلا متدينا ، وقاده تدينـــه من زاوية علم اللاهوت الى الحركة اللاأيقونية ، كما قاده الى العمل على صبـــغ الدستور بصبغة انسانية • ويبدو هـــذا فى القـــانون المدنى والقانون

الجنائى • اذ تم تخفيف عقوبة الاعدام ، وتقييد الطلاق ،واعطاء المرأة حقوقا لم تكن تتمتع بها من قبل •

كذلك شاهدت الدولة البيزنطية — بالاضافة الى ما تقدم — نهضة علمية وفنية كبيرة ، أثرت فيها الى حد بعيد حضارة العباسيين فى بغداد•

كل هذا جعل الدولة البيزنطية ، فى هذا الـدور الثانى ، فى مركز أفضل من أى دولة جرمانية فى الغرب ، كما جعلهـا تقف نـدا لجارتها الخلافة العباسية فى بغداد •

عرفنا أن الامبراطورية الرومانية بعد انحلالها وسقوطها انقسمت فى أوقـات متفاوتة الى حضـارات ثلاث هى : الحضارة البيزنطية ، والحضارة الاسلامية ، وحضارة الغرب الجرمانى • وخـلال قرن من الزمان ابتداء من أواسط القرن التاسع الميلادى (أواسط القرن الثالث الهجرى) ،كانت هذه الحضارات قد رسخت وبدأت فى النمو والتطور• ومع ذلك فقد استحدث أحداث جعلت طابع الوحدة الذى كان من أبرز خصائصها فى الدور الثانى ، ينهار ليفسح المكان للانقسامات والصراعات والخلافات ، وهى السمة العـامة للدور الثالث الـذى يطلق عليـه ساليفان عنوان « الانقسام الداخلى فى الحضارة الجديدة » •

ففيما يتعلق بالعالم الاسلامى ، أدت الخلافات الدينية والمذهبية الى تفككه وقيام دول مستقلة متنافسة متنافرة • ولم يأت القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) حتى أصبح العالم الاسلامى يتكون من عدة دويلات • فقد أصاب الوهن الخلافـة العباسية فى بغـداد ، وضعفت الحكومة المركزية فيها ، وأصبح الخليفة العباسى ألعوبة فى يد الترك الذين تغلغل نفوذهم • كما أصبح البلاط مسرحـا للمؤامرات ، واستشرى الفساد ، ولم تعد بغداد هى مدينة السلام كما كانت من قبل• وساعد على تفكك الخلافة الحركات الانفصالية التى ترتب عليها قيـام

دويلات جديدة . والنتيجة أنه لم تعد توجد دولة اسلامية كبرى ، بل حلت محلها دويلات عديدة مستقلة متنافسة ومتصارعة .

وهكذا بدأ العالم الاسلامى الذى كان متحدا قويا ، وقد تقطعت أوصاله وتفككت عراه . ومع ذلك ، فقد ساعدت الوحدة الدينية والرابطة الثقافية على سد الفجوات بين مختلف أجــزاء هذا العــالم . فرغم الانقسامات المذهبية العديدة داخل الاسلام ، الا أن المسلمين جميعــا تمسكوا بكتاب الله الذى استمدوا منه قوانينهم الدينية والسياسية . بل ان الاسلام — فى حد ذاته — أوجد فكرا واحــدا فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى ، حتى بعدتجزئته وتفتته . أما الرابطة الثقافية فتتمثل، امتدادا لما سبق ذكره ، فى أن الحضارة العربية الاسلامية بلغت ذروتها فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد (القرنان الثالث والرابع الهجريان). وقد شملت نواح عديدة فى المعرفة الانسانية .

وقد عمل الاسلام على تكييف كل هذه المعارف والعلــوم لتتلائم وحاجاته ، مع نبذ كل ما لا يقبــل التكيف . وأحسن المسلمون اختيار العناصر الصالحة من الحضارات التى صادفوها ، ومزجوها ببعضها مزجا سليما ، وسدوا فجواتها . وخرجوا من ذلك كله ببناء حضارى شامخ لا يمكن أن يوصف الا بأنه عربى اسلامى كما يقول جوستاف جرونيباوم G. Grunebaum فى مؤلفه « حضارة الاسلام » . وعلى هذا ، يمكن القول انه على الرغم من انقسام العــالم الاسلامى وتفتته السياسى اعتبارا من أواسط القرن التاسع الميلادى فصاعدا (اعتبارا من أواسط القرن الثالث الهجرى فصاعدا) ، فان وحدة اللسان ، والوحدة العقلية ، الى جانب وحدة العقيدة ، أوجدت رباطا متينــا بين مختلف أجزاء هذا العالم .

ولقد انتقلت هذه الحضارة المزدهرة اليانعة الى العالم الأوروبى عن طريق مراكز الاشعاع الحضارى المعروفة وهى : : الأندلس وصقلية

وجنوب ايطاليا • وعندما قامت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) ، أصبحت مصر والشام المعبر الرابع الذى عن طريقه انتقلت المعارف العربية الاسلامية الى اوروبا • وكانت هذه هى الشرارة التى أدت الى انطلاقة اوروبا وكسر قيودها التى عاشت أسيرة لها عدة قرون • ولا خلاف أن نهضة القرن الثانى عشر فى اوروبا المعروفة بالنهضة العلمية الأولى تمييزا لها عن عصر النهضة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بحركة الترجمة والمعارف الاسلامية • وليس هنا مجال بيان أثر الحضارة العربية الاسلامية على المدنية الأوروبية فى مختلف الميادين والمجالات ، فهذا موضوع يطول شرحه ويحتاج الى مجلدات ومجلدات ، وسبق أن كتب فيه متخصصون فى الشرق والغرب على السواء •

سوف يطول بنا الحديث اذا أردنا تتبع أفضال الحضارة العربية الاسلامية ومآثرها على العالم الأوروبى • ويكفى أن أحد الكتاب الغربيين الحديثين وهو ول ديورانت W. Durant ، يؤكد أن أعظم الأطباء والجغرافيين وعلماء البصريات والكيميائيين فى العصور الوسطى كانوا من المسلمين • وقد ترجمت معظم مؤلفاتهم ومقالاتهم الى اللاتينية ، وكانت تدرس فى جامعات اوروبا آنذاك ، وأصبحت الأساس المتين الذى بنت عليه اوروبا نهضتها •

واذا انتقلنا الى الدولة البيزنطية ، فسوف نجد أنها كانت فى هذا الدور سعيدة الحظ • اذ بدت الدولة آنذاك بيزنطية تماما بعد انتهاء النزاع اللاأيقونى ، واستقلال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة اللاتينية ، وبعد تخلصها — ولو مؤقتا — من العناصر المتاخمة لها على الحدود مثل السلاف والبلغار والروس بدخولها فى المسيحية على المذهب الشرقى • كما تولت عرش بيزنطة أسرة من أقوى الأسرات هى الأسرة المقدونية (٨٦٧ — ١٠٥٧) • وبلغت الدولة ذروة مجدها فى عهد هذه الأسرة التى أنتجت أباطرة اشتهروا فى السياسة والأدب والحرب • ونجحت — الى

حد بعيد — فى التخلص من مشاكلها فى الداخل والخارج . كما خدم أباطرتها فى كل الميادين ، فأثبتوا استحقاقهم للوظيفة واللقب الامبراطورى . واهتموا بتنمية ثروة البلاد وانفاقها فى الوجه الصحيح. وكانت النتيجة أن الدولة البيزنطية أصبحت هللينية وأعظم دولة فى الشرق .

ففى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية تسير سريعا نحو الضعف والانحلال ، بدت الامبراطورية البيزنطية قوية متماسكة . وساعد هذا أباطرتها على اتخاذ سياسة الهجوم ضد المسلمين ، بعد أن تغير ميزان القوى فى الصراع بينهما لصالحها . فقد انتهت الحروب التى قامت بين مؤسس الأسرة بازيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) وبين المسلمين فى شرقى البحر المتوسط وغربيه فى صالح بيزنطة . واستمرت هذه الانتصارات فى عهد قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) الذى استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها الى المسلمين . وفى عهد رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣) استعادت بيزنطة جزيرة كريت.ووصلت قوة الدولة مداها أيام نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩) الذى استولى على صقلية وقبرص وانطاكية وبعض المدن فى آسيا الصغرى ، بينما بلغت القوات البيزنطية حدود بيت المقدس وبغداد فى عهد سلطه يوحنا تزيمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦) . واستمرت حملات بيزنطة على الحدود الشامية أيام بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) حيث تقدمت جيوشه حتى طرابلس .

كانت الدولة البيزنطية آنذاك فى حالة استقرار وانتعاش داخلى ، مما هيأ لها اتخاذ سياسة المبادأة والهجوم ضد المسلمين الذين التزموا بسياسة الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ، ومما سهل لها تحقيق بعض الانتصارات على حساب الضعف الذى استشرى فى جسد الخلافة العباسية وانسلاخ العديد من ولاياتها عنها . وقد زامن ذلك وصاحبه ازدياد الصبغة البيروقراطية والنزعة المركزية فى الدولة . اذ أخرجت

الأسرة المقدونية عددا من الأباطرة الذين يعتبرون حجة فى هذا الميدان ، أمثال ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) صاحب مؤلفات « المحتسب » و « البروتوكول الامبراطورى » و « فن الحرب » ، وقسطنطين السابع مؤلف « كتاب الأقاليم » وكتاب « تنظيم الادارة فى الامبراطورية » و « مراسم القصور » وكتاب عن حياة جده بازيل المقدونى • ويدل هذا على تلك الصبغة التى اصطبغت بها الدولة البيزنطية كنتيجة لسياسة الاقتصاد النقدى التى أخذت بها •

ولايعنى ما تقدم أن بيزنطة قد استراحت تماما من مشاكلها ، وبخاصة مع جيرانها فى الخارج • فقد كان البلغار — على الرغم من اعتناقهم المسيحية على المذهب البيزنطى — مصدر متاعب متقطعة بالنسبة لها ، وبخاصة منذ أواخر القرن التاسع الميلادى فصاعدا •كذلك سبب الروس الكثير من المضايقات للدولة ، فى عهد كل من يوحنا تزيمسكيس وبازيل الثانى • وأما عن علاقة بيزنطة بالغرب الأوروبى فلم تكن بأفضل مما كانت عليه من قبل • اذ واجه مركزها فى ايطاليا خطر جديد منذ أواخر القرن العاشر الميلادى فصاعدا • وتمثل الخطر فى العنصر النورمانى التى بدت أطماعه واضحة فى الدولة البيزنطية نفسها خلال القرن الحادى عشر • وتأكدت هذه الأطماع أثناء الحركة الصليبية •

وأما عن علاقة كنيسة بيزنطة بالبابوية فى روما فقد كانت ، هى الأخرى ، تسير من سيىء الى أسوأ • وكان الأمل فى وحدة الكنيستين أمرا مستحيلا ، ولم يتبق سوى صبغ الانفصال بينهما بصبغة رسمية وبشكل نهائى • وقد وقع هذا فى أخريات عهد الأسرة المقدونية فيما عرف بحكم النساء ، عندما ضعفت الدولة وأصبحت مرتعا خصبيا للفوضى والمؤامرت • ففى زحمة هذه الظروف ، وقعت القطيعة الدينية الكبرى سنة ١٠٥٤ بين الكنيستين الشرقية والغربية ، والتى تعتبر وفقا لرواية ستيفن رانسيمان وصمة عار فى جبين المسيحية • وقد ترك هذا الحدث

الخطير أكبر الأثر فى التاريخ البيزنطى ، وفى تاريخ العلاقات بين العالمين اللاتينى والاغريقى ، بل وفى تاريخ المسيحية كلهـا • ويعتبر الحصيلة المنطقية للخلافات المتفاقمة بين اللاتين والاغريق ، والتى ترجع أصولها وجذورها الى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ولازالت المسيحية تعانى من آثارها حتى اليوم •

وكما تصدعت الخلافة العباسية ، وضعفت الدولة البيزنطية ، كذلك تفتتت الامبراطورية الكارولنجية بعـد موت شارلمان سنـة ٨١٤ م ، بسبب العودة الى التقاليد الجرمانية القديمة الخاصة بتقسيم الملك بين أبناء الملك باعتباره ملكا شخصيا له يوزع على ورثته من بعـده • فضلا عن سيادة الاقتصاد الطبيعى فى الغرب وقتذاك ، الـذى بموجبه قامت الدولة على أساس ريفى زراعى بحت ، بينما بدأت البذرة الاقطاعية فى الغرب فى النمو والترعرع •

لقد خلف شارلمان ابنه لويس الصالح (٨١٤ — ٨٤٠) الذى قام بتقسيم دولته بين أبنائه الثلاثة • ونظرا لمحاباته ابنه الأصغر على حساب أخويه الكبيرين ، فقد نشبت بعد موته حرب دامية بين الاخوة الثـلاثة انتهت بعقد معـاهدة فردان سنة ٨٤٣ م ، انقسـمت الامبراطوريـة بمقتضاها الى أقسام ثلاثة هى : القسم الغربى ويشمل فرنسا ، والقسم الشرقى ويشمل المانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال الى البحر المتوسط • وحصل المتولى على هـذا القسم الأخير ، وهو لوثير ، لقب الامبراطور • ولكـن أسرة لوثير انقرضت بسرعة ، وذهبت أملاكها الى ممثلى الأسرتين الباقيتين • وهكذا ظـل الغرب مسرحا للفوضى وعدم الاستقرار فتـرة من الوقت الى أن قامت أسرة كابيه بفرنسا (٨٨٨ — ١١٣٧) وأسرة السكسون بألمانيا (٩١٩ — ١٠٥٦) • وقد أدت هذه التقسيمات المتزايدة للغرب ، فى وقت أصبح فيه الاقطاع أساسا لنظام الحكم والحياة ، الى تأصل المحليـة والبعد

نهائيا عن فكرة الحكومة المركزية ، وقيام أسرات اقطاعية كبيرة تحول ولاء الجماعات اليها .

وفى ظل هذا النظام أصبح المجتمع الغربى الوسيط مجتمعا هرميا على قمته الامبراطور ، ويأتى بعده الملوك ، فالكونتات ثم الفيكونتات ، ثم النبلاء فالبارونات فصغار الفرسان . وكان هـذا الهرم يتكون من طبقات أفقية تتسع دائرتها كلما نزلنا الى أسفـل ، الى أن نصـل الى طبقة الأقنان ورقيق الأرض فى قاعدته العريضة . وأصبح كـل سيد اقطاعى له نظمه وقوانينه وعملته ومحكمته الخاصة به التى يحتكم اليها أتباعه . كما أصبح له طواحينه وأفرانه ومعاصره التى تلجأ اليها أتباعه لطحن غلالهم وعصر كرومهم وخبز عيشهم . بمعنى أن الاقطاعية أصبحت وحدة اقتصادية مغلقة مكتفية ذاتيا بما تنتجه من مأكل وملبس ومشرب. وكان الفلاح يعيش داخل هذه الدائرة الضيقة من المهد الى اللحد ، دون أن يعرف شيئا عن العالم المحيط به .

وفى غمرة هذه الظروف تأكدت سلطة الجهـاز الكنسى البابوى فى الغرب ، وانغمس فى الاقطاعية ، وأصبح رجاله رجـال دين ودنيا فى نفس الوقت . وقد أدى هذا ، فى نهاية الأمر ، بجانب عوامـل أخرى متعددة متفاوتة التأثير ، الى دخول البابوية فى صراع عنيف ضد القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطورية ، فى سبيل النفوذ والسلطان.

ومع كل ذلك ، يجب ألا ننسى دور هذا الجهاز فى احيـاء العلم والتعليم ، واحتكاره للحياة الثقافية فى الغرب وقتـذاك . فلا شك أن المدارس العامة التى ألحقت بالمؤسسات الدينية ، من كنائس وأديـرة وكاتدرائيات وابروشيات ، كانت المشعل الذى أضاء ظلمـات العصور الوسطى المبكرة . كما ارتبطت بحركات الاصلاح العديدة التى ظهرت فى أوروبا . وقد ارتبط تأسيس تلك المدارس بالدين ، لأن الغرض الأصلى منها كان تثقيف الصغار ثقافة دينية بحتة تخدم أولا وأخـيرا أهداف

الدين المسيحى ، واعدادهم لكى يصبحوا قساوسة فيما بعد ويخدمون فى سلك الكهنوت حسبما اسلفنا • وقد لقيت هذه المدارس تشجيع كبار رجال الدين والدنيا ، وعلى رأسهم البابوات والأباطرة والملوك •

أما الأديرة ، فقد ظلت ، بعد الاصلاح البندكتى ، تؤدى رسالتها التعليمية والثقافية كما كان الحال من قبـل • وكانت الأديرة البندكتية لا تزال من أهم المراكز التى اعتنت بالدراسات الكلاسيكية القديمـة ، لأنها كانت أقدم الأديرة التى تأسست بالغرب ، فضلا عن انتقال النهضة الكارولنجية اليها • وفيهـا نمت وازدهرت النزعـة العلمية والأدبية والثقافية • وألحقت بها مدارس أصبحت مع الوقت معاهد علمية يشتغل فيها الكثير من الرهبان بالنسخ والتأليف والمحافظة على مـا تبقى من التراث القديم ، الى جانب مهنة التعليم • وعندما جاء الاصلاح الكلونى فى القرن العاشر ، لم يغفـل القائمون على أمره هـذه النزعة العلمية والأدبية التى تميز بها الاصلاح البندكتى ، انما شجعوها ورعوها •

ولكن احتكار الجهـاز الكنسى فى الغرب لأمور الثقافـة والعلم والتعليم ، وللنواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وانزلاقـه الى الاقطاعية ، أدى به فى النهايـة الى تدهور وانحلالـه ، وزوال هيبته ، وفقدان قدسيته ، وانفضاض الناس من حوله ، ودخولهم أفواجا فى المذاهب الدينية الجديـدة التى طالبت باصلاح البابويـة والكنيسة اللاتينية من المفاسد التى تغلغلت فيهما ،ابتداء من أصغر قس حتى البابا نفسه • وكان هذا ايذانا بتخلخل الأوضاع والمفاهيم التى قامت عليهـا العصور الوسطى الأوروبية ، وتهيئة الجو لعصر جديد بمفاهيم جديدة مغايرة ، وهو عصر النهضة الـذى يرتبط بالتاريخ الحـديث والمعاصر ومدنيته الزاهرة العملاقـة •

ورثة الامبراطورية الرومانية

الغرب الجرمانى ــ العالم الاسلامى ــ الدولة البيزنطية

مقــدمة المؤلف

فى عام ٥٩٣ أو ٥٩٤ م كتب البابا جريجورى الأول المرثاة التالية يصف فيها الحالة التى وصل اليها العالم (آنذاك) :

« اننى اتساءل : هل ثمة جديد يبعث على الرضا والسرور فى هذا العالم ؟ ففى كل مكان نلاحظ النزاع والصراع ، وفى كل مكــان نسمع الآهات والأنين • وهاهى المدن تدمر ، والقلاع تهدم ، والحــقول تقفر من سكانها • وأصبحت الأرض خاوية ، فخلت الحقــول من الفلاحين ، ولا يكاد يوجد سكان فى المدن • أما الباقون على قيد الحياة ، فهم حثالة فقيرة للانسانية يتم سحقها دون انقطاع • ومــع ذلك فضربات العدالة الالهية لا نهاية لها ، لأنه بين هذه الضربات لم ينصلـــح المذنبون الذين يقترفون المعاصى والآثام • فالبعض وقعوا أسرى ، بينما فقــد البعض الآخر أطرافهم ، وقتل البعض • وها أنا ذا ، مرة أخرى ، أسأل اخوتى: ماذا قد تبقى من بهجة ؟ أن نحب عالما مثل هذا ، فليس ذلك لاننا نحب أفراحه ، بل أتراحه وبلاياه • أنظروا ما حدث لروما التى كانت فى يوم ما سيدة العالم • لقد انهارت تحت وطأة فيض من الأحزان ، كما أنهكها هجر مواطنيها لها وهجمات أعدائها عليها ، فضلا عن مختلف أنواع الدمار التى ألمت بها • وهكذا نرى أنه قد تحقق ما جاء على لسان (حزقيال) النبى منذ أمد بعيد عن مدينة السامرة • »

وبعد اعطاء جريجورى حقه الانسانى فى تضخيم متاعب عصره ، نجد أن هذه الجمل القليلـــة (التى فاه بها) تمدنا بنظرة دقيقة لحـــالة العالم المتمدين فى نهاية القرن السادس الميلادى ، وكذلك مشاعر الناس أصحاب الحس المرهف حيال هذه الأوضاع •

وان تحذير جريجورى لقرائه « أن يروا ما قد أصاب رومـــا التى كانت فى وقت ما سيدة العالم » انما يشير ضمنا الى وجــود اتجاهين

متصارعين أقلقا المجتمع فى عصره . فكان ثمة فى حوض البحر المتوسط نظم وأفكار قد انحدرت اليه رأسا من العصر الرومـانى وهى فى أوج عظمتها .وقد خلقت هذه المخلفات فى عقول بعض معاصرى جريجورى وهما مشوبا بالغرور بأن حضارة روما مازالت قائمة . ومع ذلك فقـد كانت هناك علامات واضحة بأن شيئا ما قد « أصاب » روما القديمـة ، وأن بقايا الحضارة الرومانية قد فقدت كثيرا من حيويتها وسط تفاعل القوى الجديدة . وان فهم التاريخ بعد بابوية جريجورى ليحتاج الى معرفـة هذا التفاعل بين القديم والجديد .

ولقد كان استمرار بقاء حكومة الامبراطورية الرومانية واحدا من المخلفات الرئيسية للحضـارة الرومانية القديمـة فى القرن السادس الميلادى . فكان الحاكم فى عصر جريجورى لايزال يلقب نفسه امبراطورا Imperator أو اوغسطس Augustus (أى العظيم) . وأصبحت القسطنطينية ، مركز الحكومة الامبراطورية ، هى عاصمتة بعد أن نقلها (الامبراطور) قسطنطين (الكبير) من روما عام ٣٣٠ م . ولم يكن هذا بمثابة اعتراف بأنهيار الامبراطورية الرومانية ، وانما كوسيلة للتغلب على مشاكلها (بما يتفق ومقتضيات الظروف والأوضاع الجديدة) اذ غزت القبائل الجرمانية بعض أقاليم الامبراطورية النائية . ومع ذلك فلم تستطع هذه الغارات الناجحة التى شنها البرابرة اقناع معظم سكان العالم الرومانى بأن روما قد « سقطت » بأى حال من الأحوال . ذلك أن البرابرة الـذين تركزوا بصفة رئيسية فى الغرب ، قـد اتحدوا مع الامبراطورية بوصفهم حلفاء للحكومة الرومانية ، وبذلك اعترفوا بسيادة امبراطور القسطنطينية . وكان الامبراطـور جستنيان Justinian (٥٢٧ — ٥٦٥ م) قد استعاد قبيل بابوية جريجورى (الكبير) مباشرة بعض المقاطعات الغربية من حكامها الجرمان ، دالا بطريقة عمليـة على أن روما مازالت على قيد الحياة ، حتى وان كان مركزها قد أصبح على البسفور ، وان كانت بعض أراضيها قد وقعت فى قبضـة البرابرة دون

رجعة • وفوق ذلك ، فقد استمر أباطرة القرن السادس الميلادى فى ادارة شئون الدولـة طبقا للأسـاليب السياسية التقليدية • فقـادوا الفرق العسكرية دفاعا عن الامبراطورية ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمـة والأبهة ، فضلا عن الطقوس والاحتفالات المتعلقة بمنصبهم القديم • كما قاموا بالعديد من الأعمال لضمان السلام والرخاء لرعاياهم • ومـازال الأباطرة يسيرون دفة بيروقراطية منظمة تنظيما جيدا ، ويجمعون دخلا هائلا ، وينظمون الحياة الاقتصادية والاجتماعية لشعب كبير • كل هذه العوامل مجتمعة جعلت الامبراطور الرومانى شخصية لها أهميتهـا فى عالم البحر المتوسط •

وكان المسيحية رباطا ظاهريا آخر للوحدة التى تربط شعوب حوض البحر المتوسط • وقد اعترفت الدولة الرومانية أخيرا بالمسيحيـة بعد صراع طويل (بينها وبين الوثنية وعبادة الامبراطور) ، تمكن خلاله أتباع المسيح من تكييف عقيدتهم لتلائم احتياجات العالم الرومانى • وكـان اعترافها بها مبكرا يرجع الى أوائل القرن الرابع الميلادى • وفى نهايـة ذلك القرن أصبحت الدين الرسمى للدولة، وغدت الامبراطورية الرومانية « امبراطورية رومانية مسيحية » • وبالرغم من المشاحنات المريرة التى قامت بين المسيحيين وبعضهم البعض ، الا أن الدين الجديد زود عـالم البحر المتوسط فى القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية بعنصر قوى من عناصر الوحدة • وكانت العقيدة المسيحية وطقوسها وتنظيمها أساسا عاما استطاع أن يلتقى عنده جميع الناس على اختلاف أجناسهم •

وفى النهاية كان ثمة بقايا لها دلالتها وأثرها من التـراث الثقافى اليونانى — الرومانى السابق ، لاتزال موجودة فى نهاية القرن السادس الميلادى • وهذه قوة أخرى شديدة تدفع الناس الى التفكير بأن العالم القديم لايزال على قيد الحياة • فما زال الأدب والفلسفة والفن والعمارة المرتبطة بالعصر الكلاسيكى تلعب دورا حيويا فى حياة رجال العلم فى كل مكان حول البحر المتوسط • ومـازالت مستويات التفـوق والابداع ،

والأسلوب ، والجمال ، تقاس بمعايير يونانية رومانية • وثمة حقيقة دعت الى استمرار بقاء هذا التراث الثقافى على وجه الخصوص ، هى أن المسيحيين قد وجدوا أنه ضرورى لمواجهة الأفكار الوثنية والتصدى لها ، ولتوضيح فلسفتهم اللاهوتية وتدعيمها • ولم تستطع حتى أعنف الهزات التى سببتها غزوات البرابرة أن تقض تماما على التراث الثقافى القديم •

لذا كان من الممكن الاعتقاد بأن الحضارة الرومانية بخصائصها السياسية والدينية والثقافية مازالت قائمة تجلب « البهجة والسرور فى العالم » ، ولتكون أساسا وجود ثقافى يحيط بعالم البحر المتوسط ، وهو الأمر الذى يمكن تبريره تبريرا جزئيا لبعض معاصرى البابا جريجورى • ومع ذلك تعكس مرثاة جريجورى الحقيقة الرهيبة بأن آلاما وبلايا عديدة قد قوضت بقايا الحضارة الرومانية ، الأمر الذى أثار شكوكا خطيرة فى أذهان المعاصرين عن قدرة روما فى تجنب الانهيار النهائى التام • وقد ثار الخلاف بين العلماء حول فترة المرض الذى أصاب الحضارة الرومانية ، وكذلك الحد الفاصل للازمة النهائية • ولكن وجدت بكل تأكيد علامات قوية تشير بأن الموقف كان محفوفا باليأس فى نهاية القرن السادس الميلادى •

وكانت الحالة السياسية للامبراطورية الرومانية قد هيأت أسباب القلق • فمع أن الأباطرة الذين حكموا فى القسطنطينية قد طالبوا بممارسة سلطتهم على جميع بلاد الامبراطورية القديمة ، وقد مارسوها بالفعل فى بعض المناطق والجهات ، الا أن قوتهم الفعلية لم تكن تعادل دعاويهم • ففى الغرب استقرت عدة شعوب جرمانية استقرارا تاما فى أراض كانت فى يوم ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ، ولم تعبأ على الاطلاق أثناء حكمها لادعاءات امبراطور القسطنطينية بالسيادة والسيطرة فقد أقام الفرنجة فى غالة وغرب المانيا ، والقوط الغربيون فى اسبانيا ، واللمبارديون فى ايطاليا ، والأنجلو سكسون فى بريطانيا • ونادرا ما أقام

هؤلاء السادة الجرمان حكومة مستقرة يسودها السلام كتلك التى ميزت النظام الرومانى الامبراطورى • فعندما شكسا جريجورى من الخراب والبؤس (اللذين حلا بالعالم الرومانى) ، انما كان فى الواقع يشير الى أنوان الدمار التى أحدثها اللمباردیون الجرمان فى ايطاليا الذين تحدوا الأباطرة الرومان فى سيطرتهم على شبه الجزيرة الايطالية بعد عام ٥١٨م • وكان لابد للفوضى والصراع فى الغرب أن يثيرا الشكوك العنيفه الجادة فى عقول أولئك الذين مازالت تراودهم فكرة استمرار الحضارة الرومانية وكنتيجة للاستقلال الذى تتمتع به سادة الغرب الجرمان ، أصبح أمرا تقليديا عند مناقشة التاريخ السياسى للقرن السادس أن يتطرق الحديث الى « امبراطورية رومانيـــة شرقية » «Eastern Roman Empire» أكثر من الكلام عن « امبراطورية رومانية » «Roman Emp.re» • ولقد واجهت السلطة الامبراطورية ، حتى فى الشرق ، مشاكل رهيبة • وكان أشدها خطرا هو الدفاع ضد الفرس والصلاف والآفار • وواجهت الحكومة الامبراطورية مزيدا من الصعاب فى سبيل جمع الأموال وحشد القوى البشرية للتصدى لهذه التهديدات • ورغما عن كل تقاليدها المجيدة وادعاءاتها الضخمة ، لم تكن الامبراطورية الرومانية فى القرن السادس الميلادى هى نفس الامبراطورية القديمة •

ولم يكن هناك شىء شبيه بالوحدة الدينية بالرغـــم من الحقيقة المعروفة وهى أن المسيحية كانت قد أصبحت دين جميع الناس تقريبا فى حوض البحر المتوسط ، لانه فى جيل جريجورى الأول كان رداء المسيح المكون من قطعة واحدة قد تمزق من نواح عدة • فقد تصارع كثير من كبار رجال الكهنوت من أجل زعامة العالم المسيحى • وكان أساقفة روما والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية أشدهم اصرارا على هذا المطلب، وقد اتخذوا جميعا لقب « البطريرك » ، دالين بذلك على تفوقهـــم على غيرهم من الأساقفة • وتولدت الخصومات نتيجة لهـــذه الادعاءات ، واشتدت المشاحنات وزادت مرارتها ، وبخاصة بين روما والقسطنطينية،

والتى اشعلتها الخلافات حول ممارسة الطقوس الكنسية التى فرقت بين الجماعات المسيحية وبعضها البعض . ولكن أكثر الأسباب مدعاة للانقسام والفرقة ، تلك النزاعات المذهبية التى اشتد أوارها فى العالم المسيحى . وأخصها بالذكر ذلك الخلاف الذى استمر طويلا حول الثالوث وطبيعة المسيح . ولقد بدأ هذا النزاع فى القرن الرابع الميلادى ، وتمخضت عنه العديد من المذاهب المسيحية خلال الأجيال المتعاقبة . كما طالب أباطرة القسطنطينية بأن يكونوا هم رؤساء الكنيسة ، وأبدوا رغبتهم فى التمسك بالوحدة الدينية والمحافظة عليها ، وسعوا مرارا وتكرارا فى سبيل الوصول الى حل يرضى الأطراف المتنازعة . ولكنهم نجوا فقط فى توسيع رقعة هذا الشقاق . ذلك أن الاختلافات المعقدة العامة فى النواحى التنظيمية والطقسية والعقائدية جعلت المسيحى يقف ضد أخيه المسيحى.وهكذا أثبت النزاع بطلان القول بأن الايمان بالمسيح يجمع جماعة المؤمنين معا فى مجتمع واحد .

أما الوحدة الثقافية التى تباهوا بها الى حد المغالاة ، فقد تحولت هى الأخرى من كونها حقيقة الى مجرد خيال . اذ مضى الوقت الذى كان يتميز فيه الرجل المتعلم فى عالم البحر المتوسط بقدرته على استخدام اللغتين اللاتينية واليونانية بسهولة . ولم يكن جريجورى العظيم يتكلم اليونانية ، مع أنه كان بلا شك واسع العلم وفقا لمعايير الغرب . وخلال القرن السادس بدأت اللغة اليونانية تحل محل اللغة اللاتينية ، وذلك باعتبارها لغة الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية . واضاف هذا الأمر تأكيدا رسميا بوجود حاجز لغوى عمل على انقسام الحياة الفكرية لمجتمع البحر المتوسط . أما فى الغرب فقد جعل نفوذ الجرمان البرابرة من الصعب جدا الاحتفاظ بروابط مع الثقافة اللاتينية الكلاسيكية . وغدت الأديرة أكثر فأكثر الملاذ الوحيد الذى يمكن بداخله مزاولة أى مظهر من مظاهر النشاط الأدبى أو العلمى . فقد كان الرهبان الذين نذروا أنفسهم أساسا لخدمة الله ، وهم الفئة المنتقاة فيما يتعلق بوجهات

نظرهم حيال الثقافة الكلاسيكية ، وكانوا يميلون الى الابقــاء على ما يساعد على النهوض بالدين واذكاء روح التقوى والتصوف . أمـــا فى الجهات الشرقية النائية من العالم الرومانى القديم ، فكانت توجد ثورة من التقاليد الثقافية المذهبية الخاصة بمصر وسورية وفارس التى قدمت اضافات لها وزنها الى ما يطلق عليه الآن الثقافة اليونانيـــة الرومانية ، وبخاصة فى العصر الهللينستى الذى جاء بعد أعمال الاسكندر الأكبر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . ولقد بدت هـــذه المؤثرات الشرقية ، لفترة ما على الأقل ، عندما كانت القـــوى الرومانية فى أوجهـــا ، وقد امتزجت فى وحدة ثقافية سادت جميع أنحاء عالم البحر المتوسط . أما شعوب الشرق الأدنى فلم تفقد أبدا شخصيتها أو ذاتيتها ، ولم تتقبـــل أسلوب الحياة اليونانية الرومانية بحذافيره . فعندما بدأ الثقل الداخلى والضغط الخارجى يضعفان من الروابط السياسية للامبراطورية الرومانية عادت التقاليد القديمة لتؤكد وجودها ، مبينة أن الوحدة الثقافية السابقة كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية .

وبناء على ذلك ، فان مرثاة جريجورى تعكس حالة مجتمـــع وصل الى نقطة دقيقة فاصلة فى تاريخه ، كما تعكس عالما سادته حالة شديدة من التوتر . فكانت التقاليد القديمة الخاصة بالوحدة السياسية والدينية والثقافية لاتزال قائمة فى القرن السادس ، وقد بثت فى النـــاس روح الأمل فى أن العناصر الجوهرية للنظام القديم قد تستمر (بعـــد زوال الامبراطورية الرومانية) . ومع ذلك ، فان مظـــاهر البؤس البـــادية للعيان والسائدة فى ذلك العصر ، وبعضها يرجع الى قرون طويلة مضت كانت قد غمرت قلوب بعض الناس باليأس بشكل واضح . وربما اتفق الكثيرون مع جريجورى فى أن تلك الكروب والأحزان البالغـــة الشـــدة استطاعت فقط أن تبين أن يد الله كانت تعمل بلا رحمة أو هـــوادة فى سبيل اسقاط « سامرة » عصر جريجورى ، أى رومـــا . وكان الأمـــل واليأس هما القطبين اللذين تعلقت بهما أفئدة الناس أصحـــاب الحس المرهف فى القرن السادس . وكان لا بد أن تتمخض عن عقول هذه شأنها

فى العصر التالى ، سلسلة كاملة من التطورات التى فكت قيود التوتر ، وقررت الى الأبد مصير العالم القديم .

وهدف هذه الدراسة الكشف عن القوى التى وضعت نهاية للوهم الذى عاش فيه أناس القــرن السادس الــذين تصوروا أن الحضارة اليونانية الرومانية كانت لاتزال قائمة ، والتى جعلت الوعى المعــاصر لفجر عصر جديد حقيقة واقعة. فلم تكن ثمة وسيلة يتعرف بها جريجورى العظيم على ما يخبئه القدر العالم المشتت المتدهور من حوله . اذ شهد حوض البحر المتوسط فى القرون الثلاثة التى تلت بابويته ثلاثة مجتمعات جديدة فريدة فى نوعها حلت محل الحضارة الرومانية التى تميزت بطابع الوحدة ، واحتل كل مجتمع منها جزءا من أجزاء الامبراطورية الرومانية القديمة ، وكان متجانسا معها الى حد ما . ومع ذلك ، فقد امتدت رقعة كل من هذه المجتمعات فيما وراء حدود روما ، وشملت مظاهر جديدة لم تكن معروفة للعالم القديم . وقد عرفت هذه الحضارات الثلاث الجديدة عادة ، بالحضارة الأوروبية الغربية ، والحضارة البيزنطية ، والحضارة الاسلامية . وربما كانت بعض الظواهر والتطورات القليلة فى تاريــخ العالم ذات أهمية تفوق قيام الحضارات الثلاث من أعماق عــالم تدل سماته على أنه أصبح قديما وجديــدا (فى ذات الوقت) . وقــد ترك الازدواج فى أصل هذه الحضارات آثاره على العالم الحديث ، وجعــل من الأهمية بمكان أن نتعرف على القرون التى قامت فيها عوالم جديدة فوق أنقاض روما وحطامهــا .

الفصل الأول

ورثة الحضارة الرومانيـــة

التغيير الذى طرأ على الامبراطورية الرومانية الشرقية :

الأراضى المفقودة .

اعادة تنظيم الامبراطورية من الداخل .

التغييرات الدينيـــة .

مولـــد الحضارة الاسلامية :

بلاد العرب قبل الاسلام .

النبى محمد (ﷺ) .

الدين الاسلامى .

الفتوح الاسلامية .

التطور الداخـــلى .

المجتمع الأوروبى الغربى :

الفوضى السياسية .

التطور الاقتصادى والاجتماعى .

الحياة الدينية فى غرب اوروبا .

التطور الثقافى .

تتناول هذه الدراسة التطور التاريخى الذى يشغل الفترة الممتدة من حوالى عام ٦٠٠ م وحتى عام ٧٥٠ م • ففى خلالها تهاوت الوحدة لتفسح المجال أمام أنقسام ثلاثى فى منطقة البحـــر المتوسط • وهكذا أصبح العالم الواحد ثلاثة عوالم • وأول ما يتميز به هـــذا العصر هو تقلص الامبراطورية الرومانية على طول الخط ، وما ترتب على ذلك من تحول داخلى عنيف لتلك الدولة • وقد بلغ من عنف هـــذه التغيرات أن بعض المؤرخين الحديثيين وجدوا أنه ليس من الدقة بمكان التحدث عن « امبراطورية رومانية » ، أو حتى عن « امبراطورية رومانية شرقية » فى القرن الثامن الميلادى • وحاولوا أن يحلوا محلها الاصطلاح المعروف بـ « الامبراطورية البيزنطية » نسبة الى بيزنطة «Byzantium» المدينة الاغريقية القديمـــة التى أختارها قسطنطين (الكبير) موقعـــا لعاصمته الجديدة ، وأطلق عليها اسم القسطنطينية • وكان المحاربون العرب هم العامل الأساسى الفعال لهذا التحول ،وهم الذين غزوا بعد قرن من انتقال الرسول ﷺ الى جوار ربه سنة ٦٣٢ م مبراطوريـــة ضخمة تمتد من موطنهم فى الجزيرة العربية غربا عبر افريقية الى اسبانيا ، وشرقا الى بلاد الهند والصين • ولم يكن الهجوم العربى ، ببساطة ، غزوة بربرية أخرى كتلك الغارات التى تعرضت لها روما من قبل • فالغزاة الجدد كان يدفعهم الاسلام ، ذلك الدين الجديد الذى نادى به محمد ﷺ • وكان الاسلام يمثل قاعدة خلاقة مبدعة نتجت عنها حضارة جديدة • وفى تلك الأثناء كانت أوروبا الغربية تعانى من الركود والتخلف • وقـد حارب بعض حكامها الجرمان وعدد قليل من قادتها ، فى مجال الأمور الروحية والثقافية ، معركة خاسرة ضد الفوضى والبربرية • ويمكن أن نطلق على هذا العصر ، فى شىء من الانصاف ، أنه « عصر الظلام » فى الغرب • ومع ذلك ، فان الجهود الضعيفة الأولى التى بذلت لتطـــوير النظـــم والافكار ، حتى فى غمرة هذا الظلام ، كانت مناسبة للأوضاع التى كانت قائمة وقتها فى الغرب •وانبثقت من هذه الجهود أصول حضارة جديدة هى حضارة الغرب الأوروبى •

التغير الذى طرأ على الامبراطورية الرومانية الشرقية

طالما اعتبر حكم جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) نقطة تحول فى الانتقال من حضارة « رومانية » قديمة الى حضارة « بيزنطية » جديدة وان الشواهد المرتبطة بهذا العصر تشير فى الواقــع الى أن جستنيان المحافظ الذى كان يرجع بناظريه الى الوراء ، لم يكن يقلقه شيئا أكثر من أن يتهم باسهامه فى انهيــار النظام الرومانى القديــم • فقد كانت جهوده الرئيسية موجهة نحو ارجاع الامبراطورية الى مــا كانت عليه أكثر من الخلق والابداع • وقد تميز حكمه بالنشاط الذى دب فى صميم المجتمع الرومانى ، والذى افتقده منذ القرن الرابع الميلادى •

وكان جل اهتمامه يكمن فى استعادة الأراضى التى اغتصبها الغزاة الجرمان من الامبراطورية الرومانية • وبعد أن قام بتعبئة جميع موارده المالية والعسكرية والدبلوماسية ، استطاع أن يوجه جيوشه لاعادة غزو شمال افريقية من قبضة الوندال Vandals ، وايطاليــا من قبضة القوط الشرقيين Ostrogoths ، وجزءا صغيرا من اسبانيا من قبضة القوط الغربيين Visigoths • وبذلك أعــاد من جديــد السيطرة المباشرة على المناطق الخصبة التى بدا أنها انتقلت من أيدى الرومان الى أيدى الجرمان • ومع أن مطامــع جستنيان فى استعادة كــل اسبانيا وغالة لم تتحقق الا أنه ظل يحكــم امبراطورية ضخمة تشمــل شمال افريقية ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان وشبه جزيرة البلقان جنوب الدانواب وايطاليا وجزءا صغيرا من اسبانيا وقد طبق البيروقراطيون الذين يحملون الألقــاب الرومانية القديمة ، والذين كانوا يعملون طبقا للأساليب الادارية الرومانية القديمة — طبقوا الأوامر الامبراطورية فى هــذه الولايات • وكــان الامبراطور العظيم يقبض على أعنة الحكم من قصره المقدس فى القسطنطينية ، وقد أحاط نفسه بهالة من العظمة والفخامــة التى كانت فى تزايــد تدريجى بطىء اعتبارا من القرن التالى • ونفذت هيئة من الموظفين المدنيين المتخصصين

الشديدى التنظيم ، والذين كان « القصر المقدس » عامرا بهم ، كل رغبة من رغباته • فكان موظفو الامبراطور يجمعــون الضرائب ، ويحشدون الجند ، ويوجهون الحياة الاقتصادية ، ويترأسون المحاكم ، ويحفظون الأمن والنظام ، وفقا لنفس الاسلوب الذى اتبعه الأباطرة الذين جاءوا بعد اصلاحات دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) • فكان جمــع وتنسيق القانون الرومانى تحت اشراف جستنيان ، الى حد كبير ، محاولة لحفظ تقاليد روما القديمة ، خاصة تلك التى انبثقت من العصر الذى أصبحت فيه المسيحية هى دين الدولة ، وذلك بهدف خدمة حكومة شديدة المركزية ذات كفاءة ممتازة • وكان جستنيان أيضا ، جريا وراء الأسلوب الــذى اتبعه معظم أسلافه منذ قسطنطين ، يعتبر نفسه امبراطورا مسيحيــا وامبراطورا رومانيــا فى نفس الوقت • أما فيمــا يختص باضطلاعه بمسئولياته الدينية ، فقد جعل كافة الأمور الدينية تحت اشرافه • فحاول فرض صيغة دينية موحــدة (تستهدف القضاء عــلى النزعة المذهبية الانفصالية التى بدت واضحة بين الكنائس المسيحية وقتها) على جميع رعاياه ، مع التأكيد من أن شاغلى الوظائف الكنسية الكبرى هم رجال مؤهلون يمكن الاعتماد عليهم ، وكذلك اجتثاث الهرطقــة والانشقاق الدينى أينما وجدا • كما نجحت جهود جستنيان فى النهــوض بالتجارة والصناعة والزراعة • وكان الامبراطور لايقل عن أسلافــه حماسة فى مناصرته للعلم والفن • وهكذا خلف لنا آثارا مثل الجامعــة المسيحية ، وكاتدرائية أيا صوفيا العظمى بقبتها الفخمة وداخلهــا الموشى بالذهب بهدف تجميل القسطنطينية وتمجيد اسم الامبراطور •وفى منتصف القرن السادس الميلادى كانت « روما الجديدة » لا تقل اطلاقا عما كانت عليه « روما القديمة » ، من حيث اتساعها وغناها ونظام حكمها الجيد • وربما كانت المقاطعات الخاضعة لحكمها أقــل ، وربما كان ينقصهــا شيئا من الحماسة القديمة للحضارة اليونانية الرومانية ، بين جمــاهير الشعب ، وربما كانت المؤثرات اليونانية أقوى مما كانت عليه من قبل — الا أنها

مع كل ذلك ظلت رومانية فى جوهرها وصميمها • وكان من المقدر لها أن تظل باقية السنوات الطوال لتؤكد نجاح جستنيان كباعث لها من جديد •

الأراضى المفقـودة

أدرك خلفاء جستنيان أن ما قام به الامبراطور العظيـم فى سبيل استعادة ولايات الامبراطورية لم يدم طويلا ، بل أدركوا أنه أمر جـد خطير • ذلك لأن الموارد (المالية) التى أنفقت على غزو افريقية وايطاليا قد أضعفت الامبراطورية أمام أعداء أشد خطرا كانوا ينتشرون عـلى طول حدودها الشرقية والشمالية • فقد منيت امبراطوريـة جستنيان خلال قرن ونصف بعد حكمه بهزائم عسكرية منكرة الواحدة تلو الأخرى

ونشبت أول أزمة خطيرة خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، عندما وجه اليها الأعداء الخطرون الضربات من الغرب والشمال والشرق • ففى عام ٥٦٨ م ، أى بعد وفاة جستنيان بثلاث سنوات فقط غزا اللمبارديون الجرمان ايطاليا واستولوا على معظمها ، ماعـدا الجزء الجنوبى منها وصقلية وحزام يمتد منحرفا عبر وسط ايطاليا من رافنا الى روما • وتوالت هجمات اللمبارديين لمدة قرنين من الزمان على الجزء المتبقى من الأراضى البيزنطيـة فى ايطاليا • وقام الآفـار على حدود الدانوب ، الذين كانوا يمثلون قوة جديدة ، بتكوين امبراطورية لهم نحو عام ٥٨٠ م ، وسرعان ما هددوا حدود الامبراطورية • وبينما كان خطر الآفار آخذا فى الازدياد ، تسربت جماعات من السلاف حاولت الهروب من سيطرة الآفار ، عبر الحـدود واستقرت فى البلقـان ، وتسببت فى اضعاف قبضـة الامبراطورية هنـاك • أما فى الشرق ، فقـد بدأت الامبراطورية الفارسية التى خلدت الى السلام أثناء حكم جستنيان بما أغدقه عليها من مال ، لتستأنف سياسـة الهجوم • وركـزت الحكومة الامبراطورية مواردها على هذه الحدود بدرجة متزايدة ، ولكنهـا لم تستطع الحيلولة دون ضياع أرمينية وسورية وفلسطين ومصر مع بدايات القرن السابع الميلادى •

ان أزمة العقود الأولى من القرن السابع لم يكن مرجعها كلية الى عنف الهجمات التى شنها اللمبارديون والآفار والسلاف والفرس • فقد كانت الأعباء الثقيلة التى فرضها جستنيان على رعاياه شديدة الوطـأة عليهم ، وخلقت مشكلات داخلية داخل نطاق الامبراطورية الرومانيـة الشرقية • كما أزعجت حكومته الاستبدادية عناصر هامـة من السكان ، وعلى الأخص طبقة الأرستقراطية التى حالت دسائسها على الدوام دون قيام الدولة بعملها على خير وجه • وكثيرا ما شجعت العناصر المعارضة داخل الجيش هذه الدسائس والمؤامرات • وكانت أشدها خطرا على وجه الخصوص تلك الفتن والاضطرابـات الدينية التى لـم تتوقف ، والتى أثارتها جهود الأباطرة المستمرة لفرض الوحدة الدينية فى أمور العقيدة• ووجد الأباطرة أن كل اعلان يتعلق بالشئون العقائدية يبعد قطاعـا من سكان الامبراطورية • وعلى العموم ، فقد اتبعت الحكومة سياسة دينية سببت نفور المسيحيين فى المناطق الشرقية من الامبراطورية ، وبخاصة فى كل من مصر وسورية ، وجعلتهم يرحبون بالغرباء الذين قد يحررونهم من هذا النير الدينى الذى فرضه عليهم الامبراطور وخـادمه بطريرك القسطنطينية • وهكذا فان الضربات الى انهالت كالسيل الجـارف من جميع الجهات على الامبراطورية التى « أعادها » جستنيان فخورا قبل ذلك الوقت بنصف قرن من الزمـان ، هزت بعنف النظام الداخـلى فى النواحى الاجتماعية والسياسية والدينية • وقد بد أن بدايـات القرن السابع كانت تحمل نذر شئوم تنبىء بأنهيار الامبراطورية السريع •

ومع ذلك ، عندما اعتلى الامبراطور العظيم هرقل (٦١٠ — ٦٤١م) العرش ، اكتشفت الامبراطورية ، القوة الكامنة فيها لتجنب كارثة تامة • فعمل هو وخلفاؤه على اعادة تجميع موارد الامبراطورية وصد هجمات الغزاة • وبدأ هرقل سياسته الدفاعية الجديدة ببعض العمليات القوية ضد الفرس والآفار • وأنزلت القوات الامبراطورية بالجيش الفارسى فيما بين عامى ٦٢٢ ، ٦٢٨ م هزيمة ساحقة • واستعادت بذلك ولاياتها الشرقية الغنية فى سورية وفلسطين ومصر ، والتى قد اكتسحها الفرس

فيما بين عامي ٦١١ ، ٦١٩ م ، فى الوقت الذى كان فيه هرقل يعمل على تنظيم الجيش والادارة • وفى غمرة الحروب الفارسية كان الآفار قد توغلوا كثيرا فى البلقان ، وهاجموا القسطنطينية نفسها • ولكن تم دفعهم عنها عام ٦٢٦ م وسط مشاهد مثيرة من الوطنية الشعبية والحماسة الدينية التى كانت نتيجة لجهود البطريرك الذى أقام صلوات ليلية مستمرة ، فضلا عن الخطب والعظات والمواكب الدينية • وبذلك لم يعودوا يهددون أمن الامبراطورية أو يعرضون سلامتها للخطر •

ولم يكن الكفاح ضد الآفار والفرس سوى مقدمة لمعارك دفاعية أشد ضراوة شنتها الحكومة الامبراطورية • فحوالى عام ٦٣٤ م بدأ العرب أتباع محمد (ﷺ) أولى هجماتهم مندفعين من موطنهم فى قلب الصحراء وما لبث هؤلاء المحاربون المتمسكون بأهداب دينهم أن استولوا على أقاليم حيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية بسرعة مثيرة للدهشة • وأقاموا بفتوحاتهم دولة جديدة استمرت تهدد جيرانها فى منطقة البحر المتوسط فترة طويلة من الزمن • وفيما بين عامى ٦٣٤ و ٦٣٨ م سقطت سورية وفلسطين فى قبضة العرب على الرغم من جهود هرقل العسكرية المستميتة (للابقاء عليهما) • وتعزى الهزيمة ، الى حد ما ، الى سياسة الامبراطور الدينية • لقد انفض أهالى هذه البلاد من حول الامبراطور بسبب جهوده الرامية الى البحث عن توفيق لاهوتى فى المبادىء الدينية يمكن به مصالحة أتباع المذهب المونوفيزى فى الولايات الشرقية ، وهو المذهب القائل بأن للمسيح طبيعة لاهوتية واحدة • هذا ، بينما كان رأى المسيحيين الآخرين فى الامبراطورية هو أن المسيح له طبيعتان احداهما انسانية أو بشرية والأخرى الهية أو لاهوتية • وبذلك فضل كثير من المسيحيين الذين يقطنون فى تلك الجهات حكم العرب عن سياسة القهر التى فرضتها عليهم القسطنطينية • وعندما مات هرقل عام ٦٤١ م كان العرب يوجهون هجماتهم ضد مصر ، ولم يستطع خلفه كونستانس الثانى (٦٤١ — ٦٦٨ م) أن يحول دون ضياع

تلك المقاطعة الغنية . وفى أواخر عام ٦٤٠ م بـدأ المسلمون فى التحرك غربا عبر شمال افريقية . وعنـد نهاية القرن كانوا قد استولـوا على المقاطعات الخاضعة للامبراطورية فى افريقية ، وأصبح بوسعهم مهاجمة اوروبا عن طريق اسبانيا . ومع ذلك لم تستطع حكومـة القسطنطينية مقاومة المسلمين فى ذلك الميدان البعيد ، لأنهم كانوا يقرعون أيضا أبواب القسطنطينية ذاتها . وبينما كانت جيوش العرب تتقدم منتصرة ، بـدأ العرب فى انشاء قوة بحرية لهم ، وبذلك دخلوا فى نضال من أجل السيطرة على البحر المتوسط . وهكذا وجدت القوات الامبراطورية نفسها تقف موقف الدفاع . وازدادت قوة المسلمين البحرية بدرجة هائلـة ، حتى أنها تمكنت بالفعل أثناء حكم قسطنين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) من سد المسالك البحرية المؤدية الى القسطنطينية ، بينما أخذت القوات العربية فى الاغارة على آسيا الصغرى سنويا . وفى النهاية نجح قسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م فى الحاق الهزيمة بالمسلمين الذين كانوا يحاصرون عاصمته، وأجبرهم على طلب الهدنة . وكان العامل الحـاسم فى صد الأسطول العربى هو استخدام القوات البيزنطية للنار الاغريقية المخيفة ، وهى عبارة عن خليط كيميائى أمكن القاؤه وسط حشود العدو البحرية بواسطة آلة خاصة تفجر لهبا مستعرة لا يطفئها الماء.وكانت هذه من أولى الهزائم التى منيت بها جيوش العرب المظفرة .

ومع ذلك ، فان صد المسلمين عام ٦٧٨ م لم يتـح للامبراطورية المحاصرة من جميع الجهات سوى مهلة بسيطة . ذلك لان قوة جـديدة كانت آخذة فى الظهور فى الشمال وهى مملكة البلغار . وكان الضغط على الحدود الشمالية أثناء حكم هرقل قد خفت وطأته بهزيمة الآفـار عام ٦٢٦ م . وأخذ كثير من السلاف فىالسنوات التاليةفى الاستقرار فىشبه جزيرة البلقان ، ولكنهم قلما كانوا يمثلون تهديدا عسكريا مباشرا . أما بالنسبة للبلغار فقد كان الوضع مختلفا تماما . اذ استقر هـذا الشعب الآسيوى الذى يتعشق الحرب عند مصب نهر الدانوب حوالى عام ٦٥٠ م

وكان الأباطرة (البيزنطيون) فى ذلك الوقت سعداء لاستخدامه ضد الآفار • ولكن سرعان مادب الخلاف بين البلغار والقسطنطينية • وفى عام ٦٧٩م هزموا قسطنطين الرابع وأرغموه على التنازل لهم عن بعض الأراضى ، وعلى الاعتراف بدولتهم كمملكة • ثم واصل البلغار هجماتهم ضد أراضى الامبراطورية فى السنوات التالية • وأصبحوا ، وقد ازدادت قوتهم باندماج السلاف فى مملكتهم ، يشكلون خطرا دائما بالنسبة للقسطنطينية • وبذلك أثقلوا كاهل الأباطرة الذين ذاقوا مرارة التجربة بهذا العبء الاضافى الخاص بالدفاع عن الدولة •

وأخذ العرب يهددون الامبراطورية تهديدا خطيراً مرة أخرى فى القرن الثامن الميلادى • اذ بلغ المسلمون فى ذلك الوقت ذروة قوتهم العسكرية • وقد أعدوا أنفسهم اعدادا تاما للسيطرة على العالم المتحضر بأجمعه • وكانت قوة الامبراطورية قد انهارت بسبب سقوط أسرة هرقل، جددت الجيوش والقوات البحرية العربية هجومها على القسطنطينية،بعد أن تمكنت بالفعل من احتلال آسيا الصغرى والعبور كذلك الى اوروبا •

ومرة أخرى ظهر منقذ آخر فى شخص ليو ذلك القائد العسكرى السورى الأصل الذى كان يتكلم العربية ، والذى كان يلقب عادة بلقب « الأيسورى » لتأكيد أصله الشرقى • ففى عام ٧١٧م قبض ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) على أعنة الحكم ، فى الوقت الذى كانت فيه القسطنطينية المحاصرة على وشك السقوط • ولكن قيادته الماهرة والتى تتميز بالعزم والتصميم ، أنقذت العاصمة عام ٧١٨ م • واستطاع ليو فى السنوات التالية اخراج العرب من آسيا الصغرى ، كما تمكن من اعداد دفاع يكفى لصد الخطر العربى لعدة سنوات ، وذلك بتقسيم كثير من الاقطاعات الكبيرة فى الأراضى التى تم تحريرها الى مزارع صغيرة تقوم بأود الفلاحين الأحرار الذين يمكن تجنيد الجنود منهم • وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى عانى العالم الاسلامى من القلاقل

والاضطرابات الداخلية التى بلغت ذروتها بتغير الأسرة الحاكمة فى عام ٧٥٠ م ، ثم توقف سيل التوســع الاسلامى السريــع • وخلال القرن الحادى عشر الميلادى قام الأتراك المسلمون بهجوم نشط هــدد وجود الامبراطورية البيزنطية ذاته مرة أخرى •

وفى أواسط القرن الثامن الميلادى استطاع رعايــا الامبراطورية استرداد أنفاسهم بسهولة • اذ تم انقاذ الامبراطورية الرومانية الشرقية من هجمات اللمبارديين والآفار والفرس والسلاف والعرب والبلغــار • ولكن فرحتهــم كانت تشوبها الحقيقــة التى أقاموا عليهــا ، وهى أن الامبراطورية قد انكمشت الى درجة ملحوظة ، كما أصابهــا التغيير فى تكوينها السلالى أثناء السنوات السابقة فكانت قد فقدت سورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية ومعظم ايطاليا وجزءا من شبه جزيرة البلغار • وبينما كانت امبراطوريــة جستنيان الأول تتكون من عنــاصر جنسية وثقافية كثيرة متعددة ، غدت الامبراطورية المتقلصــة فى القرن الثامن يونانية فى لغتها واتجاهها الثقافى • وكان هذا التغيير الذى طــرأ على حجمها وتكوينها ، فى حد ذاته ، تبريرا للقول بأن امبراطورية « جديدة » يونانية فى غالبها قد حلت محل الامبراطورية القديمة • وحــل ، عادة ، اصطلاح « الامبراطورية » البيزنطية محــل « الامبراطورية الرومانية الشرقية » للتدليل على هذا التغيير •

اعادة تنظيم الامبراطورية من الداخل

عمل الحكام الذين تربعوا على العرش فى الفترة الواقعة بين حكم كل من هرقل وليو الثالث ، أى بين عامى ٦١٠ و ٧٤١ م ، على النهوض بالامبراطورية بأقصى ما يستطيعون من مجهودات ثورية تستهدف تنظيم مصادر الدفاع المتاحة • وأدت جهودهم الى صبغ المجتمــع البيزنطى بصبغة عسكرية • وكانت الحكومة الامبراطورية قد اعتمــدت ، لفترة طويلة ، على الجند المرتزقة الذين أثقلوا كاهل الدولة بعبء مضاعف فى

سبيل الحصول على القوات القادرة وجمع الدخل الكافى للانفاق عليها • ولقد أجبرت الحروب المستمرة (التى عانت منها الامبراطورية) خلال القرنين السابع والثامن ، والتى نتج عنها فقدان المقاطعات الغنية والدخل الوفير ، أجبرت الأباطرة على البحث عن مصدر جديد للقوة العسكرية • وتمثل الحل فى وضع العبء العسكرى على عاتـق الفلاحين الأحرار • وأمكنهم تحقيق هذه الغاية بمنح فئات معينة من الفلاحين ملكيات زراعية مقابل أداء الخدمة العسكرية • وأصبحت العادة المتبعة تتلخص فى توطين الفلاحين الجنود على طول الحدود المهددة لضمان خدماتهم عند الضرورة • وبذلك أصبح الفلاحين الجنود بسرعة هم عصب الامبراطورية • وقام هذا النظام الجديد على وجه الخصوص على امتداد الحدود الشرقية ، وبذلك زاد الدور الذى لعبه السكان فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى فى تاريخ الامبراطورية •

وحتى يمكن الافادة من هذا النظـام العسكرى الجديد الى أقصى حد ممكن ، قام الأباطرة بوضع نظام حكومى جديد فى المقاطعات • وكان النظام القديم للولايات ، الذى تطور الى خليط من الموظفين الرسميين من مدنيين وعسكريين ، قد تم تنسيقه باعطاء قائد عسكرى يطلق عليه اسم ستراتيجوس Strategos سلطات عسكريـة ومدنية كاملة على مسـاحة معينة من الأرض أطلـق عليهـا اسم « ثيم » Theme وجمعها ثيمات (أى ألوية الحـدود أو ولايات الثغـور) • وهكذا أصبح كل قائد قوى يتعامل مباشرة مع الفلاحين الجنود الذين فى ولايته ، يمثل حصنـا منيعا ضد الغزاة الأجـانب الذين يهددون الثيم الخاص به • وامتاز هذا النظام فى كفاءته عن النظام القديم الذى كان يعتمد الى حد كبير على الجند المرتزقة • وقد أتاح دخول البيروقراطية المدنية فى طاعة أولئك القادة ، توجيه كافة موارد الدولة بكفاءة لمواجهة المتطلبات العسكرية الملحة •

ونتيجة الاصلاحات العسكرية والادارية التى صاحبت انشاء هذا

التنظيم الادارى المعروف بالثيمات ،أصبحت طبقة الفلاحين تتمتع بمركز حيوى فى الدولة البيزنطية • فاتخذ الأباطرة اجراءات مشـددة لحماية الفلاحين الأحرار بهدف ضمان أداء خدماتهم للدولة ، مع كبح جمـاح الطبقة الأرستقراطية مالكـة الأرض عند استغلالهـا لهم • وتعتبـر التشريعات والقوانين التى تم اصدارها لتحقيق هذا الغرض واحدا من أعظم الخصائص البناءة للسياسة الامبراطورية خلال تلك الحقبـة من الزمن • فقد نصت هذه الاصلاحـات على أتجاه مبكر كـان يستهدف تحويل الفلاحين الى عبيد يرزحون تحت رحمـة ملاك الأرض • وبذلك أوجدت تناقضا ظاهرا فيما يتعلق بمصير الفلاحين فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى المبكرة • وكان اعادة بناء النظام الاجتماعى لصلحة طبقة الفلاحين النشطة ، أثره الكامل على ازدياد سلطة الحكومة المركزية فى تعاملها مع الطبقة الأرستقراطية •

التغيرات الدينية

لقد شهد القرن السابع وبواكير القرن الثامن الميلادى نقطة تحول بارزة فى الحياة الدينية للامبراطورية البيزنطية • وكانت هذه التغييرات تميل الى تأكيد انفصال الفرع المسيحى الذى اتخـذ من القسطنطينية مركزا له • وربما كانت هيمنة الامبراطور المتزايدة على أمور الدين هى الاتجاه الأكثر وضوحا • ولم يكن هذا التطور جديدا بطبيعة الحـال ، طالما أن جميع الأباطـرة الرومان السابقين كانـوا يتصرفون فى الغالب باعتبارهم بابوات وقياصرة (فى نفس الوقت) • وقد ضموا الى جانب عملهم كحكام مدنيين ، ادارة محكمة للحياة الدينية مع الاشـراف على هيئة رجال الدين والتدخل فى المنازعات المذهبية • وعلى أية حال ، فقد ازداد اشراف الأباطرة التدريجى على الكنيسة خـلال القرنين السابع والثامن للميلاد • وكان نجاحهم يعزى ، الى حد ما ، الى مبالغـة رجال الدين اليونانيين فى تكريـم امبراطورهم كقائـد ضد الفرس والعرب والسلاف والبلغار • فقد استطاع هرقـل ، مثلا ، أن يثير نوعـا من

الحماسة الصليبية فى حروبه ضد الفرس ، وذلك بأن ضرب عـلى الوتر الحساس برغبته فى استعادة الصليب الحقيقى الذى اغتصبه الفرس من مدينة بيت المقدس عندما استولوا عليها عام ٦١٤ م • وقد قويت سيطرة الامبراطور على الحياة الدينية ، أيضا ، باتخاذ قرار نهـائى فى النزاع المذهبى الطويل الخاص بطبيعة المسيح • فكثيرا ما أضعف هذا النزاع من سلطة الأباطرة الدينية ، باجبارهم على محاولة ايجاد توفيق لاهوتى بين العناصر العديدة المتنازعة • وكثيرا ما أثارت هذه المحاولات للصلح ثورات عاتية فى القسطنطينية ومدن الامبراطورية الأخـرى • وهى ، أيضا ، التى أثارت الفتنة والشقاق بين رجال الديـن والموظفين المدنيين والجنود تحديا للسلطة الامبراطورية • ولـم يكن الحل النهـائى لهذه المشكلة ممكنا الا بعد استيلاء العرب على الولايات الشرقية • ومـا أن ضاعت هذه الولايات ، التى كثيرا ما عارضت اتجاه القسطنطينية فى هذا الصدد معارضة عنيفة ، حتى استطـاع الأباطرة أن يضعـوا تحديدا لطبيعة المسيح قبله المسيحيون الباقون تحت سيطـرة الامبراطورية • وقد تحقق هذا على يد الامبراطور قسطنطين الرابع فى المجمع المسكونى السادس الذى عقد فى القسطنطينية عام ٦٨٠ م ، والذى أمر جميـع المؤمنين أن يقبلوا المذهب القائل بأن طبيعة المسيح ناسوتية ولاهوتية • ولم يعارض هذا التعريف للعقيدة الحقة سوى عـدد قليل من رعـايا الامبراطورية • ونتيجة لذلك عظم دور الأباطرة فى المجال الدينى •

ومع ذلك ، فاننا نستطيع أن نضرب مثلا بأن سياسة الاملاء الدينى التى حاول الأباطرة فرضها ، لم تصل الى حـد الكمال الـذى كانوا ينشدونه ، بذلك الصراع المرير ضد الأيقونات Iconoclasm الذى ظهر بعد سنوات قليلة فقط من النزاع حول طبيعة المسيح • وسنتناول النتائج المعقدة المترتبة على النزاع ضد الأيقونات بالتفصيل فيما بعد • ويكفى الآن القول بأن التصادم بدأ فى عـام ٧٢٦ م عنـدما أصدر ليو الثالث (الأيسورى) أمرا الى رعاياه بعدم استخدامهم جميع الأيقونات

والصور أثناء اداء الخدمات الدينية • وحينئـــذ واجهت المراسيم التى صدرت (فى هذا الخصوص) عاصفة من الاحتجاج والمعارضة من جانب رجال الدين والعلمانيين على السواء • ومع أنه لجأ الى وســائل العنف لتحقيق غايته ، الا أنه لم يكن باستطاعته القضاء على المعارضة بل لقد مزق الصراع اللاأيقونى المجتمع البيزنطى طوال قرن من الزمـــان بعد حكمه • وكان هذا تذكيرا بأن الامبراطور لا يستطيع دائما فرض مطالبه باملاء سياسته الدينية •

وان جهود أباطــرة كل من أسرة هرقـــل والأسرة الأيسورية فى الهيمنة على السياسة الدينية التى كانت ناجحة بصفة عامة واوتوقراطية الى حد بعيد — ان هذه الجهود كان لها تأثيرها البالغ الفعـــال فى تباعد أسقف روما الذى كان آخذا فى الظهور كممثل لمسيحيى غرب اوروبا • فمنذ عهد بابوية جريجورى الكبـــير (٥٩٠ — ٦٠٤ م) وحتى منتصف القرن الثامن الميلادى كان النزاع مستمرا بين الامبراطور (البيزنطى) والبابوية (فى روما) • ولما كانت روما خلال هــذه الفترة من الزمن لا تزال ، من الناحية السياسية ، جزءا من الامبراطورية البيزنطية ، فقد اتجه البابوات بأنظـــارهم الى القسطنطينية لحمـــايتهم من هجمـــات اللمبارديين • وحاول الأباطرة البيزنطيون استغلال هذه التبعية باجبار البابوات بالموافقة على قراراتهم المذهبيـــه وقبول الرئاســـة الروحية لبطريارك القسطنطينية • وبلغ الصراع بين روما والقسطنطينية ذروته فى منتصف القرن السابع الميلادى ، عندما حـــاول الأباطرة مستميتين الوصول الى حل بخصوص مسألة طبيعة المسيح • وبدأ هذا الصراع ، مرة أخرى ، فى بدايات القرن الثـــامن الميلادى عندمـــا قامت الحركة اللاأيقونية • وحتى تتفادى البابوية قبول توجيهـــات من الشرق ، فقد سعت الى لم شمل مسيحيى الغرب تحت رايتها ومذهبها • وبذلك تمكنت من الحصـــول على درجـــة أكبر من الاستقلال (الدينى عـــن كنيسة القسطنطينية) • ومع أن الخطوات التى أحرزتها البابوية فى سبيل تدعيم

استقلالها كانت بطيئة ومتعثرة ، الا أنها كانت كافيـة للتمهيد للقطيعة الدينية التامة بين مسيحيى الشرق والغرب (فى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى) •

ومما لا شك فيه أنه كان لظهور الكنيسة البيزنطيـة التى يهيمن عليها الامبراطور ، والمحددة جغرافيـا فى شبه جزيرة البلقـان وآسيا الصغرى وجنوب ايطاليا وصقلية ، أهمية كبرى • ولما كان الانكمـاش الاقليمى للامبراطورية قد وقع فى نفس الوقت الذى تم فيه صبغ النظام الاجتماعى بصبغة عسكرية ، وانحلال رومانية الشعب ، واعادة التنظيم الاجتماعى الاقتصادى وفقا للاصلاحات العسكرية — فقـد أدى هذا التطور الى تكوين الطابع الفريد الذى اتسمت به الحضـارة البيزنطية الجديدة ، التى أخذت تحل محل الحضارة العالمية التى كانت تتمركز فى القسطنطينية فى المراحل الأخيرة من التاريخ الرومانى •

مولد الحضارة الاسلاميـة

من المحتمل أن يكون العـامل الرئيسى الـذى أدى الى تحـول الامبراطورية الرومانية الشرقية الى امبراطورية بيزنطية ، هـو ذلك الهجوم العنيف الذى شنته قوة جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية• فقد كانت الانتصارات العربية فى القرن السابع وبدايـات القرن الثامن الميلادى تمثل مولد حضارة ديناميكية صامدة ، قدر لها أن تترك آثارها على تاريخ حوض البحر المتوسط بصفة رئيسية • ذلك أن العرب الذين نشأوا فى أول الأمر كمحاربين غير منظمين فى الصحراء ، سرعان ماتطوروا الى مجتمع قوى يؤلف بين رجالـه الدين الأسلامى بمبادئـه الواضحة ومفاهيمه الأخلاقية • فقد كـان مولد هذا الـدين وتأثيره الشديد على العرب أهم حدثين فى القرن السابع للميلاد •

بلاد العرب قبـــل الاسلام

عندما ظهر الاسلام كانت الصحراء العربية بسكانهـا تمثل صورة غير متناسقة • فكان غالبية السكان فى تلك البلاد المقفرة من الرحل الذين يتمتعون بقدر ضئيل من الحضارة ، وقد انتظموا فى قبائـل متحاربة • وكانت كل قبيلة ترعى بحماسة قطعان ماشيتها ، وتتمسك بعاداتها وآلتهها واستقلالها الذى تتفاخر به • وكانت الحياة بين تلك القبائـل بسيطة يسودها الفقر بدرجة أليمة ، اذا ما قورنت بحضارة كل من روما وبلاد الفرس ، التى تغمرها ألوان الترف والتى ازدهرت فيمـا وراء حدود الصحراء • ويبدو أنه لم تكن ثمة قوة بوسعها التغلب على روح الفرقة والشقاق التى عانى منها سكان الصحراء • ومع ذلك ، لم تكن حياتهم كقوم رحل هى الطابع الوحيد المميز لمعيشتهم فى شبه الجزيرة • لقـد كانت أطرافها واقعة تحت المؤثرات السياسية والاقتصاديـة والدينية والثقافية لكل من روما وفارس • وكانت بدايـة تطورات جديدة نتجت عنها أزمات جديدة •

ولقد ظهر دين العرب الجديد فى مكة ،وهي الملتقى الرئيسى لسكان الصحراء بالعالم الخـارجى • وكانت مكة مقر قبيلـة مستقرة يتزعمها شيوخها ، وفقا لما هو متبع بين العرب • وكانت أيضا ، مركزا تجـاريا هاما يمر بها التجار تاركين منتجاتهم وأفكارهم فى نفس الوقت • ونتيجة لنمو التجارة والتأثر بالعادات والتقاليد الأجنبية الوافدة من الخارج ، تحول أسلوب الحياة لدى عرب مكة تدريجيا عن أسلوب العرب الرحل • وأصبحت مكة ، فى نفس الوقت ، أحد المراكز الدينية الكبرى ، أكثر من كونها مركزا تجاريا بالنسبة لأولئك العرب الرحل • ففيها توجد الكعبة الشهيرة ، وهى معبد صغير به الحجر الأسود الذى يعتقد العـرب أنه سقط من السماء رمزا للحماية الالهية • وفى البقعة الشريفة حيث توجد الكعبة ، كانت هناك أشياء كثيرة غير ذات أهمية تخص الآلهة التى تعبدها قبائل الصحراء • وكان كثير من تلك القبائل يحج سنويا الى مكة اعرابا

عن ولائها وخضوعها لآلهتها • كما كانت تشدهم اليها بضائع التجـار الذين أقاموا فيها أو مروا بها • وبذل حكام مكة كل جهد فى سبيل جعل مدينتهم مركزا للحياة العربية • وبذلك انبثقت عن الحياة المعقدة فى مكة قوى تتميز بأهميتها البالغة ، لما فيها من متع ومغريات ماديـة وثقافية خاصة بالحضارات الأجنبية • هذا ، الى جانب اتجاه مكة السياسى لفرض زعامتها على العرب الرحل ، والميزة الناتجة عن عبادة دينية عامة • وقد ألهب تفاعل هذه القوى انطلاقة العرب التى مكنتهـم من التغلب على قسوة الصحراء ، والنهوض فجأة للقيام بدور بارز على مسرح الأحداث فى حوض البحر المتوسط •

النبى محمد (ﷺ)

كان الرسول محمد (ﷺ) من مواطنى مكة هو الذى حرر العرب• ولد حوالى عام ٥٧٠ م من أحد أسباط القبيلة الحاكمة فى مكـة • ولكنه فقد أبويه فى سن مبكرة ، وتولى رعايته وتنشئته أقاربه الـذين وجهوه للعمل فى التجارة • وتزوج أخيرا من أرملة ثرية ، وأصبح غنيا واحتـل مركزا مرموقا فى مجتمع مكة • ولكن نجاحه فى الدنيا قد يبدو ذا أهمية ضئيلة ، اذا ما قورن بتدينه وكثرة تأمله وتقشفه ونظرتـه الفاحصة فى أعماق الانسان وفكره • ولا جدال فى أن محمدا وجـد فى الدين عزاءه وقـدره •

ان سحابه كثيفة من الأساطير تحول بيننا وبين تعقب الفترة المبكرة التى قام فيها الرسول بنشر رسالتـه • فربما كانت الأديـان الأجنبية كاليهودية والمسيحية أو الزارد شتية ، وكلها معروفة فى مكة ، هى التى جعلته ينظر الى المعتقدات والخرافات المحلية السائدة فى بـلاد العرب على أنها مجلبة للخزى والعار•كما أصر كثير من العلماء على أن الأحاديث النبوية تتضمن تنسيقا ماهرا للأفكار الأجنبية التى تم اختيارها لتناسب حاجات أتباعه العرب • ولسنا فى حاجة الى القول بأن اتباع محمد (ﷺ)

كانوا يعتقدون أن هذا الاستنتاج ماهو الا محصن كفر والحساد . فهم يعتقدون ، على العكس من ذلك ، أن محمد (ﷺ) قد تلقى رسالة الدين الجديد من الملاك جبريل مباشرة ، مع الوحى الالهى بأنه أصبح رسول الله على الأرض . وبدأ الوحى يهبط على محمد (ﷺ) عندما كان فى حوالى الأربعين من عمره . ومنذ تلك اللحظة علم بأنه الرسول الذى اختاره الله ليعلى كلمته وليحول أتباعه الى عبادة الله .

ولم يجد محمد (ﷺ) عندما أخذ فى نشر رسالته قبولا حسنا فى مكة . وتركز الآيات المبكرة التى هبطت على الرسول على واجب عبادة الاله الواحد الذى لا شريك له . وتتضمن ، أيضا ، وصفا ليوم الدنيونة حيث ينال الناس جميعا الثواب أو العقاب . وهكذا تكشف عن الحاجة الملحة للتجديد الروحى ، وتبث مثلا وقيما خلقية جديدة . ولم تلق الدعوة استجابة كافية لدى أهل مكة الذين عرفوا بميولهم الفردية . بل أكثر من ذلك قاوموا هجومه على الشرك بالله ، وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا ينتفعون الى حد بعيد من حج قبائل الصحراء السنوى الى مزارات الآلهة القديمة فى مكة . وبدا وكأنه قد كتب على الرسول بالفشل بسبب المعارضة واللامبالاة اللذين ووجه بهما .

وبعد أن مضى على دعوة الرسول لأهل مكة الذين لم يستجيبوا له ، أكثر من عشر سنوات ، قرر أن يترك مكة الظالمة الى منافستها يثرب التى أظهر أهلها اهتماما بتعاليمه ، ودعوه للقدوم اليها كحكم بينهم لتهدئة طوائفهم المتصارعة . وكانت هجرة الرسول الى يثرب فى عام ٦٢٢ م ، وكان ذلك سببا فى تسمية يثرب من جديد باسم « المدينة » ، أى مدينة الرسول . وتعتبر هجرة الرسول نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى . فقد أصبح محمد (ﷺ) بعد ذلك زعيما لدولة ولو أنها كانت دولة صغيرة للغاية فى بادىء الأمر . وبدأ للوحى الذى كان ينزل على الرسول يتخذ لونا جديدا ، اذ عالجت الآيات المنزلة القرارات السياسية أكثر من المفاهيم الدينية المجردة . وبذلك تحول المبشر البسيط الذى كان

يدعو الناس للدين الجديد الى هاد لجماعة منظمة من المؤمنين باللـــه . ولما كان هؤلاء المؤمنون يعيشون بمنآى عن بقية العالم ، يطيعون الله ويفوضون أمورهم له ، فقد عرف جماعة أتباع الرسول باسم المسلمين ، وعرف الدين الجديد باسم الدين الاسلامى . وقد حث محمد (ﷺ)أتباعه على قتال الكفار تمجيدا لله.وفى احدى المناسبات خاطب الله محمد (ﷺ) قائلا : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . وان هذا المغزى ، الى جانب عـــادة الحرب والقتال التى يتميز بها طابع الحياة العربية أصلا ، قد أطلقـــا الشرارة لفكرة الجهاد فى المجتمع الجديد . وبهذه القوة المنظمة تحت رايتـــه ، تحول محمد (ﷺ) الى مواجهة اولئك الذين قاسى على أيديهم فيما مضى. وفى عام ٦٣٠ م استطاع دخول مكة منتصرا ، فحطم أصنامهـــا وأدخل عبادة الله الواحد الأحد . وبهذا النصر بدا للمؤمنين أن الطريق المستقيم هو طريق الخلاص . فكثير من القبائل العربية ، بما فيها زعمـــاء مكة وشيوخها دخلوا فى دين الاسلام مقتنعين بتعاليم الرسول . ولكن كثير آخرين تأثروا بما أبداه محمد (ﷺ) من بسالته كزعيم منتصر، فأسرعوا فى الدخول فى زمرة المؤمنين . وعندما انتقل الرسول الى جوار ربه فى عام ٦٣٢ م كان قد اصبح زعيما لمجتمع من القبائل العربيـــة المتحالفة التى أرست وحدتها على قبول زعيم قوى ودين واحد . وأخـــيرا ، بعد أن تغلب العرب على فرقتهم التقليدية ، بدأوا فى الاستعـــداد لمواجهة العالم الخارجى .

الدين الاسلامى

لقد نما الاسلام وتطور خلال قرون عدة . ومع ذلك ، فمثله مثل غيره من الديانات العظمى يستمد حيويته الحقيقية من معتقدات وطقوس أساسية معينة يرجع تاريخها الى بداية ظهوره . وبذلك ، منـــذ انتقال

الرسول الى ربه ، التزم أتباعه بالمعتقدات الراسخة والطقوس المعروفة التى كانت تمسك بزمام الدعوة للدين الجديد .

وربما كان أحسن تعريف للاسلام هو ما تحويه هـذه الكلمات فى القرآن الكريم « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . فالالـه الواحد الذى لا شريك لـه هو المحـور الأساسى الذى تدور حولـه العقيدة الصحيحة . وان الشرك بالله لهو أشد المعاصى والخطايا وأكثرها هولا . وقد تناول الجانب الأكبر من الأحاديث النبوية الشريفة صفـات الله . ومع أنها كثيرة عديدة ، فان الله جل جلاله فوق كل شىء وقبل كل شىء، وهو الاله الواحد الأحد القادر على كل شىء . اذ يفوق وصفه كـل ما يستطيع الانسان تصوره . لذلك وجب على الانسان أن يسلم له أمره. وقد كشف الله عن ذاته للناس بالتحدث عن طريق ملائكته الى سلسلة متتابعة من الأنبياء . ومن بين الكثيرين « الذين أرسلهم الله من قبل » كان الأنبياء العبرانيون والمسيح ، وجمعيهم يعتبرون ناطقين بكلمة الله. ولكن آخرهم وأعظمهم هو محمد (ﷺ)،وان الأنبياء الأوائل الذين نطقوا بكلمة الله كانوا قد تلقوا جانبا من الحقيقة فحسب ، وكان أتباعهم قـد غابت عن أبصارهم كلمة الله سواء بطريق الصدفة أو عن عمد . وفوق هذا وذاك ، فقد احتضنت التعاليم المحمدية الجميع ، وامتازت بتسامحها. ذلك أن الرسالة التى نزلت بالوحى على محمد (ﷺ)، لم تكن موجهة الى العرب فقط ، أو اليهود والمسيحيين الذين كانوا قـد تلقوا قسطـا من الحقيقة من قبل ، بل كانت موجهة الى الناس قاطبة . ولهذا السبب ارتبط المسلمون بكل حرف ورد فى « كتاب الله » أو « القرآن » . وقد أصبح القرآن الكريم الذى تم جمعه بعد انتقال الرسول الى ربه بفترة قصيرة، هو المصحف المتضمن الآيات المنزلة من عند الله . وثمة عقيـدة واحدة جوهرية من بين العديد من الافكار تزود الديانة الجديدة بطابـع خاص فريد ، ألا وهى الحقيقة المتعلقة باليوم الآخر الذى يثاب فيه الصالحون

ويعاقب الطالحون . ويذكر كتاب الله بتفصيل حى المسرات التى تنتظر الصالحين ،وألوان العذاب التى هى من نصيب الطالحين.وقد أوجد محمد (ﷺ)لدى أتباعه احساساهائلا بالضرورة الملحة للطاعة الدينيةوالاستقامة الخلقية . ومع أن هذه الأساسيات الأولى للدين قد اتسع نطاقها بعد وفاة الرسول بضم مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية ، فقد ظل الاسلام عقيدة دينية خالصة تخضع الانسان مباشرة لمشيئة الله تعالى، كما تمد البشرية بالتوجيهات الالهية للسلوك الانسانى فى كتاب سماوى منزل .

هذا ، ومن الفروض الدينية الواجبة على كل مسلم قادر النطق بالشهادتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » . وعلى المسلم أداء الصلاة خمس مرات يوميا طبقا لنظام موضوع ، وتعتبر هذه الصلاة أمرا خاصا ومع ذلك ، فقد بدأت صلاة الجماعة تتطور فعلا زمن الرسول ، وبصفة خاصة فى يوم الجمعة . ولهذا الفرض أقيمت المساجد حيث يتجمع المؤمنون ويؤمهم امام لأداء فرائض العبادة لله . وكثيرا ما كان الامام يلقى عليهم خطبة بعد الصلاة . ومن الفرائض الأخرى الواجبة على كل مسلم الزكاة لمساعدة الفقراء والمعوزين ، والصوم طوال شهر رمضان كعمل تكفيرى ، والحج الى مكة المكرمة مرة طوال حياة المسلم ان استطاع الى ذلك سبيلا . ولم تكن هذه الواجبات بحاجة الى هيئة دينية منظمة وتنظيم دينى كبير . بل ظلت العبادة بين المسلمين أمرا شخصيا تحركها تقوى الفرد ويذكيها ورعه .

وطالما كان باستطاعة المؤمنين أن ينعموا بحياة أبدية اذا عملوا على مرضاة الله : فقد أرسى الرسول المبادىء الأساسية لدستور أخلاقى مفصل واسع النطاق . وقد تضمنت هذه الشريعة أمورا كثيرة لا يتسع لها المقام هنا . ولكنها ، على وجه العموم ، نهت المسلمين بشدة عن تناول أصناف معينة من الطعام ، وعن المسكرات ، والميسر ، والقسم زورا وبهتانا ، والعديد من أعمال العنف . وأشارت الى كل ما يتعلق بأمور

الزواج بعناية ،وذلك فى سبيل تحديد وتنظيم تعدد الزوجات عند العرب • وقد اعترف الاسلام بالرق ، ولكن مع ضوابط صارمة وقيود شديدة • كما فرضت الشريعة الاسلامية على العرب قواعد أشد صرامة من تلك التى كانوا قد تعودوا عليها قبل محمد (ﷺ) • فقد كانت الشريعة المحمدية تتمسك بالطهر ، وهى بذلك تماثل ما جاء فى التوراه • فهى تفرض على المؤمنين نفس الفروض ، كالامتناع عن المسكرات ، وكبح جماح النفس ، والبساطة فى الحياة ، والحيلولة دون ارضاء الشهوات أو اشباع اللذة الحسية • وكانت الدعوة الأخلاقية القوية ،على الدوام ،مظهرا من مظاهر الدين الاسلامى المبهرة للعقل •

وباستقرار الاسلام ، اكتسب العـالم ثالث دياناتـه السماوية المنزلة التى تدين باله واحد • والأديان الثلاثة هى : اليهودية والمسيحية والاسلام • وهى الديانات الكبرى فقط ، وكلها متصلة ببعضها اتصالا متشابكا بموجب نشأتها التاريخية • فقد كانت اليهودية هى أقدم الديانات التى ظهرت ، ثم قامت المسيحية كتحقيق للوحى اليهودى ، واستوعبت بين ثنايا تعاليمها وطقوسها كثيرا من مظاهر اليهودية • ثم ظهر الاسلام كصورة كاملة للوحى المسيحى ، واعترف بالخلفية اليهودية التى قامت المسيحية عليها • وبذلك نجد ، مرة أخرى ، أن كثيرا من تعاليم وطقوس كل من اليهودية والمسيحية قد امتزجت فى الدين الاسلامى • ومما يفسر الصلة الوثيقة بين هذه الديانات الثلاث ،السهولة الشديدة التى تحول بها الناس من أحد هذه الأديان الى دين آخر • وقد تعيننا هذه الصلة ، أيضا بطريقة قد يتبادر معها الى الذهن أنها مناقضة للحقيقة ، عـلى كشف أسباب الصراع المرير الذى قام بين أتباع هذه الديانات الثلاث حول من منها التى نشأت عن وحى الهى حقيقى •

الفتوحـات الاسلامية

تعتبر الحضارة الاسلامية نتـاج الدين الاسلامى • فقـد حول

الاسلام القبائل الهائمة على وجهها المتشاحنة فى شبه جزيرة العرب الى قوة عالمية طائلة قامت بغزو واحـــدة من امبراطوريات العـــالم العظمى (وقتها) فيما لا يزيد عن قرن من الزمان بعد انتقال الرسول الى ربه. فعندما توفى الرسول كان ثمة تهديد استمر فترة من الزمن بأن المجتمع العربى الذى أرسى دعائمه سوف يتفكك . فلم يكن الرسول قد أوصى بمن يخلفه . ومن الواضح أن أحدا لم يستطع القيام بدور الرسول أو ملىء الفراغ الذى خلفه . وأصبح المجتمع العربى الناشىء بحاجة الى قيادة (تسوسه) . فقد عادت قبائل قليلة الى ميولها الانفصالية القديمة وحاولت الخروج عما كان الرسول قد أنجزه فى حياته . وفى هذه اللحظة الدقيقة قبض بعض رفاق الرسول على زمـــام الأمور ، وعينوا حماه ابا بكر « خليفة » أو خلفا للرسول فى قيادة جماعة المسلمين . واستطاع ابو بكر خلال العامين اللذين حكم فيهمـــا (٦٣٢ ـــ ٦٣٤ م) أن يجبر القبائل المنفصلة على العودة ثانية الى مجتمـــع الاسلام . وبذلك أتم بالقوة وحدة العرب السياسية . وخلف ابا بكر اثنان من رفاقه المقتدرين هما عمر بن الخطاب (٦٣٤ ـــ ٦٤٤ م) ، وعثمـــان بن عفان (٦٤٤ ـــ ٦٥٦م) . وهاجم هذان الخليفتان كلا من الامبراطوريـــة الرومـــانية الشرقية والامبراطورية الفارسية اللتين لم يثبت جنودهما تكافؤهم مع جند الله . فكانت الامبراطورية الفارسية قد انهارت تماما بعد أن أعمتها المخاصمات والمنازعات الداخلية ،وبعد أن أضعفتها هجمات هرقل .وهكذا تم الاستيلاء على أراضيها عام ٦٥٠ م . أما الامبراطوريـــة الرومانية الشرقية فقد أضعفتها ، بالمثل ، الانقسامات الدينية وهجمـــات كثير من الأعداء عليها خلال النصف قرن السابق (لذلك التاريخ) . فاستسلمت مقاطعاتها الشرقية ، وهى سورية وفلسطين ومصر ، بسهولة تدعـــو الى السخرية . وكنتيجة لهذه الانتصارات تقدم العرب الى شواطىء البحر المتوسط ، حيث طوروا قوتهم البحرية بسرعة ، وشنوا هجوما على قلب الامبراطورية البيزنطية ذاته .

وبعد موت عثمان أنحسر المد العربى مؤقتا بسبب مشكلة الخلافة

فقد ترتبت على عملية انتخاب الخليفة ، فجأة ، صراعــات شديدة بين العرب أدت فى النهاية الى قيام حرب أهلية • وخرج من هــذا الصراع منتصرا معاوية (بن ابى سفيان) ، ذلك القائــد السياسى المحنك • وفى عام ٦٦١ م أسس دولة أطلق عليها اسم الدولة الأموية • وتحت قيادة الأمويين الرشيدة استعاد المجتمع العربى استقراره الداخلى ، واستأنفت الجيوش العربية فتوحاتها •

واتخذ زحف الأمويين الرئيسى اتجاها غربيــا عبر افريقيــة • فاستولوا على ممتلكات الأباطــرة البيزنطيين واحدة بعــد أخرى ، ثم أخضعوا أمراء البربر فى شمال افريقية • وبنهاية القرن السابع الميلادى كانت القوات العربية قد وصلت الى المحيط الأطلنطى • ولكنها لم تتوقف هناك ، بل عبرت مضيق جبل طارق فى عــام ٧١١ م ، وسحقت بسرعة مملكة القوط الغربيين المتداعية • وضمت اليها اسبانيا كلها فيما عــدا امارات صغيرة قليلة العدد تقع على الجبال الشمالية الغربية • وسرعان ما بدأت القبائل العربية المغيرة تعبر جبال البرانس داخل مملكة الفرنجة، ولكنها واجهت هناك عدوا قويا •ففى عام٧٣٢م، بعد وفاة الرسول (ﷺ) بمائة عام تماما ، هزم الأمير الفرنجى شارل مارتل القوات العربية بالقرب من مدينة تورز (فيما عرف باسم موقعة بواتييه أو بلاط الشهــداء) • ولهذا النصر دلالته فيما يتعلق بظهور قوة الفرنجــة فى غرب اوروبا • ولكنه بالنسبة لتاريخ العرب يعنى امتداد التوسع العربى غربا • وسرعان ما تراجع المسلمون بعد عام ٧٣٢ م الى جنوب جبال البرانس • ولكنهم لم يقدموا على ذلك الا بعد أن أصبح لهم التفوق البحرى فى غرب البحر المتوسط ، تاركين شواطىء الغرب الأوروبى التى تطل على هــذا البحر معرضة لاغاراتهم •

وفى نفس الوقت اندفعت قــوات عربية أخرى نحــو الشرق من فارس ، وقامت بفتوحات جديدة واسعــة فى افغانستان وفيمــا وراء الأوقيانوس والتركستان والهند الغربية • ثم اقتربت الجيوش العربية

من المناطق الغربية لبلاد الصين فى اوائل القرن الثامن الميلادى ، وبدا كما لو أنها قد ابتلعت تقريبا امبراطورية تانج القديمة المنهارة ومع ذلك، فقد تمكنت المقاومة الصينية من صد الزحف العربى فى ذلك الاتجاه .

وفى غمرة هذه الحملات التى اندفعت الى تلك الجهات النائية ، وجد أمراء بنى أمية الوقت والمقدرة لتوجيه الضربات الى الامبراطورية البيزنطية واقتطاع أجزاء منها . فاكتسحوا أرمينية ، وأغاروا عدة مرات على آسيا الصغرى ، وتحدوا القوات البحرية البيزنطية . وكانت الدولة البيزنطية على حافة الانهيار التام فى مناسبتين على الأقل ، الأولى فيما بين عامى ٦٧٤ و ٦٧٨ م ، والثانية خلال عامى ٧١٧ — ٧١٨ م . ولكن الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية تمكنت من تجنب الكارثة باعادة تجميع قواتها بمهارة واستدعاء احتياطيها . وهكذا ، لم يتمكن المسلمون من اخضاع القسطنطينية لمدة سبعة قرون أخرى حتى عام ١٤٥٣ م . وربما كان النصر الذى أحرزه البيزنطيون عام ٧١٨ م هو الحدث الحاسم الذى أوقف التوسع العربى .

وان مجرد سرد الفتوح العربية يروى قصة النجاح الساحق الذى لا يمكن تصديقه لشعب كان منذ فترة قريبة ضعيفا مفككا . ولم يشهد العالم ، أبدا ، مثل هذه الامبراطورية الشاسعة التى تكونت خلال قرن من الزمان . وفى عام ٧٥٠ م لم يكن باستطاعة أحد أن يجادل فى أمر ظهور قوة عالمية كبرى قادرة على تغيير مجرى التاريخ .

التطور الداخلى

بقى أن نعرف كيف نجح الفاتحون العرب كحكام لامبراطوريتهم الشاسعة . فقد أثبتت المشاكل المتعلقة بالادارة أنها ستكون بصورة دائمة أشد صعوبة من مشاكل الغزو . ومع ذلك سرعان ما أصبح بوسع الخلفاء الأمويين تحقيق بعض النتائج الايجابية .

وخلال القرن الأول الذى أعقب وفاة الرسول(ﷺ)قام العرب بدور بارز فى التاريخ الاسلامى • فكونوا من أنفسهم صفوة عسكرية وفرضوا الجزية على غير المسلمين ، وكان غالبيتهم من غير العـــرب ، وذلك بهدف دعم ومساندة أبناء الله الظافرين • وحاول العرب ،بصفة عامة ،الاقامة بعيدا عن رعاياهم ، فكانوا يعيشـون فى مدن عسكرية منيعة خاصة بهم • كما سمحوا لهؤلاء الرعايا بممارسة طقوسهم الدينية المحلية ، مع الابقاء على عاداتهم ، وعلى أن تظل النظم الحكومية كمـــا هى فى البلاد التى فتحوها • وعلى عكس ما هو معروف ، لم يحاول المسلمون اجبار رعاياهم على اعتناق الاسلام ،بل فضلوا بدلا من ذلك الحفاظ على الدين الحنيف كشرط أساسى لتميزهم عن غيرهم • وبذلك أصبح الفتح الاسلامى لايثير أى احساس بالألم (بالنسبة للأقاليم المفتوحة) ، نتيجة لسياسة عدم التدخل فى أساليب الحياة القائمة (التى اتبعها الفاتحون العرب) •

ومع كل ذلك ، فقد نظم العرب أنفسهـــم كصفوة عسكرية تحكم حشدا كبيرا من الرعايا • وظلوا يواجهون العمل الشاق الخاص بتنظيم أنفسهم تنظيما كافيا يمكنهم من الحفاظ على تفوقهم وسيادتهم • وكان الرسول قد أقام دولة فتية ذات طابع دينى لم تكن قد اتضحت معـــالمها بعد ، وقد مارس فيها سلطة سياسية • وحاول من جاءوا بعده مباشرة الابقاء على هذا التقليد • ومع ذلك لم يكن نفوذهم كافيا لتدعيـــم مثل هذه الثيوقراطية ، خاصة بعد أن تدفق أتباعهم العرب الى الخـــارج فى أجزاء من القارات الثلاث (آسيا وافريقية واوروبا) • وحاول الخلفاء الأوائل السيطرة على قواتهم بوضع روابط دينية مع نظام معاشى يثاب فيه الجندى العربى المقاتل ، حيث يأخذ كل محارب نصيبـــا من الغنيمة والجزية التى كانت تجبى من الشعوب المغلوبة • ولكن هـــذا النظام لم يثمر سوى اثارة الأطماع وخيبة الأمل • لذلك حاولت الدولة الامـــوية الجديدة عندما قبضت على زمام السلطة عام ٦٦١ م وضع نظـــام أكثر تنسيقا لادارة دولاب العمل • فقد أمضى مؤسسها معاوية عدة سنوات

فى سورية ، وعرف كيفيسير العمل فى الامبراطورية الرومانية الشرقية، وما أن تولى السلطة حتى نقل عاصمته الى دمشق ، وبـدأ فى تأسيس حكومة بيروقراطية على نسق جهاز العمل الرومانى • وبذلك أفسح اللون الدينى الثيوقراطى للحكومة العربية المبكرة ، الطريق لقيام دولـة أكثر علمانية ، تهتم بالتنظيم السليم والادارة الحاذقة • وان نجاح هذا النظام الذى أوجده الأمويون فى شئون الحكم يعتبر أحد المشاعل التى أضاءت التاريخ الاسلامى فى عصوره الأولى ، لان العرب لم يشهدوا من قبـل مثل هذا التنظيم الجيد • وبمحاكاة العرب فنون الحكم والادارة لشعوب أكثر حضارة ومدنية ، نجحوا فى تأسيس وحكم امبراطورية عظيمة •

وقد استنفذت الفتوحات والتنظيم السياسى معظم الجهود والمواهب العربية خلال القرن السابع وبدايات القرن الثامن الميلادى • فلم يكن للعرب ، باستثناء دينهم ولغتهم وشعرهم ، سوى قدر ضئيل من الثقافة يقدمونه لرعاياهم المغلوبين ، والذين كان معظمهـم يفوقونهم فى الأدب والمعرقة والفن والعلوم والفلسفة • ولم يكن للعرب حتى نهايـة العصر الأموى فى عام ٧٥٠ م حصيلة ثقافية ملحوظة سوى مـا أمكن تحقيقه فى ميدان العمارة • فقد قاموا ببناء المساجد لأداء فروض العبادة فيها• وكان الرسول (ﷺ)نفسه قدشيد مسجدا للصلاة فى المدينة يتكون من فناء يحيط به سور وقد غطى سقف جانب منه ، وبـه منبر يعظ منه الناس ويؤمهم • وكان هذا الطراز الأول (لمكان العبادة) أساسا للمسجد الذى شيده العرب وقاموا بتقليده فى كل مدينة من المدن المفتوحة ومـع ذلك ، فان المساجد التى شيدت فى العصر الأموى أصبحت أكثر دقة واحكـاما تحت تأثير نماذج العمارة المحلية • واستخدم السادة العرب العمـال الفنيين من أهالى تلك البلاد الذين طبقوا خبراتهم وفنونهم التى اكتسبوها من تشييد دور العبـادة لسادتهم الأسبقين مـن المسيحيين واليهود والزارداشت (فى بناء دور العبادة الجديدة) •وهكذا، استطاع امراء بنى أمية تشييد عدة مساجد مشهورة لعل أبرزهـا هو جامـع بيت المقدس الذى اطلق عليه اسم قبة الصخرة ، ويسمى أحيانا عن طـريق الخطأ

جامع عمر • فقد بناه أحد الخلفاء الأمويين الذى عزم على أن يجعل منه صرحا اسلاميا أكثر فخامة وبهاء من كنيسة القبر المقدس • وقد حوت قبة الصخرة كثيرا من مظاهر الفن المعمارى البيزنطى ، وبوجه خاص قبته المغطاة بالفسيفساء ذات الألوان الزاهية • ويوجد فى دمشق مسجد آخر تأثر بالفن المحلى الذى تجلى هنا فى مآذنه • وقد اشترك العمال الفنيون من فرس ويهود ويونانيين فى بنائه • واذا استثنينا جهود العرب فى تشييد دور العبادة المناسبة لاقامة شعائرهم الدينية ، نجد أن اضافاتهم من الناحية الثقافية للأقاليم المفتوحة كانت ضئيلة خلال العصر الأموى • فقد استمرت الحياة الثقافية القديمة للسكان غير العرب فى الدولة الاسلامية ، فى معظمها ، كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغيير • وكان كل ما فعله السادة العرب هو أنهم استعاروا من كل مكان ما يناسب احتياجاتهم ، ذلك أن المشاكل العسكرية والسياسية الملحة لم تترك لهم سوى القليل من الوقت والجهد لتوجيههما للشئون الثقافية •

ومع ذلك ، فقد كانت هذه الفترة تمهيدا أوليا لنهضة ثقافية لامعة شملت كل أنحاء العالم الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى • وكان لانتشار الدين الاسلامى من اسبانيا حتى الهند يحتل أهمية فائقة فى هذا التطور • فلم يكن العرب فقط هم الذين يمثلون الاسلام فى كل هذه الرقعة الفسيحة من الأرض • بل بدأت أعداد غفيرة من غير العرب تعتنق دين الفاتحين • وفى عام ٧٥٠ م كان معظم سكان مصر وفارس يدينون بالاسلام ، بينما تحول فى سورية عدد كبير الى الدين الجديد ، وقد اختلطوا بالمسيحيين واليهود • وحتى فى الولايات النائية كان عدد من اعتنقوا الدين الجديد فى تزايد مطرد • ولم يكن اعتناق الدين ، فى المكان الأول ، نتيجة أى ضغط أو اجبار أو حتى أى نشاط تبشيرى مارسه الفاتحون الذين بدا عليهم أنهم قانعون بالاحتفاظ بدينهم كاحتكار عربى• ولم تكن ثمة أى ميزة كبرى يجنونها من وراء اعتناق الناس للدين • ففى العصر الأموى فرض الحكام العرب بصفة عامة الجزية على غير العرب،

وحرموهم من الاشتراك فى الحياة السياسية والعسكرية حتى ولو كانوا قد دخلوا فعلا فى الاسلام • وبدا واضحا أن معظم من اعتنق الاسلام قد اعتنقوه بسبب تعاليم رسول الله (ﷺ) • وساعد على ذلك التشابه بين الاسلام والأديان الأخرى الموجودة فى ذلك الوقت ، مما جعل اعتناق الدين الجديد أمرا سهلا نسبيا •

وليس هناك من شك فى أن انتشار الاسلام قد أدى الى تنشيط عملية التبادل الثقافى ، وأدى الى نموه وازدهاره • فبينما كان العرب المسلمون يحتكون بثقافات أخرى ، وجدوا أنه من الضرورة القصوى أن يزنوا مدى اتفاقها مع آرائهم الدينية • أما فيما يتعلق بغير العرب ممن اعتنقوا الاسلام ، فقد واجهتهم مشكلة اعادة تكييف قيمهم الثقافية القديمة لتساير تعاليم الدين الجديد • ولم يكن الخليط الناتج عن هذا سوى قوة دافعة لخلق ثقافة اسلامية جديدة واسعة النطاق • وقد أدى انتشار اللغة العربية كلغة عامة الى تزويد الثقافة الجديدة بالوسائل اللازمة لتطورها وانتشارها • ومع أن العرب لم يفرضوا لغتهم على رعاياهم ، الا أنها انتشرت انتشارا واسعا فى العصر الأموى ، لأن الاسلام لم يشجع ترجمة القرآن • ولذا اضطر جميع الراغبين فى التمسك بالعقيدة الجديدة الى تعلم اللغة العربية •

وهكذا أصبح العرب خلال القرن الأول من الهجرة فى وضع يسمح لهم بأن يرثوا كل الحضارات التى وجدت من قبل فى البلاد التى فتحوها • ومع ذلك ، فقد كان عليهم كمسلمين أن يحكموا على هذه الثقافات ان كانت تنال رضاء الله • وهذا يعنى أنه كان يجب عليهم أن ينقبوا فى كل مظاهر الحياة الثقافية داخل امبراطوريتهم • وكانت الحصيلة المنطقية لهذا الوضع هو المزج والتأثير المتبادل بين هذه الحضارات • ومع أن عملية المزج هذه لم تتم فى الحال ، الا أن الفتح العربى وانتشار الاسلام قبل عام ٧٥٠ م قد مهد الطريق لذلك •

ومما لا جدال فيه أن الاسلام قد أحدث فى عالم البحـــر المتوسط هزة عنيفة أثناء القرن الأول من تاريخه ٠ فقد تفجر دين جديد ، وسطعت قوة عسكرية جديدة ليحدثا ثـــورة فى الأوضاع الدينيـــة والجغرافية والسياسية فى مناطق شاسعة فى افريقية وآسيا واوروبا ٠ كما أن ظهور هذه القوة الجديدة قد وضع الدول والأديان الأخرى القديمة فى مأزق شديد ٠ فقد كانت الأحوال الداخلية فى الدولة الجديـــدة تنبىء بثورة ثقافية واسعة النطاق ، وتعلن عن تشكيل قوى روحية جديدة متماسكة ٠ وهكذا كان مولد الاسلام فى القرن السابع الميلادى بداية فصل جديـــد من فصول التاريخ ٠

المجتمـــع الأوروبى الغربى

من المؤكد أن الاهتمام الرئيسى فى القرن السابـــع وبواكير القرن الثامن للميلاد كان يتركز فى منطقة شرقى حوض البحر المتوسط ، حيث دلل ما تبقى من الامبراطورية الرومانية القديمة على استمرار وجوده ، عن طريق اعادة تجميع جذرى لمواردها السياسية والاجتماعية والاخلاقية وحيث ظهرت على المسرح قوة عسكرية جديدة ازداد نموها بافادتها من مصادر الحضارات القديمة ومواردها ٠ وكـــان يخيم على كـــل مناحى الحياة فى غرب اوروبا جو من الركود والتخلف ، معلنا أن الطابع المتبربر للحياة قد أصبحت له فى النهاية الغلبة والسيطرة التامة ٠ وأخذ الظلام الذى عم كل شىء يزداد مع الزمن ٠ ومع ذلك ، يستطيع المرء ، فى غمرة هذه المشكلات والصعاب الكثيرة ، أن يدرك أن المجتمع فى غرب اوروبا كان قد وضع بشكل بطىء الأسس الصلبة التى بنى عليها صرح حياتـــه الخاصة ٠

الفوضى السياسية

وربما كان أشد مظاهر الحياة حلكة وكآبة فى غرب اوروبـــا بعد

عام ٦٠٠ م ، هو اضمحلال النظم الحكومية وقيام حكم مبنى على العنف ففى نهاية القرن السادس سيطرت أربعة عناصر جرمانية على اوروبا الغربية • وهذه العناصر هى : الأنجلو سكسون فى بريطانيا ، والفرنجة فى غالة ، والقوط الغربيون فى اسبانيا ، واللمبارديون فى ايطاليا • ويقدم التاريخ السياسى لغرب اوروبا فى العصور الوسطى المبكرة سجلا كئيبا للحروب ومؤامرات البلاط والظلم الشديد • وتعزى هذه الحالة العامة من الفوضى والاضطرابات ، فى كثير من الأحيان ، الى سلوك حكام الممالك الجرمانية • ومع ذلك ، تبرز من وراء هذه القصة المحزنة للشئون السياسية استنتاجات عامة محددة عن طبيعة الحياة السياسية فى الغرب خلال هذا العصر المظلم •

• لقد وقف الحكام الجرمان دون حراك أمام المشكلات الضخمة (التى واجهتهم) ، والتى كانت تتعارض وقيام نظام سياسى سليم • ونظرا لأنهم كانوا أقلية وصلت الى مركز السلطة عن طريق الغزو ، فقد كان نفوذهم محدودا على رعاياهم • ولما كانت حدود دولهم غير محددة تحديدا واضحا ، فقد انغمسوا فى حروب محلية بهدف الحصول على أراض جديدة أو الدفاع عن أراض قديمة ، كما حدث فى انجلترا بصفة خاصة حيث عاشت معا عدة ممالك جرمانية صغيرة فى حروب مستمرة ، وكما حدث فى ايطاليا حيث دخل اللمبارديون بعد عام ٥٦٨ م فى تحد لم يتوقف مع الأباطرة البيزنطيين على حكم شبه الجزيرة • وفضلا عن ذلك ، فقد كانوا واقعين دائما تحت تهديد هجمات الغزاة الأجانب المتكررة • اذ بدأ العرب فى القضاء على مملكة القوط الغربيين فى عام ٧١١ م ، وسببت قبائل السلاف المضايقات المستمرة للفرنجة على طول حدودهم الشرقية • وفى النهاية واجه الحكام الجرمان المهمة الثقيلة الخاصة بحكم شعوب كانت تمتع فى يوم ما بالخدمات التى قدمها لها النظام الامبراطورى فى روما الذى تميز بتنظيمه الدقيق واتجاهه الانسانى ، وكانت لا تزال تذكر تلك الخدمات • وعلى هذا ، فان أى

مقارنة بين الامبراطورية الرومانية القديمة والممالك الجديدة المتبربرة ، لايمكن أن تعمل الا على التهوين من شأن الجرمان والحط من قدرهم .

وبالرغم من جسامة العبء ، فقد حاول معظم الحكـام الجرمان خلال القرن السادس الميـلادى تنظيم ممالكهـم على غرار الحكـومة الرومانية التى سبقتهم . وكانت جهودهم (فى هذا المضمار) عظيمة ، هذا الى جانب الانجازات الدائمة التى حققوها ، حتى أن أحد الثقاة فى نظم العصور الوسطى المبكرة قد أثبت أن الغزوات الجرمانية لم تحدث تغييرا جذريا فى الحضارة الرومانية . ومع أن هذا الادعاء مبالغ فيه لاشك ، الا أنه يبدو أن بعض الأنظمة الجرمانية المبكرة كانت تبشر بقيام نظام سياسى ثابت مستقر لا يختلف فى صميمه عن ذلك الذى كان قائمـا فى روما من قبل .

وعلى أية حال ، لم يحد الأمراء الجرمان عن بربريتهم الا قليـلا لاحداث مثل هـذا التغيير والانتقال . فلم يفوا بوعودهـم المبكرة فى القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد . ولم تكن الأنظمـة الملكية المتطلعة فى القرن السادس سوى واجهات تخفى من ورائها العديد من المساوىء السياسية الخطيرة المتنوعة . وتصلح مملكة لفرنجة فى غالـة تحت حكم الأسرة الميروفنجية أن تكون مثالا يكشف عن مصير الحكومات الجرمانية التى تأسست فوق أنقاض الامبراطورية المتداعية .

ويترك التاريخ الميروفنجى فى ذهن القارىء انطباعا عن التناقض بين ادعاءات ملوكهـا وسلطاتهم . فقـد ادعى جميع خلفـاء كلوفيس (٤٨١ — ٥١١ م) مؤسس هذه الأسرة أن سلطتهم مطلقة . ولكن نفوذهم الفعلى تضاءل تماما فيما بين نهاية القرن السادس وأواسط القرن الثامن للميلاد ، الى أن انهار آخر الأمر . وكانت أسباب هـذا الاضمحلال عديدة . فم يستطع معظم الميروفنجيين التخلى عن تقاليدهم السياسية

المتبربرة ، وخلقوا بذلك جوا مشبعا بالعنف والارهاب والاستبداد نتيجة اعتمادهم الشديد على القوة لتحقيق غاياتهم السياسية • وقلمـا نجد أسرات ملكية على امتداد التاريخ استطاعت أن تصل الى مثل هذه الدرجة من العنف والوحشية التى وصل اليها حكام النصف الأخـير من القرن السادس الميلادى ، كما سجل جريجورى أسقف مدينة تورز المعاصر فى كتابه « تاريخ الفرنجة » • وحتى نساؤهم كانت أشد وحشية وقسوة ، وبصفة خاصة برونهلدا Brunhilda احدى أميرات القوط الغربيين التى تزوجت من الملك سيجبرت Sigebert ، والتى أطلـق عليها المعاصرون لهـا اسم « ايزابيل الثانيـة » • وكذلك فريديجونـده Fredegunde جارية الملك تشيلبريك Chilperic وعشيقته ، والتى أصبحت ملكة بعد خنق زوجته الأولى أخت برو نهيلدا • ونتيجة لذلك أشعلت فريديجونده نار الحقد والكراهيـة فى قلب برونهيلدا ، حتى بلغ الأمر تدبير مقتل سيجبرت وتحريض تشبليريك بالاستيلاء على ارث أبناء برونهيلدا • وان أعمال العنف العديدة لهاتيك الملكات اللاتى لا يغلبن على أمرهن ، قد أضرت بمصالح أزواجهن ونسلهن الى أبعـد الحدود ، وسيطرن على تاريخ أواخر القرن السادس والسنوات الأولى من القرن السابع الميلادى • وربما كان العذر الوحيد لمسلكهن هو أن الأقارب المتآمرين والنبلاء الطامعين قد دفعوا بهن الى ارتكاب الجرائم بتصرفاتهم الشائنة • وكان هؤلاء الأشخاص ، على أقل تقديـر ، ذوى بأس ومقدرة • وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال بالنسبة لسلسلة الملوك المتعاقبين الذين اعتلوا العرش خلال النصف الأخير من القرن السابع وبدايات القرن الثامن الميلادى • واذ أغرتهم وأفسدتهم مظاهر المغالاة والافراط فى حياة البلاط فى عصر مبكر ، كانوا — عادة — يموتون وهم فى الثلاثينات من أعمارهم ، ويتبعهم أبناؤهم وقـد ورثوا عنهـم نفس الطابع المزرى الدنىء •

ولم يكن لدى الملوك (الجرمان) سوى فكرة غامضـة المغاية عن الصالح العام • لذلك نادرا ما حاولوا القيام بخدمات ايجابية تجـاه

رعاياهم • وكانوا يعتبرون الدولة طبقا للتقليد الجرماني القديم من ضمن ممتلكاتهم الخاصة يقسمونها بين جميع ورثتهم من الذكور • وأدى ذلك الى قيام مشاحنات أسرية مليئة بالأفعال الشائنة التى استنفذت جهودهم، وكثيرا ما تحولت الى حروب أهلية مدمرة • كذلك أدت التقسيمات المتكررة (للأرض) فى نهاية القرن السابع الميلادى الى تفتيت الدولة الميروفنجية التى كانت موحدة من قبل ، فأصبحت أربع ممالك منفصلة على الأقل • وحتى فى الحالات النادرة التى حاول فيها أى حاكم ميروفنجى الترفع عن الطموح الشره والمشاحنات التافهة من أجل العمل على تنفيذ برنامج بناء ، كان يجد نفسه عاجزا بسبب الارتباك الذى تسببه والعبء الذى تلقيه عليه مجموعات القوانين والعادات والطقوس الدينية واللغات ومستويات الثقافة المختلفة ، التى تجعل من المستحيل تطبيق أية سياسة موحدة على جميع رعاياه •

لهذا كله لم ينجح الميروفنجيون بالمرة فى السيطرة على مراكزهم بسبب ما حل بهم نتيجة عاداتهم المتبربرة وقلة الموارد وقصور مفاهيمهم عن الحكم والحكومة ، بالاضافة الى مشكلات أخرى عديدة • وقد عبر عنهم أحد كتاب القرن السابع الميلادى ساخرا بأنهم أصبحوا ملوكا عاطلين « لا يفعلون شيئا » ، قانعين بركوب العربات المفتوحة من احدى اقطاعياتهم الخاصة الى الأخرى ، واثارة الدسائس والمؤامرات بين أقاربهم للحصول على قطع صغيرة من الأرض • واذ أصبحوا عاجزين عن تدعيم السلام وفرض النظام ، فقد أدى فشلهم فى حد ذاته الى الاسهام فى انتشار الفوضى التى بدأت جذورها تتأصل فى صميم النظم السياسية الجديدة فى غرب اوروبا •

ولم يتمكن الملوك الميروفنجيون أنفسهم من الاحتفاظ سوى بحكومة بدائية • فقد اضطروا أن يقتسموا السلطة السياسية مع كبار ملاك الأرض • وكان مباشرة السادة النبلاء ملاك الأرض للسلطة السياسية أمرا ملتويا يشوبه الخداع • ومع ذلك ، كان تطورا له أهمية الفائقة •

اذ فرق تماما بين غرب اوروبا وبين كل من بيزنطة والاسلام • ولما كان هذا التطور قد بدأ فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد عجل الملوك الجرمان بتنفيذه ، خاصة وأنهم كانوا فى حاجة الى الدخل المالى الكافى لدعم الخدمات التى تقوم بها الحكومة • وكان الملاذ الوحيد لهم هو الالتجاء الى مطالبة رعاياهم بأداء خدمات سياسية على نفقتهم الخاصة ، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بالحملات العسكرية وحفظ الأمن والنظام فى الداخل واقامة العدالة • ولم يستجب لذلك سوى الأغنياء الذين طالبوا مقابل خدماتهم منحهم المزيد من الأرض من اقطاعيات الملك الخاصة ، وكذلك حق حكم اقطاعياتهم الخاصة كممالك لهم • وبهذه العملية استنفذ الملوك مواردهم ، وقسموا سلطتهم ، بينما ازدادت الأراضى التى يمتلكها النبلاء ، وأقاموا لأنفسهم حكومات خاصة بهم ، وأخضعوا غالبية الأهالى لسلطتهم المباشرة • وحاول الملوك التأكد من ولاء ملاك الأرض لهم ، فطالبوهم بأن يؤدوا يمين التبعية والولاء ، وهو أمر يستحق الثناء ذلك الذى جعل من النبلاء طبقة خاصة فوق عامة الناس ، وأجبر الملوك على تكريس معظم جهودهم ضد تجاوز الأفصال الأقوياء لسلطاتهم •

وكانت هذه الخطوات المبكرة التى أدت الى ظهور النظام الذى أطلق عليه فيما بعد اسم النظام الاقطاعى سببا فى قيام مشاحنات مريرة فلم يكن الخط الفاصل بين سلطة كل من الملك والنبلاء محددا، الأمر الذى أدى الى قيام الصراع المستمر بين الطرفين • ورغما عن ذلك ، فقد كان الوضع الجديد أساسا لاستعادة النظام (فى غرب اوروبا الذى اكتنفته الفوضى عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة) • واستطاع النبلاء الأقوياء بعد أن تجمع كل منهم فى مساحة صغيرة من الأرض ، ان يحموا السكان ويحكموهم فى مواقعهم المباشرة • ومع ذلك ، فقد كان الملك على رأسهم باعتباره مصدر سلطاتهم ورمزا لعامة الناس الذين ينتظمون فى مجتمع أكبر • ولقد كان هذا النظام بدائيا اذا ما قورن بالأنظمة المعاصرة

له لدى الأباطرة البيزنطيين والخلفاء الأمويين . ولكن فى ظل هذه الظروف بدأ الغرب يطور نظامه السياسى الذى تميز به ٥٨

التطور الأقتصــادى والاجتماعى

ولقد عانى الغرب الأوروبى كذلك من تدهور اقتصـــادى تدريجى شديد فيما بين عامى ٦٠٠ و ٧٥٠ م . وكانت أسباب هذا التدهور موضع نقاش وجـــدل كبيرين ، ولكنها تعـــزى بدورهـــا الى تخلف الجرمان الاقتصادى ، وقطع العرب لطرق التجارة فى البحر المتوسط ، والمساوىء المالية التى تنسب الى الأباطرة الرومان فى أواخر عهد الدولة الرومانية ومع أن أسباب الانهيار متشابكة يشوبها الغموض ، الا أنها كانت بادية للعيان . فقد كانت التجارة فى تدهور مستمر ، الى أن انعدمت بالفعـــل فى أواسط القرن الثامن الميلادى . وأدى توقفها الى شل حياة المدينة . ولم يكن أمرا غيرعادى بالنسبة لمن كانوا يدركون حقائق الأمور فىالقرن السابع ، الشكوى من نمو الحشائش فى شوارع المدن المعدمة . واختفى التجار والعمال الفنيون ،واختفى معهم قدر ملحوظ من تلك المقدرة الفنية التى كان الغرب يتمتع بها . واضطر سكان المدن ، التى كانت مزدهرة يوما ما ، الى الاتجاه الى الزراعة كوسيلة لكسب لقمة العيش . وأصبحت الأرض بلا منازع المصدر الوحيـــد للثروة ، واختفى الاقتصاد المـــالى القديم وتركزت الحياة الزراعية بشكل مطرد حول الاقطاعيات الكبيرة المعروفة باسم «latifundia»أو أراضى السيد الاقطاعى التى كانت تتمتع باكتفاء ذاتى تقريبا . وبدأ ورثة ملاك الأرض الذين ينتمون الى الطبقة الأرستقراطية القديمة ، والذين قاموا فيما مضى بدور هام فى حياة المدن الاقتصادية والثقافية ، يميلون الى قضاء معظم حياتهم فى اقطاعياتهم . وتكونت القوة العاملة فى اقطاعيات السادة مـــلاك الأرض من صغـــار الفلاحين الذين جلبوا من الأسواق واللاجئين المتجولين من المدن المهددة بالموت ، ولا داعى لذكر حماية البوليس . ومقابـــل ذلك حصلوا على حصص صغيرة من الأرض يستخدمونها لمعاشهم . وتجمعت قوى عديدة

لتخلق نظاما اجتماعيا يطالب الفلاحين وفقا للقانـــون والعـــادات ، بأن يظلوا مرتبطين بالاقطاعيات التي ولدوا فيها • وهكـــذا تكونت طبقـــة جديدة هي طبقة رقيق الأرض أو الأقنان •

وقد سبب تدهور التجارة وحياة المدينة ، فضلا عن ازدياد الاعتماد على الزراعة التي تركزت في اقطاعيات منعزلة ، انخفاض مستوى المعيشة في المجتمع في غرب اوروبا الى حد بعيد • كما عجل بتقسيم هذا المجتمع الى طبقتين هما ملاك الأرض والأقنان ، وشجع على وجود محلية موغلة في كل شيء • وفي هذه المجالات ، كان مجتمع غرب اوروبـــا متناقضا لدرجة كبيرة بالنسبة للمجتمعين اللذين كانا ينعمان بالرخـــاء ، واللذين اختلفا عنه في تكوينهما ، وهما : الدولة البيزنطية والعالم الاسلامي • وقد قدر لهذا التخلف الاقتصادي والاجتماعي أن يستمر لعدة قرون •

الحياة الدينية في غرب اوروبـــا

بينما كانت الممالك الجرمانية في غرب اوروبـــا منهمكة في وضع أساس جديد لمجتمعها داخل اطار نظـــام سياسي تهيمن عليـــه الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأرض ، وبينما كانت هذه الممالك مشغولة بنظام اقتصادي يتكون من اقطاعيات مكتفية ذاتيا ، طرأ على النظم الدينية تغيير مماثل • وقد تمخض عن هذا التغيير نشأة كنيسة مسيحية تناسب مطالب العصر واحتياجاته • كما أنها كانت محصورة في نطاق الرقعة الجغرافية للغرب الأوروبي •

وربما كان من المناسب هنا أن نتذكر أنه قبيل عـــام ٦٠٠ م كانت الكنيسة (الغربية) قد أكملت فعلا تنظيمها الأساسي، كما طورت عقيدتها وخدمة القداس ودستورها الأخلاقي • وظلت مظاهر الحياة المسيحية هذه باقية بعد انهيار العالم الروماني بشكل يدعو الى الدهشة • وبذلك تم تزويد الكنيسة بموارد هائلة تمكنها من مواجهة العصر الجديد • وكما

بدا لنا من مناقشة الحياة المسيحية فى شرقى البحر المتوسط ، كان أهم تطور دينى له دلالته خلال القرنين السابع والثامن للميلاد هو انقسام المسيحية الى « كنائس » منفصلة عن بعضها ،وما أستتبع ذلك من تكييف النظم الدينية القائمة لتلائم الأوضاع السائدة فى المناطق الجديدة •

ولقد انفصلت الكنيسة فى غرب اوروبا عن الكنائس الأخرى بدعوى أنها لم تستطع اعتبارا من القرن الخامس الميلادى فصاعدا ، أن تعتمد على مساندة فعالة من حكومة قوية • فقد كان الأمراء الجرمان مسيحيين، وكانوا يميلون الى تأييد الكنيسة ، ولكنهم كثيرا ما ألحقوا بها الضرر وأضعفوها بأساليبهم الوحشية وحمقهم السياسى • وواضح أنهم شجعوا قيام الكنائس « الوطنية » داخل ممالكهم ، وبذلك أحدثوا تصدعا فى وحدة العالم المسيحى المغربى الذى ظل باقيا بعد تخلخل المجتمع وتحوله من المركزية الى المحلية • وفى الوقت ذاته ، كانت الزعامة الدينية التى يتمتع بها الأساقفة قد ازدادت الى حد بعيد بسبب ثروة الكنيسة المتزايدة • ولما كان معظم هذه الثروة مستمد من الأرض ، فقد أصبح الأساقفة ملاكا للأرض ، ولم يكن هناك مناص من القيام بمهام سياسية ارتبطت بادارة الاقطاعيات الكبيرة • وقد التهمت واجباتهم السياسية والاقتصادية معظم طاقاتهم ، ولم تترك لهم سوى القليل من الوقت للقيام بمسئولياتهم الدينية • ولما كانت الوظيفة (بهذا الشكل) تحمل بين ثناياها الثروة والقوة ، فقد كان التنافس من أجل المناصب الأسقفية مشحونا بالرذيلة ، وتغلب الأقوياء — عادة — على الأتقياء • وأصبح الأسقف النموذجى فى القرنين السابع والثامن للميلاد ، شخصا دنيويا يهوى الحرب ولا يهتم اطلاقا بالأمور الروحية • ويعكس تقصيره هذا تلك النوعية الرديئة المتدهورة من الكهنة • فقد كان هؤلاء الرجال أميين يجهلون أصول العقيدة ، وليس لهم معرفة بخدمة القداس ، كما كانوا متساهلين متراخين فيما يتعلق بالمثل الأخلاقية فى الحياة • ولما كان هؤلاء هم الذين يمثلون الكنيسة فى الأبروشيات ، لذا لم يكن مستغربا

أن تتميز حياة جمهرة الناس بميلها الى الخرافات وممارســة الطقوس الوثنية والسقوط فى حمأة الرذيلة . وبذا لم تكن المسيحية ، شأنهــا شأن غيرها من مظاهر الحضارة الغربية ، بمنأى عن بربريــة الغزوات الجرمانية .

وفى نفس اللحظة التى تغلغلت فيها البربريةفىالحياة الدينية بدرجة بالغة الخطورة ،كانت هناك انقسامات جديدة تضعف من وحدة المسيحية. وقد أدى الخلاف حول أمور العقيدة الى ابعــاد الكنيسة البيزنطية عن التقاليد الغربية . ومع أن القطيعة الدينية لم تكن تامة فى عام ٧٥٠ م ، الا أن التفاهم المتبادل كان ضعيفا لدرجة كبيرة ، وهبطت امكانية التقارب (بين الكنيستين) بشكل ملحوظ بسبب عدم قدره الدولة البيزنطية على حماية ممتلكاتها الايطالية أو الابقاء على الاتصال بــين الغرب وبيزنطة بدون أى عائق أو حاجز . وأصبح استيلاء المسلمين على أرمينية وسورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية واسبانيا ، الذى صاحبه اعتناق عدد كبير من المسيحيين للدين الاسلامى ، يشكل ليس فقط خطــرا كبيرا فى انخفاض عدد المسيحيين ، ولكن أيضا ضربة قاسية للوحدة المسيحية . كذلك حصر العلاقات بين المسيحيين العديدين القاطنين فى هــذه المناطق واولئك الذين يعيشون فى غرب اوروبا فى أضيق الحدود ، حتى اقتصر الأمر على مجرد تبادل الخطــابات بين الأساقفــة . وكانت مثــل هذه الخطابات بادرة عقيمه غير مجدية . كذلك اقتصر الامر على بعض رحلات الحج العارضة التى كانت تفد من الغرب الى الأراضى المقدسة . وبذلك أصبح المسيحيون الغربيون — فى الحقيقــة — فى عزلة تامــة عن بقية العالم المسيحى .

وواجهت الكنيسة فى الغرب أزمات خطيرة ومشاكل صعبة بسبب تفشى الروح البربرية فى المجتمع ، وانعزالها عن المجتمعــات المسيحية الأخرى بدرجة متزايدة . ومع ذلك نجحت بالفعل فى علاج بعض مشاكله مما أسهم فى تقدم كنيسة العصور الوسطى بوسائــل تتميز بأهميتها البالغة .

وفى عهود الحكام الضعاف المستهترين ، تخلت الحكومات العلمانية عن كل مسئولية تهدف الى تحقيق الرفاهية لرعاياها . وتولت الكنيسة ، بزعامة مطلقة ، عبء الضعفاء والمساكين . كما أبقت على المستشفيات والمدارس القائمة فحسب . وتسربت مثلها وأفكارها الداعية الى العدالة والرحمة الى القوانين الجرمانية العنيفة وصقلتها وهذبتها . وخدم رجال الكهنوت المتعلمين لدى الملوك بالقيام بمهام سياسة عديدة ، وبذلك تركوا بصمات الكنيسة على التطور السياسى (للغرب الأوروبى) . وعندما اتسع نطاق اسهام الكنيسة فى النشاط الاجتماعى ، ازدادت هيبتها ومكانتها . ونتيجة لذلك ، بدأت تلعب دورا هاما لم يكن فى الحسبان فيما يتعلق بصياغة مستويات جديدة للرخاء الاجتماعى ، والعمل على ايقاظ الوعى الاجتماعى فى غرب اوروبا .

ومن انجازات الكنيسة ، أيضا ، نجاحها المستمر فى اجتذاب الكثير الى المسيحية (الكاثوليكية) ، نتيجة الجهود التى قامت بها البعثات التبشرية . وباعتناق الانجلو سكسون فى انجلترا الديانة المسيحية خلال القرن السابع الميلادى ، تمت بشكل نهائى عملية تحويل الأمم الجرمانية التى كانت قد غزت الامبراطورية الرومانية الى الدين الجديد . ومع أن الارساليات الدينية الايرلندية والرومانية كان لها أبلغ الأثر فى انجلترا ، الا أن الجهود الرومانية كان لها التفوق فى النهاية ، وبخاصة فى مجال تنظيم المتنصرين الجدد ، وفى وضع أسلوب عمل الكنيسة . وعمل المرسلون الايرلنديون خلال القرن السابع على تحطيم الجيوب الوثنية المتبقية فى القارة الأوروبية ، وبخاصة على طول الحدود الشرقية لمملكة الفرنجة . وفى مستهل القرن الثامن كانت الارساليات الانجليزية بتوجيه من البابوية (فى روما) قد اخترقت المناطق الواقعة فيما وراء نهر الراين ، وأخذت فى ادخال الجماعات الجرمانية التى لم تكن قد غزت الامبراطورية الرومانية القديمة من قبل الى المسيحية .وكانت الارساليات الدينية العاملة فى هذه الجهات تمثل القوة الحضارية التى تصدت للنظام

المتبربر فوق أرض خاضعة للبرابرة ، وجعلت المسيحية حلقـــة الوصل الأساسية بين القادة الجرمان داخل نطاق الامبراطورية القديمة وخارجها وترتب على هذه الجهود أن بدأت الحضارة الأوروبية الوليدة فى الانتشار والنمو • وتحت القيادة السديدة ،كان من الميسور القيام بأمر الاصلاح الدينى بسهولة أكثر فى الجهات التى أقيمت فيها الكنيسة مؤخرا عن تلك التى ارتبطت فيها بالتقاليد من قبل • فأصبحت انجترا ، مثلا ، مركزا للتقوى والعلم فى الغرب كله أثناء القرن السابع وبدايات القرن الثامن ، كما مارس رجال كنيستها نفوذا قويا خارج انجلترا أيضا • وبطريقة مماثلة أتاح عمل الارساليات الفرصة أمام أسقف روما لوضـــع أراض جديدة تحت سيطرته ، الأمر الذى أدى الى ازديـــاد نفوذه وسلطاته •

ومع ذلك ، فان اتساع نطاق عمل الكنيسة فى المجتمع وامتداد حكمها فوق مساحات جغرافية جديدة ، يبين بشكل واضح نجاحهـــا فى ايجاد أنظمه قادرة على اعادة النظام داخل المجتمع المسيحى ، وتعميق حياته الروحية • ومن هذه الزاوية يتميز القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد بأهمية خاصة ، بسبب نمو البابوية وانتشار نظـــام الرهبنة البندكتية •

وكانت البابوية قد أرست دعائمها كقوة هامة فى العـــالم المسيحى قبل القرن السابع بفترة طويلة • ووفقا للتقليد القائل بأن رومـــا هى الأسقفية الأولى فى العالم المسيحى ، استنـــادا على اصطفاء المسيح لبطرس ، واختيار بطرس مدينة روما بعد ذلك لتكون مقرا للكرسية — وفقا لما تقدم خرج أساقفة روما بسمعة مفادها أنهم هم مصدر العقيدة الارثوذكسية الصحيحة والشريعة الحقة • وكانوا قد حصلوا على ثروة طائلة • ولعبوا دورا هاما فى الحياة السياسية فى ايطاليا ، وبصفة خاصة أثناء الغزوات الجرمانية وانهيار الحكومة الرومانية • ومـــع ذلك ، فقد كانت قوة البابوية وهيبتها مهددتين خلال القرن السادس ، أولا بسبب

القوة الفتية للامبراطورية الرومانية الشرقية ، وثانيا بسبب اللمبارديين الغزاة • وقد أدى استيلاء جستنيان على ايطاليا الى وجود سيد علمانى تعلو سلطته سلطة البابوات • وقد أصر السيد على املاء سياسة دينية ، كما رد على ادعاءات روما بالأسبقية بمساندته لمطالب بطريارك القسطنطينية • وفى عام ٥٦٨ م ، دفع الغزو اللمباردى شبه الجزيرة الايطالية الى الحرب ، وهدد على الدوام بالاستيلاء على روما • وكان النفوذ البابوى قد أخذ فى الضعف بسبب ميل الملوك الجرمان القوى الى فرض سيطرتهم على الكنائس الواقعة داخل أراضيهم •

وفى هذا الوقت العصيب أنقذ جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤م) بعبقريته الملهمة بابوية روما من القوى التى هددتها • وكان جريجورى الشاب سليل عائلة شريفة ، ولذلك تلقى تعليما جيدا بهدف اعداده للخدمة فى الحكومة الامبراطورية • ولكنه سرعان ما ترك الخط الذى سار فيه ودخل سلك الرهبنة • وكان قبوله راهبا حسبما أعلن هو غاية ما يتمناه• ثم دخل فى خدمة البابوية كممثل لها فى القسطنطينية • وبعد ذلك ارتقى كرسى البابوية عام ٥٩٠ م بناء على رغبة الشعب الرومانى الذى أثار قلقه فى تلك الفترة انتشار وباء خطير هو الطاعون • وظل طوال بابويته الراعى الصالح لرعيته من الرومان • اذ كان يجمع الغلال ليأكلوا ، ويرفع من روحهم المعنوية بعظاته القوية وبتنظيم نواحى النشاط المختلفة، للتخفيف من معاناة المرضى وبؤس المساكين • وكانت مواهبه ، مع ذلك ، تتعدى مجال العمل المحلى •

ولما كان جريجورى رجلا يتميز بغيرته الدينية العميقة وعقله العملى وعناده ، فقد أرسى سياسة تهدف الى جعل البابوية مستقلة سياسيا واقتصاديا ، كما عمل على ازدياد زعامتها الروحية فى العالم المسيحى • ولكى يضع أساسا (متينا) للاستقلال الاقتصادى والسياسى ، قام بتدبير أمور الممتلكات البابوية فى ايطاليا • وحتى يقلل من اعتماد البابوية على أية قوة سياسية خارجية ، عمل على أن تصبح البابوية قوة تقوم

بدور الوساطة فى الصراعات الايطالية بين الملوك اللمبارديين والأباطرة البيزنطيين • ولكن مجهوداته لخلق قوة علمانية مستقلة لم تستنفد جهوده • اذ اكتسب جريجورى شهرته الفائقة كزعيم روحى • لقد كان موهوبا على وجه الخصوص فى تفسيره للعقيدة المسيحية بلغة تناسب عقلية الغرب الأوروبى • وأصبحت عظاته وشروحه على الكتاب المقدس، وتعاليمه الرعوية ، وكتاباته الملهمة ، جزءا أساسيا من التقاليد الدينية للغرب فى كل مكان ، مما ساعد على تعميق الحياة الروحية • كما أبدى اهتماما بصقل وتهذيب خدمة القداس المسيحى ، ووضع صيغة موحدة له • كما كان مسئولا عن توجيه جماعة من المرسلين الدينيين الى انجلترا الذين نجحوا ليس فقط فى كسب عدد كبير الى المسيحيـة (الغربية) ، بل وفى وضعهم تحت الزعامة الرومانية • وتحت قيادته تمتع الكرسى البابوى الرومانى بأولوية جديدة فى كل أنحاء العالم المسيحى • ومع ذلك ، فمن الواضح أن سياسة جريجورى الرامية الى وضع اللبنات الأولى لسلطة البابوية ، كانت خطوة فى سبيل تأسيس كنيسة غربية واحدة مستقلة • وكانت محاولاته للتخلص من الارتباط بالامبراطورية البيزنطية ، وكتاباته المبسطة باللغة اللاتينية ، وجهوده الحريصة الحذرة لربط الشعوب التى دخلت مؤخرا فى الديانة المسيحية بروما — كانت كلها ترمى الى ربط الزعامة القوية للبابوية بالغرب ، مع حصرها وتركيزها فى شخص بابا روما •

••

ومع أن أحدا من خلفاء جريجورى لم يستطع أن يحقق ما حققه هو الا أن الجميع واصلوا سياسته ، وأسهموا فى النهوض بالبابوية • كما أحرزوا فى ميدان التبشير نجاحا ملحوظا خلال القرن الثامن بين الجرمان القاطنين شرق نهر الراين • كذلك اهتموا اهتماما زائدا بأمر الاصلاح الروحى والأخلاقى ، وعلى وجه الخصوص داخل الكنيسة الفرنجية • وفضلا عن ذلك ، فقد حققت جهودهم فى سبيل تحديد العقيدة واعلان أسلوب موحد لممارسة الطقوس والشعائر الدينية قدرا كبيرا من النجاح

حتى لقد أصبح من المألوف التحدث عن مسيحية « رومانيـــة » خلال القرنين السابع والثامن للميلاد • ويتضح هذا النشـــاط البـــابوى فى مقاومتهم التى كللت بالنجاح للمراسيم اللاايقونية التى أصدرها الأباطرة البيزنطيون والخاصة بعدم الاعتراف بصور القديسين • وفى هذا المقام، كان استمرار تمسك خلفاء جريجورى بفكرته الخاصة باستقلال البابوية، أمرا له أهميته البالغة • ومع أن بابوات روما كانوا من الناحية الاسمية خاضعين لبيزنطة ، الا أنهم كانوا قـــادرين على الافـــلات من رقابتها الشديدة ، وذلك بتشجيع اللمبارديين على مناوشة الأباطرة البيزنطيين • ومع ذلك عندما ازداد انشغـــال الأباطرة بالمشكـــلات التى واجتهم فى الشرق ، وجد البابوات أنفسهم تحت رحمة اللمبارديين • واستطاعوا التخلص من سيطرتهم باقناع الفرنجة ببسط حمايتهم على البابوية•وكان هذا التحالف الذى ربط البابوات بالسياسة الغربية بشكل يصعب الفكاك منه ، حدثا له دلالته البالغة ، اذ أدى الى تقوية مركز البابوية فى غرب أوروبـــا •

وكان دور البابوية الكبير كقوة سياسية مستقلة وزعيمة الغرب فى الأمور الروحية ، قد سانده انتشار الرهبنة البندكتية مساندة عظيمـــة فكان النسك المسيحى الذى يتطلب التخلى عن الأمور الدنيوية لخدمة الله بشكل أفضل ، قد تأصلت جـــذوره فى الشرق مبكـــرا فى القرن الثالث الميلادى وكان قد ازدهر فى أشكال متعددة فى السنوات التالية • وكـــان هذا التجسيد للتقوى والورع المسيحى فى الغرب قد اتخذ طابعا فريدا جديرا بالاعجاب بفضل عبقرية القديس بندكت أوف نرسيا St. Benedict of Nursia (٤٨٠ — ٥٤٣ م) • فقـــد كان ابن احـــد النبلاء الايطاليين وتخلى عن وظيفة مرموقة فى الخدمة العامة ليصبح راهبا • وفى النهاية أسس ديرا فى مونت كاسينو Monte Cassino فى ايطاليا حيث وضع النظام البندكتى الشهير لتنظيـــم الحياة اليوميـــة لاعضاء جماعته • وينحصر جوهر هذا النظام فى الفكرة القائلة بأنه يمكن خدمة

الله على أحسن وجه بواسطة جماعة نذرت نفسها له ، بتكريس جهودها بين الصلاة والدراسة والعمل اليدوى . ولضمان أقرار النظام اللازم ، أعطى هذا القانون لرئيس الدين سلطة واسعة على جماعته . كما ألزم الرهبان بأن يقسموا بأن يعيشوا عيشة الفقر والعفة والتبتل و الطاعة ، وذلك بالامتناع كلية عن المسائل المادية والشخصية ، وعدم الانغماس فى الأمور السياسية للعالم الخارجى ، مع اطلاق حريتهم فى تركيز جهودهم على العمل داخل الدير وعبادة الله .

وقد سارت جماعات رهبانية أخرى على نسق النظام البندكتى فى معظم أرجاء الغرب الأوروبى خلال القرون السادس والسابع والثامن الميلادية . وبذلك تشكلت صفوة مختارة من « جند المسيح » الذين اضطلعوا بخدمات لاتحصى فى المجتمع المتبربر الذى كانوا يعملون فيه . وربما كان أهم هذه الخدمات هو النموذج الذى وضعه الرهبان البندكتيين للتقوى والصلاح . اذ أعدوا على وجه الخصوص للقيام بدور قيادى فيما يتعلق بمسألة الاصلاح الدينى . كما عملوا على توجيه الأوروبيين الضالين الى كيفية أداء القداس الرومانى على الوجه الصحيح ، وقاموا بدور كبير فى نشره . وخدموا كمدرسين ينقلون الى الأميين تفهما أعمق لأسس العقيدة المسيحية . كما قاموا باعادة تنظيم أوجه النشاط المتعلقة بأعمال الخير والاحسان . كذلك عملوا ، وهم بصحبة الانجيل ، على نشر المعارف والمهارات الفنية بين جيرانهم الوثنيين . وكانت اقطاعياتهم الديرية المنظمة تنظيما حسنا ، نماذج طيبة للفلاحة الجيدة . وكانت كل هذه التطورات نتيجة لطابع النظام البندكتى الخاص ، مع الاصرار على مراعاة الاعتدال والاتزان والنظام . وربما تفوق الزهاد والنساك فى الشرق على البندكتيين فى المقدرة على تحكمهم فى انكار الذات والبعد عن الملذات الجسدية . مثال ذلك الجلوس على قمة عمود مدة ثلاثين عاما كما فعل القديس سمعان العمودى St. Simon Stylites أو فى تفهم المسائل المعقدة فى علم اللاهوت المبكر . ولكن عظمة البندكتيين

تكمن فى مقدرتهم التى انفردوا بها فى حل المشكلات الدينيـــة الخاصة بالغرب •

وعلى العموم ، كان هـــذا العصر عصر نشاط خـــلاق وملحوظ فى الغرب المسيحى • وقد بدأ بتأسيس كنيسة غرب اوروبا التى تمكنت من البقاء فى اتجاهها الصحيح • وبطبيعة الحال ، لم يتخل أحد عن الايمان الحقيقى بوجود رابطة عالمية للمسيحيين • ولكن بدا واضحا أن القوى المنشقة فى هذا العصر كانت تعمل على تفتيت المسيحية العالمية • كمـــا أخذت تشجع الانفصال الكنسى ، بحيث أصبح لكل كنيسة كيانها ونظمها الخاصة بها •

التطور الثقافى

وفى غمرة المشاكل والصعاب التى حلت بالغرب الأوروبى بعد عام ٦٠٠ م ، لم يكن مستغربا أن تتدهور الفنون والآداب • فقد تميز القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد ، على وجه العموم ، بهبوط مستوى الحياة الثقافية فى الغرب • وكانت بقايا الثقافة اللاتينية قد أهملت اهمالا شديدا ، ولم يحل محلها نشاط جديـــد • وكان وطاة النظـــام المتبربر والفوضى السياسية والعنف والانعزالية والفقر شديدا عـــلى المجتمع ، بحيث لم يعد ثمة مجال لأى نشاط مبدع خلاق • ولهذا السبب عرفت هذه الفترة باسم « العصور المظلمة » •

ومع ذلك ، فمن الضرورى حصر هذه العموميات لانه وجدت بعض الايجابيات ، ومن بينها الجهود التى بذلت للاحتفاظ بجانب من الثقافة الكلاسيكية • فقد قام الرهبان البندكتان ، الذين ساروا بهمة على نهج مؤسس جماعتهم فيما يتعلق بالدراسة بنسخ أعمـــال الكتاب القدامى ومؤلفات آباء الكنيسة لتزويد مكتباتهم الصغيرة بها • ولاستخدام هذه المؤلفات والافادة منها ، احتاجوا الى تعلم اللغة اللاتينية•ولذلك وضعوا

كتبا دراسية بسيطة لدراسة اللاتينية • كما أسست المدارس لتعليم المعارف الأولية التى يحتاج اليها الرهبان لمتابعة دراستهم • ولذلك تم الاحتفاظ برابطة ضعيفة واهية بالعالم القديم الذى كان يلفظ آخر أنفاسه • وهذه حقيقة لها أهميتها الكبرى بالنسبة للغرب الأوروبى فى فترة متأخرة • اذ استطاع أفراد قلائل فى ظل ظروف طيبة وملائمة ، وبخاصة داخل الأديرة البندكتية التى تأسست أخيرا «الدراسة والكتابة» وفى بدايات القرن السابع الميلادى أخرجت اسبانيا رجلا بارزا فى أمور العلم والتعليم هو ايزيدور Isidore أسقف اشبيلية Seville وبالاضافة الى المقالات الهامة فى اللاهوت التى كتبها ايزيدور ، فقد جمع دائرة معارف ضخمة أطلق عليها اسم « الاشتقاقات » «Etymologies» وهى تشتمل على شذرات من المعرفة مستقاة من عدد كبير من مؤلفات الكتاب القدامى ، وتعالج الكثير من مختلف الموضوعات • وظلت دائرة المعارف هذه هى المنهل العام للمعرفة بين طلاب العلم فى كل أنحاء الغرب لعدة قرون•كما أنه أمكن بثحياة ثقافية لامعة فى الأديرة الايرلندية فى هذه الفترة • فقد كان بوسع طلاب العلم الايرلنديين إستخدام اللغة اليونانية التى كانت قد زالت من كافة أرجاء الغرب منذ زمن طويل • وتمثل المخطوطات الايرلندية المصورة التى ترجع الى هذا العصر آيات الفن الرفيع فى العصور الوسطى المبكرة • وعن طريق الارساليات الدينية ، تم نقل جانب من حماسة الايرلنديين للعلم الى انجلترا • وفى أخريات القرن السابع واوائل القرن الثامن برز فى أديرة انجلترا عدد كبير من طلاب العلم الذين ألفو كتبا فى التاريخ والجدل اللاهوتى والشعر وتفسير الانجيل وبعض النبذ العلمية • وكان بيده Bede أشهر طلاب العلم الانجليز • وكان تأثيره ملحوظا فى جميع أنحاء الغرب • فكتابه المعنون « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » الذى يتتبع فيه قيام المسيحية فى انجلترا ، يزود القارىء بصورة مستوفاة تماما للحياة فى المجتمع الغربى شبه المتبربر فى القرنين السادس والسابع وأوائل القرن الثامن الميلاد • كما أنه يمثل نموذجا رفيعا لمستوى الدقة البالغة والأسلوب

الأدبى الجيد • وقد حالت هذه الجزر التى كانت مراكز اشعاع للنشاط الفكرى والأدبى • دون اصابة الحياة الثقافية فى الغرب بالعقم التام • كما أدت دورها باعتبارها قاعدة ارتكزت عليها الانجازات الثقافية فيما بعد •

وكانت سيطرة الكنيسة (اللاتينية) على الحياة الفكرية الضعفية فى غرب اوروبا ، فى حد ذاتها ، تطورا حيويا • ذلك لأن طلاب العلم من رجال الكنيسة والأديرة ، اقتبسوا رغما عنهم مظاهر الثقافة الكلاسيكية القديمة التى تتفق ومفاهيمهم الدينية والأخلاقية ، بينما أهملوا كل ما هو دنيوى • كذلك كرسوا جهودهم الخلاقة للأمور الدينية ، فى الوقت الذى اغفلوا فيه الموضوعات الأخرى المتعلقة بالفكر والفن والأدب • ومع مرور الزمن كان هذا النشاط الفذ قد طبع الثقافة بصفة نهائية بطابع مسيحى وكهنوتى ، وجعل الكنيسة تحتكر بشكل فعال فحوى ومضمون التطور الثقافى الذى أصبح مميزا لحضارة أوروبا الغربية لعدة قرون •

وان العالم الذى كان جريجورى الكبير يتوقع له شرا ، وجد فيما بين عامى ٦٠٠ و ٧٥٠ م توجيها جديدا ، بعد أن تلمس كل فرد فيه موقع قدميه • اذ انقسم التراث الرومانى الى ثلاثة أقسام : أحدها بيزنطى، والآخر اسلامى ، والأخير أوروبى غربى • وكان كل قسم منهـا يحوى قوى حيوية جديدة لم يكن يحتويها الاطار القديم الذى أصابه الضعف الشديد نتيجة المساوىء الداخلية • وكانت القوى الجديدة جياشة فائرة لدرجة أنه فى عام ٧٥٠ م كان قد تقرر بصفـة مطلقة مصـير التطور التاريخى ، مع أنه تم وضع اللمسات الأولى للاتجاه الذى سوف يسلكه• وعلى أية حال ، فان هـذا التغيير الكبير لم يقتلع التقاليـد اليونانية الرومانية من جذورها ، لانـه كانت تكمن فى كل من هـذه الحضارات الجديدة النظم والأفكار القديمة التى قدر لها أن تمد عجلـة التطور فى المستقبل بغذاء حيوى •

الفصل الثانى

نهضة الغــرب

قيام الأسرة الكارولنجية ، وعظمتها باعتبارها قوة عالمية (٧١٤ ــ ٨٤٠) :

أصل الأسرة الكارولنجية .
ببن القصير (٧٤١ ــ ٧٦٨ م) .
شارلمان (٧٦٨ ــ ٨١٤ م) .
لويس التقى (٨١٤ ــ ٨٤٠م) .
طبيعة المجتمع الكارولنجى .

الدولة الاسلامية فى ظل الخلفاء العباسيين الأوائل :

العباسيون الأول (٧٥٠ ــ ٨٤٧ م) والخلافة الجديدة .
عالمية الاسلام .
تطور الثقافة الاسلامية .

بيزنطة فى العصر اللاأيقونى (٧٤١ ــ ٨٤٣ م) :

الحركة اللاأيقونية ، والسياسة ، والدفاع .
الحضارة البيزنطية فى العصر اللاأيقونى .

حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى بدا فى الأفق ، مرة أخرى ، قدر ملحوظ من الاستقرار السياسى فى البلاد المحيطة بالبحر المتوسط • وكان الجرمان والسلاف والآفار والبلغار والعرب هم أنشط القوى خلال الفترة السابقة للتحول السريع • وقد أنزلوا جميعا بالعالم المتمدين ضربات قوية • وعندما حل عام ٧٥٠ م كانت غزواتهم قد تم كبحها ، وتوارى الخطر الذى كان يهدد الحضارة بالانهيار التام • وكان دور البيزنطيين فعالا ومؤثرا فى احتواء هذه الهجمات على وجه الخصوص • وكانوا قد أنقذوا امبراطوريتهم بالاحتفاظ بقوتهم والعمل على تنظيمها• وفى أواسط القرن الثامن الميلادى وقفوا حاجزا منيعا ضد المزيد من غزوات البرابرة • وفى نفس الوقت كف الغزاة عن التهديد • وكان العرب ، وهم أقواهم جميعا ، قد أظهروا من الدلائل ما يكشف عن تحولهم عن سياسة الهجوم ورغبتهم فى الاستقرار فى الأماكن التى كانوا قد استولوا عليها • كما بدت الدول الجرمانية المختلفة (التى استقرت) فى غرب اوروبا أقل تهديدا لما أصابها من التفكك السياسى والفقر الاقتصادى والجهل الثقافى والتخلف المعنوى • وبدت بما لا يدع مجالا للشك غير قادرة على الاخلال بحالة التوازن فى منطقة البحر المتوسط •

ومع ذلك ، فان الاستقرار المنشود لم يصبح أمرا واقعا وثابتا • لقد اهتز فجأة وبعنف ميزان القوى الجديد فى حوض البحر المتوسط حوالى عام ٧٥٠ م بتفجر قوة حيوية فى غرب اوروبا • وكان وراء تحول مملكة الفرنجة الى قوة كبرى على يد الأسرة الكارولنجية تطورات اجتماعية ودينية وثقافية ، أوضحت أن النفوذ المتزايد للغرب كان أكثر من مجرد ازدهار للقوة المجردة التى أبداها السادة الجرمان فى حروبهم• وكان دور الكنيسة ، على وجه الخصوص ، له دلالته وأهميته فى امداد الغرب بالقوة • وأخيرا ، أصبح الغرب الأوروبى ، تحت الزعامة الكارولنجية ، على وعى بمميزاته وخصائصه ووحدته • وحاول جاهدا أن يعبر عنها فى نظمه الخاصة •

ولقد لقى الانهيار الـذى أصاب روح التوسـع العسكرى بين المسلمين بعد عام ٧٥٠ م ، ترحيبا من أعداء العرب القدامى ، وبصفة خاصة « روما الثانية » الواقعة على البسفور • وطـرأ على المجتمع الاسلامى تغييرات داخلية جذرية أدت الى خلق حضارة عامة حلت محل المجتمع العربى المتمسك بعصبيته فى عصر الغزو البطولى • ومع ذلك ، فقد ألقى بريق الحضارة الاسلامية الجديدة الظـلال على دور بيزنطة كرائدة للثقـافة العالمية • وتحـدى الغرب الأوروبى تحت الزعـامة الكارولنجية الدولة البيزنطية مرارا ، وتجاهل ادعـاءاتها المهزوزة فى السيادة على العالم المسيحى سياسيا ودينيا • وهكذا ، بينمـا كانت الفترة الواقعة فيما بين عامى ٦٠٠ ، ٧٥٠ م تتميز ـ أساسا ـ بتقلص حجم العالم البيزنطى ، شاهدت الفترة الممتدة من عام ٧٥٠ الى عـام ٨٥٠ م تناقصا مماثلا فى هيبة بيزنطة ومكانتها •

قيام الأسرة الكارولنجية ، وعظمتها باعتبارها قوة عالمية (٧١٤ ـ ٨٤٠م)

بعد موت شارلمان عام ٨١٤ م بفترة قصيرة خلدت ذكرى انجازاته بهذه العبارة التى كتبت على ضريحه « فى هذه المقبرة يرقد جثمان شارل الامبراطور العظيم السديد الرأى الذى جعل مملكة الفرنجـة بشهامة وشرف مملكة واسعة ، وحكم بنجاح لمدة سبعة وأربعين عاما ••• » لقد لخصت عبارة المديح هذه بدقة الملامح الأساسية للمنجزات التى حققها جميع الكارولنجيين الأوائل • وان تاريخ الغرب الأوروبى منـذ أوائل القرن الثامن وحتى حوالى عام ٨٤٠ م ماهو ، فى المقام الأول ، سوى قصة تروى كيف أصبحت أسرة جديدة دولة « عظيمة » فى نظر العالم، نتيجة الفتوحات التى حققتهـا ، والحكومة الرشيدة الناجحـة (التى أقامتها) ، والتأييد القوى الذى قدمته للعقيدة الحقة •

أصل الأسرة الكارولنجيـة

سبق أن ذكرنا أن الأسـرة الميروفنجية فى مملكـة الفرنجة قد

اضمحلت خلال القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد ، حتى أصبح ملوكها يلقبون بحق بأنهم الملوك الذين « لا يفعلون شيئا » • وقبل أن يحل غيرهم محلهم بصفة رسمية ، كانت السلطة قد اغتصبت منهم بقيام الأسرة الكارولنجية • فبعد أن أصبح للكارولنجيين السيادة فى القرن السابع الميلادى بالحصول على أراض شاسعة فى اوسترازيا Austrasia سرعان ما حققوا لأنفسهم مكانة تفوق تلك التى تمتعت بها أى أسرة أخرى شريفة ، وذلك بوضع نظام يتوارثون بمقتضاه وظيفة رئيس البلاط فى خدمة الحكام الميروفنجيين فى تلك المملكة الصغرى الواقعة فى الجزء الشمالى الشرقى من مملكة الفرنجة • وكانت المسئولية الرئيسية لهذه الوظيفة هى ادارة الأراضى الملكية وتنظيمها • وعمل الكارولنجيون عن طريق الاستغلال المخطط لهذه الوظيفة لفترة غير قصيرة من الزمن لما فيه مصلحتهم ، على تكوين فئة موالية لهم • وبعد أن منح أمراء السراى الكارولنجيين قطعا من الأراضى الملكية لنبلاء اوسترازيا مقابل تأييدهم المخلص لهم ، نجحوا فى لحصول على ولاء هؤلاء النبلاء بما يفوق ولاءهم للملوك (الميروفنجيين) الضعاف •

وبعد ذلك ، أخذ رؤساء البلاط الطموحون ينزلون قواتهم فيما وراء اوسترازيا للاشتراك فى الصراع الذى نشب بين مختلف أفراد الأسرة الميروفنجية • وكان النجاح فى هذه المغامرة حليف بين هريستال Pepin of Heristal • وهو أول كارولنجى برز فى التاريخ بشكل واضح • وبعد أن جعل من نفسه بطلا على اوسترازيا أمام الملك الميروفنجى الذى كان فى خدمته كرئيس للسراى ، أعلن بين الحرب ضد رئيس البلاط فى مقاطعة نويستريا Neustria الذى عمل على رفع مكانة فرع الأسرة الميروفنجية المالكة الذى ينتمى اليه • وفى عام ٦٨٧م تمكن بين بفضل الانتصار العسكرى الحاسم الذى أحرزه من السيطرة على نويستريا ثم على برجنديا • ولم يحل النصر الذى حققه بين دون تفتت الدولة ، كما أنه لم يؤد الى اعادة وضع نظام سياسى

موحد فحسب ، بل مكنه هذا النصر أيضا من أن يصبح رئيس البلاط للمملكة الميروفنجية التى أعاد توحيدها •

وأحرز الكارولنجيون تفوقا جديدا تحت زعامة شـــارل مارتل بن

ببن ، والذى شغل وظيفة رئيس السراى فى الفترة الواقعـــة بين عامى ٧١٤ و٧٤١ م • ويلخص لقب شـــارل وهو « مـــارتل » الـــذى يعنى « المطرقة » سياسته تلخيصا رائعا • ذلك لأن شارل كان محاربا غليظ القلب سحق كل مقاومة داخلية لسلطة الملك ، ودفع المهاجمين الأجانب عن البلاد • وكان ضحاياه الأساسيون داخل حدود مملكـــة الفرنجة يتمثلون فى تلك العـــائلات الشريفة العظيمة التى تحدت سلطـــة التاج واستهانت بها • ومع أن الكارولنجيين أنفسهم كانوا قـــد وصلوا الى السلطة أخيرا باغتصاب نفوذ ملوكهم وثرواتهم ، فـــان أسرتهم تحت قيادة مارتل وجهت سياستها نحو حماية تشوبها الغيرة والحماسة للسلطة الملكية ضد مطامع النبلاء • وفى سبيل اخضاع النبلاء وحماية الحدود ، ركز شارل مارتل القوة العسكرية فى قبضته بوصفه رئيسا للسراى • وكانت مشكلة الدفاع معقـــدة نتيجة التغير الذى طـــرأ على أساليب الحرب والقتال ؛ حيث استبدل المشاة بالفرسان الذين يرتدون الدروع كعنصر أساسى فى الجيش • واستطاع شارل حل المشكلتين الأساسيتين اللتين ارتبطتا بالتحول العسكرى ، وذلك بتكوين جماعة من الأفصال المخلصين الذين أقسموا يمين الولاء والاخلاص للملك ورئيس بلاطه ، ووهبهم هبات كبيرة من الأرض التى استولى على بعضها من (أملاك) الكنيسة •

ولم يكن المقصود بالأرض ربط النبلاء بالملك ، ولكن لتمكنهم من مواجهة النفقات الباهظة — فى ظـــل الظروف الاقتصادية السائدة — لعلف جيادهم ، ولتكريس أنفسهم تمامـــا للتدرب عـــلى فنون الحرب الصعبة من فوق ظهور الجياد • وفى النهاية احتفظ النبلاء بالأرض طالما ظلوا مخلصين فى أداء الخدمات الباهظة التكاليف التى يدينون بها • وقد

حالف شارل التوفيق فى تطوير القوة المحاربة بعـد الثورة التى شملت فنون الحرب ، حتى أنه بات بمقدوره احـراز انتصارات حاسمة على أعدائه ومنافسيه الأجانب الأقوياء • وكان أشهر انتصار له فى عام ٧٣٢م بالقرب من مدينة تورز عندما ألحق الهزيمة بفرقة اسلامية مغيرة •كما أحرز انتصارات باهرة مماثلة على السكسون والفريزيين الوثنيين الذين هددوا الحدود الشمالية الشرقية للملكية • وكان شارل فى أواخر حياته يتمتع باحترام كبير فى كل مكان•ومع أنه كان لايزال رئيس البلاط،الاأنه استخدم سلطته الشخصية فى ادارة شئون المملكة وفقا لما يراه مناسبا وفى الحقيقة ، كان الكارولنجيون هم سادة دولة واسعـة ، على الرغم من أنهم لم يضعوا التاج بعد فوق رءوسهم •

ببن القصير (٧٤١ — ٧٦٨ م)

تمتع الكارولنجيون بمكانة كبيرة متزايدة فى عهد خليفة شارل مارتل المدعو ببن القصير • ولم يتخل ببن لحظة واحـدة عن سياسة مارتل الخاصة بالقمع القاسى العنيف لأولئك الذين قاوموا السلطة المركزية أو تهاونوا فى أمر الدفاع القوى لحدود الدولة ، حتى نجح فى توسيع نطاق السياسة الكارولنجية فى عدة اتجاهات هامة •

وربما كان أعظم ما قام به هو تأييده النشط لأكبر القوى الدينية تقدما فى هذا العصر • فلقد جعل حكـام الفرنجة من أنفسهم حمـاة للمسيحية كتقليد جروا عليه • ومع ذلك ، فان الجهود الميروفنجية فى هذا السبيل لم تأت بأطيب النتائـج • وشجعت سياسـة الملوك نمو كنيسة فرنجية وطنية لم تربطها ببقية العالم المسيحى سـوى أوهن الروابط • كما ساعدت هذه السياسة على اضفاء الطابع العلمانى على وظائف الكنيسة وممتلكاتها • فكانت النتيجة أن تغلغل الفساد فى الحياة الدينية حتى بلغ درجة مخزية فى أوائل القرن الثامن الميلادى • ولكن الكارولنجيين أبدوا منذ اللحظة التى استحوذوا فيهـا على السلطة ميلا

لمساعدة الكنيسة فى حل مشاكلها . فقدم ببن هريستـال وشارل مارتل وكارلومان Carloman ، وهو أخو ببن القصير الذى شاركه فى وظيفة رئيس السراى لفترة قصيرة ـ قدم هؤلاء جميعا تأييدهم الفعال للجهود التى كانت تبذلها الارساليات الدينية . كذلك قدم كل من شارل مارتل وكارلومان يد العون الى بونيفاس ، وهو من جماعة الرهبان البندكتان الانجليز ، فى جهوده التبشيرية لتنظيـم الأسقفيات ورسامـة الكهنة وتأسيس الأديرة فى البلاد التى دخلت فى المسيحية مؤخرا ، والواقعة على طول الحدود الشرقية لمملكة الفرنجة . وتمسك ببن بهـذا التقليد ، فاتخذ الخطوات الأولى لبدء الاصلاح الدينى . وعمل ببن بتوجيـه من بونيفاس الذى كان ينفذ أوامر البابوية ، على تقوية التنظيم الكنسى ، والنهوض بمستوى الكهنة ، والقضاء على الطقوس الوثنية ، وتعميق التقوى المسيحية . ونتيجة لذلك بدأت البابوية تتمتـع بدور أكبر فى شئون مملكة الفرنجة . وبالرغم من أن مسألة اصلاح الكنيسة الفرنجية كانت عملا أكبر من أن يتم فى بضـع عشرات من السنـين ، الا أن ببن وأسرته بدوأ فى الحال يكتسبون مكانة بوصفهم خداما للدين . وبذلك أضافوا شرفا جديدا له أهميته ، الى جانب الصيت الذائع الذى اشتهروا به من قبل كمقاتلين ورجال ادارة .

ولقد قطعت سياسة ببن الدينية شوطا أبعد من تحمـل مسئولية اصلاح شأن الكنيسة الفرنجية . فقد حمل على عاتقه قبل نهاية حكمه عبء حماية البابوية ، وهى مسئولية تحمل بين ثناياها حمايـة العالم المسيحى فى كل أنحاء الغرب . وقام التحالف بين روما والفرنجـة من واقع حاجتهما المتبادلة للمساعدة . وربما كانت حاجـة البابوات أكثر الحاحا . فقد كانت البابوية تتطلع منذ عصر جريجورى العظيم (٥٩٠ ـ ٦٠٤ م) الى درجة ، من الاستقلال الدنيوى فى ايطاليا كسند وركيزة لزعامتها الروحية واعتمدت قوتها السياسية التى كان بوسعها حشدها ، الى حد بعيد ، على ممتلكاتها فى ايطاليا . ومع ذلك ، لم يبلغ البابوات درجة من القوة تسمـح لهم بالاحتفـاظ لأنفسهم بتلك الممتلكـات .

فاضطروا الى الاعتمـاد على حمـاية قوة خارجية • وكـان الأباطرة البيزنطيون يقومون بدور الحماة للبابوية لمدة قرن من الزمان بعد بابوية جريجورى • وسمحوا للبابوية بقدر كبير من الحريـة فى التصرف فى شئونها فى روما والأقاليم المحيطة بها مباشرة • وفى نفس الوقت كبحوا جماح اللمبارديين المعتدين الذين كانوا يهددون بصفة مستمرة الأراضى الايطالية التى يملكها الأباطرة والبابوات • وسعى البابـوات من وقت لآخر لتحسين مركزهم باثارة اللمبارديين ضد البيزنطيين • ومع ذلك ، فقد اعتمدوا بصفة عامة على القسطنطينية لحمايتهم • وفى أوائل القرن الثامن الميلادى بدأ هذا الوضع يتهاوى • فقد وجد الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا يترنحون تحت ضربات المسلمين ، أنه من العسير عليهم أن يفوا بدورهم التقليدى فى ايطاليا • واضطروا الى التخلى عن البابوية شيئا فشيئا ، تاركين اياها تحت رحمة اللمبارديين • وأخـيرا ، عندما أدانت البابوية بعد عام ٧٢٦ م الحركة اللاأيقونية التى أقرها الأباطرة البيزنطيون ، أصبح التعاون بين البابوية والأباطرة أمرا مستحيلا • ولم يتباطىء اللمبارديون فى أنتهاز فرصة ضعف البيزنطيين ، والصـراع الدينى الذى نشب بين روما والقسطنطينية ، للاستيلاء عـلى ممتلكات البابوية فى ايطاليا •

وعندما واجه البابوات التهديد اللمباردى ، ووجدوا أنـه من غير المستطاع الاعتماد على حماتهم التقليديين ، تحولوا رغما عنهم الى امراء السراى الكارولنجيين الذين كانوا قد أبدوا بالفعل ميلا نحو البابوية فى ميدان التبشير والاصلاح • ولم يستجب شارل مارتل لاستغاثة البابا فى طلب المساعدة العسكرية لأول مرة • ولكن ببن كان يختلف عنه فى الرأى • وربما وجد أنه من الصعب مقاومة البابوات الذين أعلنوا للعالم كله فى عام ٧٤٠ م أن ببن هو الوحيد الذى يستطيع انقـاذ استقلال كرسى القديس بطرس والأراضى التابعة له •

كذلك كانت لببن مشاكلـه الخاصة التى تتطلـب معاونة أسقف

روما . فقد كان لايزال أمير البلاط الوحيد ، وعليه خدمة ملوك لايفعلون شيئا ، بينما يقوم هو بالحروب ، ويحافظ على الأرض والسلام ، ويعمل على النهوض بالدين الحقيقى . وكان تغيير هذا الوضع الذى لا يقبله العقل يستلزم مجازفة خطيرة عند اعلان العصيان . فلقد اعتقد الفرنجة، شأنهم شأن جميع العناصر الجرمانية ، أن الله قد أضفى قدسية خاصة على أولئك الذين يسرى الدم الملكى فى عروقهم ، وأن منح التاج لغير أعضاء الأسرة المالكة انما يعتبر انتهاكا لحقوقهم ، وتدنيسا للأمور المقدسة . ولم يكن الكارولنجيون من سلالة يجرى فيها الدم الملكى . ولذا لم يتصور أحد وفقا للتقاليد ومقتضيات الأمور خلع ملك ميروفنجى حتى ولو لم يكن يفعل شيئا ، واختيار شخص حديث النعمة مثل بين ليصبح ملكا . كما لم يكن استخدام العنف والقوة وسيلة كافية لتنفيذ هذا التغيير . ولذلك حاول بين البحث عن قوة تضفى بموافقتها على عمله الصبغة الشرعية اللازمة ،وتلقى القبول والموافقة التامه. وبدا أن أسقف روما هو الشخص الوحيد الذى تتوفر فيه الشروط المطلوبة . لذلك أرسل بين فى عام ٧٤٩ م مندوبا عنه الى روما يطلب رأى البابوية فيما يتعلق بتغيير الأسرة الحاكمة . فأجاب البابا « انه من الأفضل أن يكون لقب الملك للرجل الذى يتمتع بالسلطة الحقيقية ، بدلا من الرجل الذى يحمل مجرد اللقب ولكنه لا يملك السلطة » . واعتمادا على هذه الموافقة اختار نبلاء الفرنجة بين ملكا عليهم عام ٧٥١ م . وقام بونيفاس رسول البابا بمسح الملك الجديد بالزيت المقدس . وربما كان هذا الاحتفال الذى لم يقم الفرنجة بشعائره من قبل مستمدا من الآية الموجودة فى التوراة والتى تصف صموئيل وهو يمسح شاول بالزيت . وكان هذا معناه بالنسبة المعاصرين أن بين كان أكثر من ملك بالمعنى القبلى القديم . اذ كان ملكا بفضل الله . وهكذا ارتفعت هيبة الكارولنجيين الى مستويات عالية جديدة . فقد أصبحوا ملوك الفرنجة بدلا من كونهم أمراء البلاط ، وجاء تعيينهم من أكبر سلطة كهنوتية فى العالم المسيحى . وهكذا أصبحوا بضربة واحدة يتمتعون بمركز فريد بين حكام الغرب قاطبة .

وازداد التحالف بين البابوات والكارولنجيين توثقا خلال السنوات التى تلت مباشرة تقلد بين العرش ، كما ازداد شدة الضغط اللمباردى على الممتلكات البابوية ، وأخيرا بلغ هذا الضغط مداه عام ٧٥١ م بالاستيلاء عنوة على ممتلكات الدولة البيزنطية فى شمال ايطاليا ، والهجوم المباشر على روما ، وفى حالة من اليأس قام البابا ستيفن الثانى (٧٥٢ — ٧٥٧ م) برحلة محفوفة بالمخاطر عبر جبال الألب فى منتصف فصل الشتاء ، وعندما وصل البابا الى غاله فى اوائل عام ٧٥٤ م استقبله بين بكل اجلال و احترام ، وبعد سلسلة من المباحثات أكد بين استعداده لمساعدة البابا ، وفى حفل كنسى مهيب كرس البابا ستيفن بنفسه الملك الفرنجى وزوجته الملكة وأولاده ، وبدا واضحا انه حاول بذلك أن يزيد من هيبة العائلة المتوجة حديثا ، وفى مقابل ذلك قطع بين على نفسه وعدا باستعادة أراض معينة فى ايطاليا كانت البابوية تطالب باعتبارها غيرها ، ولكن هذه الأراضى ليست معروفة الآن بالضبط ، ومن الواضح أن ستيفن قد واجه بين بالهبة الشهيرة المعروفة باسم هبة قسطنطين ، وأن هذه الوثيقة التى يحتمل زيفها حتى تلائم المناسبة ، قد جمعت من الأساطير المتداولة فى القرن الثامن الميلادى ، ومضمونها أن (الامبراطور البيزنطى) قسطنطين (الكبير) أصدر مرسوما فى الوقت الذى نقل فيه عاصمته الى القسطنطينية عام ٣٣٠ م ، جاء فيه أن الامبراطور قد خول البابا سلطة كاملة فى حكم الغرب الى جانب ممتلكاته الخاصة فى روما وايطاليا ، ولما كان بين على مايبدو قد وعد باستعادة هذه الأراضى بشكل ما، فقد أكمل البابا الترتيب الجديد بمنحه لقب «حامى الرومان» ، وكان هذا اللقب اللاتينى وهو «Patricius» يعنى فيما مضى الموظف البيزنطى الذى يملك سلطات معينة فى روما وفى بعض مدن الامبراطورية الأخرى ، ولا يمنح هذا اللقب سوى الامبراطور ، ولم تكن لدى ستيفن بالطبع أية فكرة تتعلق بجعل بين ممثلا لبيزنطة ، ولكنه بالأحرى كان ينتحل لنفسه بوصفه بابا سلطة الامبراطور فى منح الألقاب ، وفى الدلالة على أن بين قد أصبح الآن حاميا للبابوية والشعب الرومانى ، وربما

كان المقصود من اللقب الدلالة ضمنا على أن الملك الفرنجى هو حامى كل أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة الرومانية •

وقام ببن فى الحال بالوفاء بما تعهد به من التزام نحو البابوية • وبالرغم من احجام بعض نبلائه وتبرمهم ، فقد قام بحملتين عسكريتين ضد اللمبارديين فى عامى ٧٥٥ ، ٧٥٦ م بهدف حماية الأراضى التى طالب بها البابا • وأهدى ببن البابا ستيفن أثناء الحملة الأولى وثيقة عرفت باسم « هبة ببن » ، التى طالبت اللمبارديين باعادة أراض معينة تقع على وجه التقريب بين رافنا وروما • وقد وضع هذا الاجراء ، فى نظر الغرب على الأقل ، أساسا شرعيا للدويلات البابوية ، مــع أن معظم الأراضى التى تضمنتها كانت فى الواقع من أملاك الدولة البيزنطية • ومن الواضح أن كلا من ببن وستيفن لم يهتم بحقوق الامبراطور ، ولو أن سفارة من القسطنطينية عارضت هذا الاجراء •

وقد أدت الأحداث التى وقعت فيما بين عامى ٧٥٤ ، ٧٥٦ م الى ازدياد روابط الصلة بين البابوية والبيت الكارولنجى • فالكارولنجيون يدينون بتاجهم الى مباركة البابا لهم • كذلك كانت الدويلات البابوية التى تعتبر فاتحة للاستقلال البابوى مدينـــة بوجودهـــا الشرعى للملك الفرنجة • فقد استبدل البابوات حماتهم البيزنطيين بالحماة الفرنجة ، وكسبوا من وراء هذا التغيير المطالبة بالأراضى البيزنطية (فى ايطاليا) ووضع اليد عليها • وقد قدر لتحـــالف البابوية مع الفرنجـــة تحديد سياستها لفترة طويلة لاحقة •

وبعد عام ٧٥٦ م كانت سياسة ببن فى ايطاليا أقل حسما وحيوية• وأخذ البابوات فى الفترة الباقية من حكمـــه يستعطفونه بدون انقطاع للتدخل بشكل أكثر حسما (لصالحهم) ، ولكن دون جدوى • وباخفاقه فى ابعاد اللمبارديين كعامل مؤثر فى الشئون الايطالية ، ترك ببن البابوات فى وضع غير مستقل • ويحتمل أنه كان فى نفس الوقت مشغولا للغاية

بمصير ايطاليا والبابوية أكثر مما حققه بالفعل • وكان ذلك بصفة خاصة بسبب تصرفاته العفوية فيما يتعلق بالألقاب والأراضى البيزنطية • وعلى أية حال ، ليس هناك من شك فى أن أعماله قد غيرت بطريقة جذرية دور الكارولنجيين • وبافادة ببن من مباركة البابا التى ساعدته علـى تغيير وضعه من خادم للملك الى ملك ، انشغل هو وخلفاؤه فى اصلاح حـال الكنيسة الفرنجية لتكون على نسق الكنيسة الرومانية ، كما انشغلوا فى حماية البابوية وأراضيها فى ايطاليا • ولم تستطع أى أسـرة حاكمة اخرى فى غرب اوروبا أن تدعى القيام بمثل هذا الدور الشامخ المجيد •

شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م)

لم يصل شارل العظيـم ابن ببن بالأسرة الكارولنجية الى أوج مجدها فحسب ، بلأعطاها أيضا اسمها • وقد حقق شارلمان نجاحا فى كل المغامرات التى قام بها ، مقتفيا فى ذلك السياسة التى وضعها من قبـل كل من شارل مارتل وببن•فقد وهبه الله شخصية مليئة بالنشاط ومواهب هائلة ، وتأثر به جميع معاصريه الى حد بعيد • وكان لبنيانه القوى ، ونشاطه الذى لاحدود له ،وشجاعته الشخصية أثره فى أن يصبح الزعيم الطبيعى للمحاربين الفرنجة الذين كانوا العمـد الرئيسية التى يرتكز عليها ، وذلك بصرف النظر عن ولعه بالصيد وحبه لولائم البلاط • كما كانت تقواه الزائدة التى تكشف عنها مواظبته على حضـور الخدمات الدينية ، واهتمامه الحقيقى برفعة الكنيسة ، سببا فى جعلـه شخصا عزيزا لدى هيئة رجال الدين • وكان وفقا لمعايير عصره شخصا متعلما تعليما جيدا بالنسبة لرجل علمانى • فكان يجيد اللغـة اللاتينية قراءة وكتابة ، الأمر الذى جعله يستمتع بصحبة العلماء الذين تجمعـوا حوله فى قصره الرئيسى بمدينة آخن •

لقد أكتسب شارل العظيم شهرته ومجده كفاتح فى المقام الأول• ففى ربيع كل عام من سنى حكمه تقريبا كان شارل يستدعى كبار نبلائه

للاجتماع به فى أحد مقار اقامته • وكانوا يحضرون وهم مسلحين مستعدين لخوض غمار حملة من حملاته • وبعد اشراك رجال الدين معه فى الأمور السياسية التى يعرضها على بساط البحث ، يبدأ المحاربون حملة تستمر عادة حتى الصيف • وكانت تنضم الى النبلاء واتباعهم فى بعض الأحيان فرق من المشاة الاحرار يقوم بحشدها رجال الملك • وغالبا ما كان شارل يقود هذه الحملات بنفسه •ولكنه فى بعض الأحيان، وبخاصة عندما يجد نفسه مضطرا الى ارسال أكثر من جيش الى الخارج ، كان ينيب عنه فى العادة افصاله المخلصين • وكان من نتيجة النجاح الذى حققته هذه الحملات المتكررة أن اتسعت رقعة مملكة الفرنجة ، فأصبحت امبراطورية تضم أراض أكثر مما كان تحت امرة أى حاكم بمفرده فى الغرب منذ سقوط روما (فى أواخر القرن الخامس)•

وكانت أول مغامرة عسكرية حاسمة حققها شارل هى النهاية المظفرة للصراع الذى بدأه أبوه مع اللمبارديين • فبعد غزو ايطاليا فى عام ٧٧٣ م ، استطاع شارلمان طرد الجيش المباردى الى ماوراء أسوار العاصمة الملكية فى بافيا • واضطر هذا الجيش الى الاستسلام بعد حصار طويل • وكان النصر الذى أحرزه شارلمان ساحقا ، حتى لقد بلغ الأمر أنه أصبح بوسعه خلع الملك اللمباردى والاستيلاء على التاج لنفسه وضم جميع أراض اللمبارديين الى أملاكه • وبذلك أصبحت له السيطرة على ايطاليا كلها ، فيما عدا الأراضى البيزنطية فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة • ولكنه اعترف بسلطة البابا فى الأراضى المخصصة له وفقا لما جاء فى « هبة ببن » وفى مقابل ذلك حصل شارلمان على لقب « حامى الرومان » •

١ وقبل أن يفرغ شارلمان من توطيد أقدامه فى ايطاليا ، قام فى عام ٧٧٢ م بجملته الأولى ضد السكسون • وقد أثبت هؤلاء البرابرة الجرمان أنهم أشد أعدائه عنادا فترة تزيد عن الثلاثين عاما • وكان السكسون وقتذاك منقسمين الى ولايات قبلية صغيرة ، وبذلك لم يكونوا

أندادا لجيوش الفرنجة فى أى معركة عامة اشترك فيها الجيشان . ومع ذلك ، وجد الفرنجة من الصعوبة بمكان تحويل انتصاراتهم العسكريه الى هيمنة فعالة . ونظرا لانه لم يكن يوجد حاكم سكسونى واحد يستطيع الفرنجة أن يصلوا معه الى تسوية وثيقة تربطه بهم ، فقد اضطروا الى ترك فرق صغيرة وراءهم بعد كل حملة لرعاية مصالحهم . ولكن الاهالى المتوحشين كانوا يثورون بشكل منتظم ضد هذا النوع من القيود ، ويقومون بذبح رجال هذه الحاميات الصغيرة . ولم يجد شارلمان بدا من استخدام أساليب القمع الوحشى . وفى احدى تلك الحملات أعمل شارلمان الذبح فى ٤٥٠٠ أسير سكسونى انتقاما من خيانتهم من ناحية ، وحتى يثبت لهم عدم جدوى مقاومة الفرنجة من ناحية أخرى . كذلك أصر على دخول السكسون فى المسيحية رمزا لخضوعهم . وفى أكثر من مناسبة كان يجمعهم معا لتعميدهم بالقوة . كذلك لجأ شارل الى سياسة اجبار عدد كبير من السكسون بالقوة على الاقامة فى مناطق مختلفة من مملكة الفرنجة . وعمل السكسون أثناء صراعهم مع الفرنجة على كسب تأييد الفريزيين لهم ، وهم شعب جرمانى آخر يعيش على ساحل بحر الشمال فيما بين نهرى الراين وفيزر Weser ، مما ألجأ شارل الى غزو هذه البلاد أيضا للقضاء على السكسون قضاء مبرما .

وحاول شارل خلال فترات الراحة التى تخللت الحملات السكسونية توسيع رقعة حدود المملكة الفرنجية من ناحية الجنوب الشرقى والجنوب الغربى . وكان هدفه فى الجنوب الشرقى امبراطورية الآفار الواقعة على ضفاف نهر الدانوب . وكان هذا الشعب المقاتل ، الذى لم يكن يستقر به المقام فى مكان ما ، والذى هو من أصل آسيوى ، قد كون دولة كبرى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد بعد هزيمة كثير من القبائل السلافية الضعيفة . وكانت غارات الآفار التى يشنونها فى سبيل الحصول على الغنائم والأسلاب ، مصدر تهديد مستمر لدولة الفرنجة ، الأمر الذى دفع شارلمان أخيرا الى القيام بهجوم مضاد .

ووجه حملة استطلاعية ضد الآفار فى عام ٧٩١ م ، أتبعها بحملة أخرى كاملة العدة والعدد فى عام ٧٩٦ م استولى فيها على معسكر الآفـــار الحصين بالقرب من مصب نهر ثيس • وتم له الاستيـــلاء على كميات هائلة من الغنائم • كذلك دمر شارلمان قوة الآفار العسكرية مما أتاح له أن يضيف الى مملكته أراض جديدة على طول نهر الدانوب •

وفى عام ٧٧٨ م قاد شارلمان جيشا عبر جبال البرانس ضد المناطق الاسلامية فى اسبانيا • وانتهت حملتـــه الأولى بسلسلة من الهزائم بلغت ذروتها بالقضاء على مؤخرة الجيش الفرنجي عند ممر رونسيفال فى معركة خلدت ذكراها احدى الملاحم الفرنسية فى العصور الوسطى ، وهى « انشودة رولان » • ولكن شارل عاد الى سياسة الهجـــوم ، واستطاع قبل موته أن يمد نفوذ الفرنجة جنوبا حتى نهر ابرو • كذلك قام بغزو بريتانى وكانت تقطنها الشعوب الكلتية التى هربت من الجزر البريطانية أثناء غزوات الأنجلو سكسون فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت تتمتع باستقلال ذاتى حتى ذلك الحين ، وقد قـــام بضمها الى مملكة الفرنجة •

وفى زحمة هذه الحملات العديدة ضد الأعداء الأجانب ، كان على شارل أن يواجه حركات انفصالية خطيرة قامت بها عناصر غير فرنجية داخل مملكته • ففى اكويتانيا حيث كانت لا تزال توجد طبقة قوية من النبلاء الرومان الغاليين ، استخدم القوة فى قمع التمرد عـــام ٧٦٩م • ولكن هذه الحالة الخطيرة من عدم الاستقرار استمرت حتى اضطر شارلمان أخيرا فى عام ٧٨١م الى منح هذه المناطق حكما ذاتيا محـــدودا كممالك منفصلة تحت سيادة الفرنجة ، وأجلس ابنه لويس على العرش • كذلك اصطدم البافاريون بالفرنجة فى كثير من الأحيان ، ولكن شارلمان قضى على مقاومتهم باحلال ممثلين عن الفرنجة محل الدوق الوطنى عام ٧٨٨م •

ولم يكن هدف شارل من حملاته التى قام بها مجرد الاستيلاء على الأراضى فحسب • فقد حاول ، الى جانب ذلك ، ادخال نظـــم سياسية

قوية تجعل من الشعوب المغلوبة شعوبا تابعة بمعنى الكلمة • ومع أنه كان مسموحا لهم أن يعيشوا فى ظل قوانينهم القديمة ، فقد كان يحكمهم عادة كونتات ودوقات من الفرنجة الموثوق بهم ، والذين لم يمارسوا سلطة الملك فحسب ، بل كانوا أيضا مسئولين عن حماية الحدود المعرضة للخطر • وأهم ما تضمنه برنامج شارل فى ضم أراض جديدة (الى مملكته) هو اصراره على دخول الشعوب المهزومة فى المسيحية (على المذهب الكاثوليكى) والتعجيل بتأسيس هيئة كنيسة • ونتيجة لهذه الجهود نجح شارل فى اقناع معظم رعاياه بأنه اكثر من فاتح شره • وبدلا من ذلك ، اعتبر بمثابة البطل الذى يحمي رعاياه المسيحيين من خطر البرابرة والوثنيين ، والذى عمل على تمجيد اسم الرب • وقد خاطبه البابوات والشعراء والنبلاء بأنه « ذراع الله اليمنى القوية » •

وبينما كان شارل يبذل جهودا جبارة غير عادية كقائد لمغامرات عسكرية ناجحة ، سعى الى ادخال تحسينات فى الحكومة التى يرأسها • ولكنه لم يحاول بوجه عام ، احداث أى تغييرات ثورية • وعمل بما سنه من تشريعات راسخة واشراف دقيق ، على بث روح جديدة فى ادارة المملكة التى اغتصبتها أسرته من الميروفنجيين • وكان جل اهتمامه ينحصر فى تدعيم الأمن والسلام والعمل على حفظ النظام بين رعاياه • وكان قاسيا عنيفا فى اخماد أى صراع داخلى ، سواء كان مصدره فرنجيا أو من العناصر المتبربرة • وكانت الحياة المنظمة تتطلب الحكم وفقا للقانون • وقد بذل شارل جهودا هائلة لاقامة العدالة كى يستظل جميع الأحرار بحمايتها فى الحفاظ على حقوقهم المتوارثة • كما قام بتعين مجموعة من الموظفين المخلصين للملك تكون بمثابة حكومة تستطيع نشر لواء السلام وحفظ النظام فى امبراطوريته المترامية الأطراف • ولم يكن بالأمر الهين أو اليسير اختيار الأكفاء من فئات النبلاء وكبار رجال الدين، وبث روح الاحساس بالمسؤلية فيهم ، والهيمنة عليهم عندما يتقلدون مناصبهم • ومما زاد الطين بلة ، فوق ماتقدم ، انهيار الاقتصاد المالى فى الدولة الكارولنجية ، وما ترتب على ذلك من انخفاض دخل الملك •

ونتيجة لزوال الموارد الملكية ، والفشل المتكرر فى سبيل الاتصـــال بين مختلف أجزاء الامبراطورية ، أخذ النبلاء والدوقات الذين مثلوا الملك فى المقاطعات المحلية ، رواتبهم فى شكل منح من الأراضى مــع ما فى ذلك من مخاطرة لا مفر منها ، وهى استخدام تلك الموارد كأساس للاستهانة بالملك نفسه • وحتى يتجنب شارل هذا الخطر ، حاول ربط موظفيه عن طريق أداء يمين التبعية والولاء له • كما عين لمراقبتهم مبعوثين ملكيين «missi» من البلاط الملكى كسفراء متجولين • كذلك أصدر سيلا من التعليمات التى أطلق عليها لفظ « قوانين » بهدف ارشاد جميع الموظفين وتوجيههم وتحديد مهمامهم • وفى قبضة شارل القديرة القويـــة ، عمل هذا النظام المشوش بشكل يدعو الى الدهشة ، كما نجح فى اعادة هيبة الملكية حتى أصبحت نظاما متحضرا صالحا •

ولقد أدرك شارل بوضوح أن المسيحية هى أقوى ربـــاط للوحدة فى امبراطوريته المتشعبة •وقادة هذا الادراك الذى عززه تدينه الشخصى الزائد ، على وضع سياسة دينية قوية يعاونه فى ذلك كبار القادة الدينيين فى ذلك العصر ، وبخاصة البابوات • وقد بلغ من حماسة شارلمان لخلاص النفوس وزيادة عدد الداخلين فى حظيرة المسيحية ، أنه لجأ أحيانا الى ما أسماه أحد المعاصرين « العماد بحد السيف » ، أى بالقوة • وبنفس الحماسة واصل شارلمان اصلاح الكنيسة ، وهو أمــر كان أبوه قد بدأه من قبل • واستمرت طقوس الكنيسة الرومانية فى الانتشار بتأييد من الملك • كما أخذ شارلمان على عاتقه فى مناسبات قليلة تحديـــد الناحية اللاهوتية فى العقيدة ، وبخاصة ما يتعلق بالصراع اللاأيقونى • كذلك عمل على تزويد رعيته بمعرفة أعمق بالعقيدة المسيحية • ولم يظهر بطل فى أى مكان فى العالم المسيحى أعظم منه فى أمور العقيدة • وقد يتفق معظم الأوروبيين الغربيين مــع ذلك الكاتب المعاصر له الــذى قال : « سعيد الحظ هو ذلك الشعب الذى يرفع سيد من قـــدره ، ويسانده مبشر بالدين ، وتلوح يده اليمنى بالنصر ، وتطلق شفتاه بوق الايمان

الحقيقى » . فليس من المستغرب ، اذن ، أن يهتف الشعب من أعماقه بأنه « أعظم ملك مسيحى » أو « قسطنطين الجديد » .

وفضلا عما تقدم ، فقد تميز شارل الذى لم يعرف الملل أو الكلل طريقا الى نفسه ، بحماسته الملتهبة للنهوض بالحياة الثقافية فى بلاطه ومملكته . ويقــول كاتب سيرته اينهارد Einhard أنه « عمل بحماسة زائدة على النهوض بالفنون الحرة ، واحتــرام كل من قاموا بتدريسها احتراما فائقا ، كما أسبغ عليهم مظاهر الشرف والتكريم » . وكان الملك نفسه يجد متعة خاصة فى القراءة . ومن الكتب المحببة الى نفسه كتاب « مدينة اللــه » للقديس أوجستين ، والانجيــل ، وبعض مؤلفات اللاتين القدامى . ومن الواضح أنه كان مولعا بالقصص التى تروى أساطير البطولة للقبائل الجرمانية القديمة . ومن الثابت أنه أمر بضرورة تدوين جميع هذه الروايات الشفوية حتى يتمكن الاحتفاظ بها (خوفا عليها من الضياع) . وفوق هذا وذاك ، كــان شارلمان يشعر بمتعة وهو فى حضرة العلمــاء الذين اجتذبهم الى مدرســة القصر فى (عاصمته) آخن . وكان على رأس هذه المجموعة التى جلبها شارل من كل أنحاء اوروبا الكوين العظيم Alcuin الذى ذاعت شهرته من قبل كمدرس وعالم فى انجلترا قبل مجيئه الى آخن . ومن ايطاليا قدم المؤرخ اللمباردى « بولس الشماس » Paul the Deacon ، وعالــم النحو والشاعر بطرس البيزوى Peter of Pisa . ويعتبر ثيودولف Theodolf ذلك القوطى الغربى الذى قدم من اسبانيا من أفضل رجال عصره فى الدراسات الكلاسيكية القديمة . وانضم الى هذه الحلقة من العلماء عدد من الفرنجة أبرزهم انجيلبرت Angibert واينهارد الذى يعتبر مؤلفه عن حياة شارلمان أصدق صورة معروفة عن بلاطه . وكان الغرض الأساسى لمدرسة البلاط هو تعليم الطلاب من أبناء نبلاء الفرنجة الذين أعدوا لخدمة البلاط الملكى أو لشغل الوظائف العليا فى الكنيسة . ووجد الطلاب المجتمعون (لتلقى العلــم) الوقت لقراءة مؤلفات الكتاب اللاتين القدامى ، والأناجيل وعلم اللاهوت ، فضلا عن

جمع الكتب وقرض الشعر وكتابة التاريخ وتعليم النحو وأجرومية اللغة والشروح والتفسيرات الدينية . وزيـادة على ذلك ، كانـوا كثيرا ما ينضمون الى الملك وأصدقائه المقربين اليه للنقاش فى التاريخ والعقيدة المسيحية والشعر وعلم الفلك والخطابة . وكان هذا النوع من الحديث، على أية حال ، حديثا عظيما عميقا معبرا عن الاحساس الوجدانى ، حتى أن كل من اشترك فيه أطلق عليه اسم مستمد من الأدب القديم . فقد عرف شارل باسم « داود » ، والكوين باسم « هوراس » ، وانجيلبرت باسم « هوميروس » . واحيا العلماء فى مدرسة البلاط نهضـة كبيرة بتوجيه الاهتمام الى اللغة اللاتينية ومعرفتها ، وكذلك الاهتمام بالثقافة المتعلقة بآباء الكنيسة . وانتشرت روحهم هذه فى طول المملكة وعرضها، ووجدت أرضا خصبـة فى الأديرة البندكتية . وهكـذا ارتفـع شأن الموضوعات الثقافية قبل موت شارلمان ، وألهبت الحمية والحماسة فى مملكته ، مما شجع المعاصرين بعد ذلك على الاعتقاد بأن جميع الجوانب الايجابية والمنجزات الحسنة قد انبثقت من الأسرة الكارولنجية .

وان النجاح الهائل الذى أحرزه شارل جعل خطوته التالية تبـدو منطقية بل ولازمة للرفع من شأن الكارولنجيـين والسمو بمكانتهم . ففى يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ م كان شارل فى روما يمارس سلطته بصفته « حامى الرومان » . وبينما كان الملك مشغولا فى حملـة ضد السكسون عام ٧٩٩ م ، توجه البابا ليو الثالث اليه شاكيا أعداءه الذين كانوا قد انقضوا عليه أثناء احتفال دينى عام يسير فى شوارع روما ، وحاولوا قلع عينيه وقطع لسانـه . وطلب ليو من شـارل أن يحسم المشكلة . فما كان من شارل الا أن سافر الى روما ، وبعد مداولات مع مستشاريه ومع ليو ، برأ البابا من أى لوم فى هذا الشأن وأعـاده الى السلطة . ثم بقى الملك (فى روما) لحين الاحتفال بعيد الميلاد لحضور الخدمات الدينية فى أشهر كنيسة فى العالم المسيحى ، ألا وهى كنيسة القديس بطرس . وبينما كان الملك ساجدا يصلى قبل الاحتفال بقداس

عيد الميلاد ، وضع ليو الثالث التاج على رأسه ، وصاحت الجموع المحتشدة ثلاث مرات « الحياة والنصر لشارل العظيم المتوج من الله ، الامبراطور الرومانى العظيم المسالم » • وألقى البابا بعد ذلك بنفسه على الأرض أمام شارل احتراما له وتقديرا •

وان فحوى حادث عام ٨٠٠ م ومغزاه لايزال أمرا محيرا فى نظر المؤرخين • ولكن لاشك أن التتويج كان بشكل ما الخطوة الختامية لجهود البابوات فى سبيل ربط أنفسهم بالكارولنجيين • كما يبدو أنه عمل من الأعمال الرمزية التى تعبر عن الزهو بالنصر ، مع امتداح حكمة البابا فى اختيار حماة أقوياء للحضارة والدين القويم • وبعد أن قضى شارلمان على قوة اللمباردين ، نصب نفسه سيدا على جزء كبير من ايطاليا ، ووجد أن لقب « حامى الرومان » الذى منحته البابوية لبين ثم انتقل الى شارلمان ليس كافيا فهو لم يعط للحاكم الفرنجى أساسا شرعيا واضحا لحماية البابوية فى روما ، كما لم يحدد التزامات الملك الفرنجى نحو البابوات • وكان البابوات قد اعتادوا منذ زمن بعيد وضع أنفسهم داخل اطار سياسى يتولاه امبراطور له سلطات محددة تحديدا واضحا • وبتقلص النفوذ البيزنطى من معظم أنحاء ايطاليا فى القرن الثامن الميلادى، تركت البابوية دون نظام وظيفى شرعى تعمل فى نطاقه • ولم يحتل « الحامى » الفرنجى فعلا المكان الشرعى الذى يتمتع به « الامبراطور » البيزنطى • ويبدو أن ليو الثالث بعد أن هاجمه غوغاء روما ، فكر فى أن يجعل شارل امبراطورا باعتبار أن هذا الاجراء هو الوسيلة الوحيدة لايجاد سلطة رسمية بوسعها حفظ الامن والسلام فى مدينة روما • وكان الكارولنجيون ، وبصفة خاصة شارلمان ، قد قاموا بمناصرة البابوية والدفاع عنها مدة كافية تسمح بالقيام بمثل هذا الدور •

وحاول بعض معاصرى شارلمان ، وربما شارلمان نفسه ، اعتبار أن مسئولية واقعة التتويج الذى حدث فى عام ٨٠٠ م ، تقع على عاتق البابوية وحدها • ويقول اينهارد كاتب سيرة شارلمان ، ان الملك لم يكن

راغبا فى عملية التتويج لدرجة أنه لو كان قد علم بنية البابا ما كان قد ذهب الى الكنيسة التى تم تتويجه فيها ، على الرغم من أن هذا اليوم كان عيدا كبيرا . ومن الصعوبة بمكان تقبل هذه العبارة بحرفيتها وعلى علاتها ، ذلك لأن التتويج ماكان ليتم لو لم يكن شارلمان راغبا فيه . هذا عن السبب الأول ، أما الثانى فهو أن هذا التتويج يعتبر الحل المنطقى الوحيد لكثير من المشكلات التى واجهته . فان حملاته الناجحة جعلت لقب « حامى الرومان » الذى كان يحمله حتى ذلك الوقت ، غير كاف بالنسبة لوضعه الحقيقى . وكان دوره فى ايطاليا ، حيث أخذ على عاتقه مسئوليات الامبراطور دون أن يحمل اللقب ، أمر شاقا عسيرا . وقد أصر كثير من أخلص مستشارى شارلمان ، وبصفة خاصة العالم الأنجلو سكسونى العظيم الكوين ، على أن سيدهم يستحق التمجيد للدور الذى قام به كمحارب وزعيم دينى ومناصر للثقافة ومشرع . ولما كان معظم اولئك الرجال من العلماء ولهم دراية بالتقليد الرومانى ، فقد بدا أن أنسب شىء هو أن يستمتع بطلهم بلقب يجعله على قدم المساواة مع حكام روما (القدامى) العظام .

وان الأعمال التى أداها شارلمان فى خدمة الدين أقنعت أتباعه على وجه الخصوص بأنه الوريث الشرعى للأباطرة المسيحيين العظام من أمثال قسطنطين . وأصبح شارل نفسه على وعى متزايد بوضع دولته كقوة عالمية . وأبى أن يكون فى مرتبة أدنى من تلك التى يتمتع بها الأباطرة البيزنطيون الذين تنازلوا بمخاطبته فى المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بينهم وبينه بكلمة « ابن » . ولكنهم ، مع ذلك ، فشلوا فى حماية انبابوية ، وأبدوا ما اعتبره الأوروبيون الغربيون عقائد باطلة . ونادرا ما أحرزوا انتصارات عسكرية ، وأثبتوا بالدليل القاطع ميلهم الى سياسة التآمر ، وهو أمر لا يليق بالحكام المسيحيين . وزاد هذا الشعور زيادة كبيرة بعد عام ٧٩٧ م عندما خلعت سيدة تدعى ايرين ابنها عن العرش وسملت عينيه ، ولبست التاج الامبراطورى فى القسطنطينية . وربما بدا لشارلمان أنه من اللازم انقاذ التاج من قبضة

ايرين التى اعتبرها الكثيرون فى الغرب غير جديرة بـــه ، وذلك بنفس الأسلوب الذى أنقذ به بين قبل ذلك التاريخ بعده سنوات ، التـــاج الملكى من الميروفنجيين الذين كانوا غير جديرين به .

لكل ما تقدم ، ليس من السهل البت ان كان شارلمان غير راغب فى التاج الامبراطورى ، ولو أنه من المحتمل تماما أنه لـــم يكن يريده فى ذلك الوقت بالذات وتحت ظل الظروف التى تقبله فيها فعـــلا . وربما يكون قد خشى أن يعنى تتويج البابا له خضوع الوظيفة الامبراطورية للرئيس الدينى الأعلى الذى اعتبر شارلمان أن مركزه لايسمو بالمرة على مركزه هو ، وأنه دونه فى المرتبة والمكانة . ويرى شارل أنه أقوى خدام الرب ، وأنه موكول اليه الاشراف على تصرفات البابوية بنفس الكيفية التى ينظم بها المظاهر الأخرى للحياة الدينية . وربمـــا أحس شارل ، أيضا ، بالقلق والانزعاج لقبول التاج فى روما بعيدا عن قصره المفضل فى آخن ، وعن مستشاريه الذين أولاهم ثقته ، وعن أتباعه الجرمان . وكان شارلمان مهتما قبل كل شىء برد الفعل البيزنطى لتتويجه . ولكنه يكون قد أخطأ خطأ ذريعا اذا كان هدفه بالقاء المسئوليـــة على البابا ، التخفيف من شكوك بيزنطة (حياله) . اذ قوبل تتويجه فى القسطنطينية بالاستياء الشديد . ولم يعترف الأباطرة البيزنطيون بلقبه الامبراطورى الا أخيرا فى عام ٨١٨ م . وحتى هـــذا الاعتراف لم يـــدم طويلا لان البيزنطيين رفضوا أن يقبلوا خلفاء شارلمان من الفرنجة كأباطرة .

لويس التقى (٨١٤ — ٨٤٠)

لا يستوى لويس التقى الذى خلف شارلمان مـــع أسلافه الذين سبقوه مباشـــرة . فمن الانصاف أمـــام الصعـــاب التى ابتليت بهـــا الامبراطورية أثناء حكمه ، أن نفرق بينه وبين الكارولنجيين البارزين ، أو أن نعتبره دونهم مكانة . ومع ذلك ، ففى مجال البحث فى المكـــانة المتزايدة التى كان الكارولنجيون يتمتعون بها ، نستطيع القول ان حكمه

كان ذا أهمية بالغة فى تحديد طبيعة الوظيفـة الامبراطورية والدور الذى يقوم به الامبراطور .

ففى عهد شارلمان كان المعنى المستفاد مـن اللقب الامبراطورى تغلفه الريبة والشك ويحوطه الخلط والابهام بشكل واضح . فهل كان شارل هو الامبراطور الحقيقى الوحيد ؟ أم كان يجب عليه أن يتقاسم اللقب مع الحاكم فى القسطنطينية ؟ وهل قدر للامبراطورية الجديدة أن تظل موحدة ، أم قدر لها أن يقسما شارل وفقا لعادة الفرنجة ؟ وهـل جلبت الوظيفة الجديدة لحاملها سلطات جديدة ، أم كـان الأمر مجرد لقب شرف للتكريم ، ولا يعنى أكثر من ذلك ؟ وهل كان الامبراطور مدينا بوظيفته للبابوية ، أم كان باستطاعته الحصول عليها بوسائـل أخرى ؟ ويبدو أن شارل فى السنوات الأخيرة من حكمه لم يكن لديه رأى ثابت وواضح عن طبيعة الوظيفة الامبراطورية وماهيتها .

وعلى أية حال ، فقد حاول لويس التقى ابن شارل وخليفته الاجابة عن هذه المشكلات . فقد كان يعتقد اعتقادا جازما بأن على حامل اللقب الامبراطورى مسئولية كبيرة للعمل من أجل خلق مجتمع أشـد ايمانا بالمسيحية . ولما كانت الامبراطورية حديثة العهد ، فمـن الواجب أن تكون « امبراطورية مسيحية imperium Christionum » ، قبل أن تكون أى شىء آخر . وحاول لويس أن يحسم هذا المثل الأعلى فى برنامج صارم للاصلاح الدينى استنفذ معظم طاقاته خلال الفترة المبكرة من حكمه . فقد بدأ اصلاحاته بشكل تمثيلى بعد موت أبيـه مباشرة ، وذلك بتطهير البلاط فى آخن (من عناصر الفساد) . وأجبر عددا كبيرا من الأعيان على اللجوء الى الأديرة عقابا لهم على أخلاقهم الشائنة . وكانت احدى أخوات لويس التقى قد وضعت أطفـالا غير شرعيين ، وتبناهم انجلبرت Angilbert الذى كان يطلق عليـه اسم هومير Homer فى محيط البلاط ، وأجبر لويس شقيقاته على التحجب .

وأحضر لويس أحد الاخـوان البندكتان يتميـز بالعفة والنقاوة

يدعى برنارد أوف أنيان Bernard of Aniane من مقاطعة أقطانيا ، وأقامه فى دير قريب من مدينة آخن ليكون بمثابة مستشار له، وليحل محل رجال الكنيسة والنبلاء العلمانيين الذين أحاطوا بشارلمان. وبايحاء من برنارد أعلنت مجموعـــة من القوانين التى تمس كل ناحية من نواحى الحياة الدينية . وكانت أعمال الشعـــراء والفنانين زاخرة بمناقشات وأفكار لمباحث ومواضيع تؤكد أهميـــة المسئوليات الدينية . وكانت الحصيلة الأخيرة هى أن الامبراطورية أصبحت « مقدسة » تسمو فوق كل شىء ، وأن التقوى هى الصفة المطلوب توافرها فى الامبراطور أكثر من أى شىء آخر . وكانت مشاعر وأحاسيس لويس الدينية قوية جدا ، حتى أنه سمـــح للبابوية أن تقـــوم بدور الواهـــب للوظيفـــة الامبراطورية . وكان لويس قد توج امبراطورا من قبل فى عام ٨١٣ ، عندما دعا أبوه مجلسا من كبار القوم للاجتماع فى آخن . وفى حضرتهم وضع بكلتى يديه التاج الامبراطورى على رأس ابنـــه بدون مساعدة هيئة رجال الدين . ولكن البابا قدم فى عام ٨١٦ م الى بـــلاط لويس ومسحه بالزيت المقدس فى احتفـــال دينى ، الأمر الذى يـــدل على أن التكريس البابوى هو وحده الذى يعطى للتـــاج الامبراطورى مضمونه وفحواه ، وعلى أن الامبراطورية رومانية فى أصلها . وقد جـــاء أهم عمل أقدم عليه لويس فيما يتعلق بتحديد طبيعة الامبراطورية وكنهها بعد ذلك بعام ، عندما أصدر وثيقـــة تنظيم عملية حكـــم امبراطورية وادارتها . وقد اشترط مرسومه على أن يطلق على أحد أبنائه الثلاثـــة اسم « امبراطور » ، وأن يكون من نصيبه الجزء الأكبر من الأراضى ، بينما يحمل كل من الابنين الآخرين لقب « ملك » وأجـــزاء أصغر من الأرض . ولتأكيـــد وحدة الامبراطوريـــة ، فقد تمتع حامـــل اللقب الامبراطورى بالسيادة على الملكين الآخرين اللذين كـــان عليهما حكم الأقاليم المخصصة لهما تحت اشرافه بوجه عام .

وان محاولة تحديد طبيعة الوظيفـــة الامبراطورية بشكـــل أكثر وضوحا قد رفعت بجلاء من قدر الحاكم الفرنجى فى أعين اولئك الذين

تشاركوه مشاعره • فقد كان مفهوم لويس عن الامبراطورية ، كما سيتضح فيما بعد ، أنها وظيفة رفيعة للغاية بسبب الموارد التى يتحكم فيها ، الى جانب أحاسيس ومشاعر المجتمع الذى يسوسه • ولذلك ، كانت الأمبراطورية الكارولنجية خلال حكمه مهدده دائما بكارثة • ورغما عن ذلك ، كان لويس يمثل الأسرة الكارولنجية الحاكمة وهى فى أوج قوتها وهيبتها • فقد كان لقبه « الامبراطور العظيم بفضل العنايه الالهية » ، وهو يرمز الى درجة من القوة أعظم بكثير من تلك التى تمتعت بها عائلته فى القرن السابع ، عندما كان الكارولنجيون مجرد نبلاء أثرياء فى مملكة اوسترازيا • لقد أخرجت اوروبا الغربية فى النهاية أسرة طبقت شهرتها الآفاق • وفى هذا الوقت كان الغرب قد آفاق من ظلماته •

طبيعة المجتمع الكارولنجى

ليس من العدالة فى شىء بالنسبة للدور الذى قامت به الأسرة الكارولنجية فى سير مجرى التاريخ ، أن ينصب اهتمامنا عى مجرد سرد جوانب النجاح التى حققتها • ذلك أن الأسرة الكارولنجية كانت تمثل العصر الذى عاشت فيه ، عندما أدركت العناصر الحاكمة تماما حقيقة أنها دخلت مرحلة جديدة مغايرة • وعلى هذا فان التاريخ الكارولنجى لهو أكثر من سجل للأحداث التى وقعت بين زمنين • أنه قصة ظهور العقلية الواعية المتميزة فى الغرب • ومع ذلك ، فان استمرار بقاء الأنظمة والمؤثرات الجرمانية كان باديا للعيان لدرجة تثير الشكوك فى حقيقة وجود مجتمع كارولنجى مستقل يتميز عن الشعوب الجرمانية المبكرة فى الغرب • وعلى سبيل المثال ، نجد أن القانون الجرمانى ظل نافذ المفعول رغم ماسنه الملوك الكارولنجيون من تشريعات وقوانين عديدة • ولم تطرأ تقريبا ، أى تغييرات على شكل الحكومة الجرمانية التى ورثوها عن الميروفنجيين • وكان كل الأمراء الكارولنجيين رجال حرب وقتال على شاكلة رؤساء القبائل القدامى • وحتى شارلمان نفسه

قسم امبراطوريه فى عام ٨٠٦ م بين أبنائه الثلاثة الذين كانوا على قيد الحياة فى ذلك الوقت بنفس الطريقة المتبعة فى تقسيم الممتلكات العائلية. وبذلك ألقى ظلالا من الشك على الجدية التى تقبل بهـا دلالات اللقب الامبراطورى فى عام ٨٠٠ م. وقد اعتمد الكارولنجيون ، أساسا ، على تأييد الأسر الشريفـة فى اوسترازيا ، مـؤكدين بذلك سيـادة طبقة أرستقراطية جرمانية فى المجتمع الكارولنجى . واذا أمعنا النظر قليلا فى الخصائص المميزة للحياة فى العصر الكارولنجى ، لوجدنا استمرار بقاء النظام المتبربر الى جانب العنف والجهل والخرافات . وعلى الرغم من احياء تعلم اللغه اللاتينية ، فمن الواضح أن اللغة الجرمانية كانت هى اللغة السائدة فى أنحاء كثيرة من الامبراطورية . كما بدأ تطور اللغة اللاتينية التى اختلطت باللهجات الجرمانيـة المتبربرة — وهى لغـة القصص — فى الأزمنـة السابقة للعصر الكارولنجى . وكـان الناس يستخدمون هذه اللغة فى حياتهم اليومية كما هى دون صعوبة فى باقى أجزاء الامبراطورية .

وتوحى هذه الدلائل والاشارات بأن الحقبـة الكارولنجية كانت مجرد امتداد لعملية صبغ الغرب بصبغة جرمانية . الا أن بقاء وتطور الخصائص الجرمانية التى سبق التحدث عنها ، قد زودا الغرب الأوروبى بعنصر فريد للسير نحو خلق حضارة مستقلة . ولكن مجـرد استمرار وجود المميزات الجرمانية لا يكفى لتوضيح كل المظاهر الجديدة التى برزت (على مسرح الأحداث) لتفصل الغرب بشكـل واضح عن بقية العالم .

ويتضح ذلك جليا فى مجال التطور السياسى أكثر من أى مجـال آخر ومع أن الحكومة الكارولنجية قد اختلفت قليلا فى مظهرهـا عن الأنظمة الجرمانية المبكرة ، وبصفة خاصة الأنظمة الميروفنجية ، الا أنها كانت لها فعلا سماتها المميزة الخاصة بها . وربما كان أهمهـا هو القاء الضوء على التحالف السياسى من الملوك والنبلاء من ملاك الأرض الذى

انبثق عن النظم الاقطاعي الذي لم يكن قد اكتمل نموه بعد في العصر الميروفنجي . أما في عهد الأمراء الكارولنجيين ، فقد اعتمدت الحكومة — الى حد بعيد — على خدمات رجال ارتبطوا بالملك عن طريق أداء يمين الولاء والطاعة ، وكذلك عن طريق هبات من الأرض . وبموجب هـذا النظام القائم على الخدمات المتبادلة ، مكنت الأرض متملكها من أداء الخدمات التي ألزم بها بعد القسم الذي كان يؤديه . ولقـد تحددت تحديدا قانونيا واضحا تلك الوسائل والأساليب المختلفـة التي نظمت وحددت العلاقة بين الملك والسيد الفصل خلال العصر الكارولنجي . ولم يكرس شارلمان نفسه جانبا كبيرا من جهوده السياسية لمطالبـة نبلائه الأفصال بأداء الخدمات التي تعهدوا بأدائها له بصورة منتظمة . بل ان جميع الكارولنجيين نجحوا ، بوجه عام ، حتى عام ٨٤٠ م على أقل تقدير في اقناع افصالهم بأن الخير لكل فرد يكمن في الخدمات المتبادلة. وباتباع هذه السياسة أصروا على أن يكون يمين الـولاء والاخلاص مصحوبا بتكريس ديني . وقد منحوا هبات سخية من الأرض ، وقاموا بقيادة الجيوش أثناء الحروب بفعالية كبيرة ، وأنزلوا العقاب الصارم بالخونة والمتمردين ، وتشاوروا مع علية القوم في المملكة بصفة دائمة ، وطبقوا العدالة السريعة على المذنبين . ولم يحل الاستخدام الناجح لهذه السياسة بالمرة دون رسوخ النظام الاقطاعي كنظام سياسي خاص بغرب اوروبا . بل كان هذا النظام الحكومي يتعارض تماما مع الحكومات البيروقراطية المركزية في كل من بيزنطة والدولة الاسلامية .

وربما كانت مقدرة الحكام الكارولنجيين في الافادة من هذه الروابط الاقطاعية الاساسية لمنفعتهم الشخصية واقناع النبلاء الأقويـاء من ملاك الأرض لمساندتهم ، قد اعتمدت على فهم متجدد المعنى ومضمون الدولة والحاكم الذي تجلى في هذه الفترة . ذلك أن الممالك الجرمانية المبكرة ، بما فيها دولة الفرنجة الميروفنجية ، كانت قد قاست كثيرا من وجهة النظر القائلة بأن الحكومة ما هي الا وسيلـة للكسب والاثراء الشخصي . وقد رأى الحكام والمحكومون نفس هذا الـرأي . واستمد

الكارولنجيون عظمتهم الحقيقة — الى حد كبير — من قدرتهم على التغلب على هذا المفهوم الذى يضعف من سلطة الدولة .

وبدأ الكارولنجيون يجدون أيضا فى الدين المسيحى معنى ومضمونا جديدا مناسبا لتوجيه جهودهم كحكـام . ويمكن التعبـير عن ذلك ، ببساطة ، بأنهم أدركوا أنهم مجبرون على ارشاد رعيتهـم الى طريق الخلاص الأبدى ، وتنظيم مجتمع للمؤمنين هنا على الأرض يعمه الخير، وخلق بيت الله على الأرض . ويبدو أن شارلمان اعتبر نفسه فى بعض الأحيان الكاهن الأعظم الذ ىاختاره الله لرعاية كافة مظـاهر الحياة والعمل على « تقويمها » بما يتفق وفهمه للمسيحية . وقد دفعه هـذا الوازع الدينى بأن يطالب البابوات والأساقفة ورؤساء الأديرة باصلاح حياتهم وعلاج المساوىء والعيـوب التى تفشت فى السلك الكنسى ، ودراسة اللاهوت ، وحسن استخدام ثروات الكنيسة واضافة أرصدتها ومواردها الى الهبات التى ترد من الخزانة الملكية . وعلاوة على ذلك ، فان الكثير من أعماله السياسية ذات الطابع العلمانى — كالحرب وقمع التمرد واقامة العدالة وحماية العلم — قد وجه لتحقيق غايات دينية . وعلى ذلك فقدبرز وتطور مفهوم جديد عن الأمير الصالـح فى الغرب الأوروبى خلال فترة قصيرة من الزمن . وهو مفهوم أكثر صقلا وسموا من المفاهيم الجرمانية المبكرة ، كما أنه يختلف كثيرا عن الفكرة الرومانية عن الحاكم المثالى الـذى لا عيب فيه . وبذا ترك هـذا المثل الأعلى الكارولنجى للأمير المسيحى أثره على الحياة السياسية فى غرب اوروبا لفترة طويلة . وعلى هذا ، ليس من المستغرب أن يكون شارلمان موضع التمجيد فى الأساطير طوال العصر الوسيط . فان عمله المتسم بالحماسة والنشاط فى سبيل تحقيق المثل الأعلى للأمير المسيحى قـد ترك أثره البالغ على عهده ، حتى أنه أصبح مثالا وانموذجا للحاكم الفاضل .

وكان ارتقاء شارلمان الى مرتبة امبراطور عام ٨٠٠ م تعبيرا قويا للاستقلال السياسى الجديد للغرب ، وكان كثير من المسيحيين الغربيين

على وعى بسمو وتميز أميرهم المسيحى . واذ اعتقد كثير من مستشارى شارل أنه جدير حقا بلقبه الجديــد ، فقد توقعــوا أن تكون زعامته للمسيحية أوسع نطاقا وأكثر فعالية وتأثيرا بعد أن أصبح امبراطورا . ومع أنهم كانوا يدركون تماما بأن اتساع دولته وطابع حكمه لا يمكن مقارنتهما بحكم الأباطرة الرومان القدامى ، الا أنهم ظلوا يعتقدون أنه جدير بالمنصب الامبراطورى بسبب الخدمات الهائلة التى قام بها فى سبيل الرب . وقد عبر الكوين ، وهو أشد العلماء تأثيرا فى عهد شارلمان، عن مشاعرو أحاسيس كثير من الأتقياء عندما كتب خطابا الى شارلمان عام ٧٩٩ م يلخص فيه حالة العالم وقتها . فذكر أنه حتى تلك اللحظة قد تربع ثلاثة من ذوى المقام الرفيــع على عرش العالم هــم : البابا والامبراطور البيزنطى والملك الفرنجى . وقــد مر اثنان منهــم بأيام عصيبة . اذ هاجم الغوغاء البابا فى شوارع روما ، كما اغتصبت امرأة التاج الامبراطورى . واستطرد الكوين قائلا : « والآن يشغل المنصب الرفيع المكان الثالث الذى ادخره لك الرب يسوع المسيح لكى تسوس الشعب المسيحى. وقد سما هذا المنصب على الاثنين الآخرين قوة ورفعة، كما تفوق عليهما فى الحكمة ، وبزهما فى هيبة الحكــم . وعليك وحدك الآن تعتمد الكنائس المسيحية ، ومنك وحدك تستمد أمنها وسلامتها . فعليك يعتمد الجميع أيها المنتقم للجرائم ، ويامرشد الخطاه ، ومواسى الحزانى والمنكوبين ومكافىء الأخيار » (١) .

وما أن حصل شارلمان وابنه لويس على وجه الخصوص على اللقب الامبراطورى ، حتى بذلا قصارى جهدهما ليطبقاه بطابعــه الفرنجى الغربى . فلم يحاول كلاهما أبدا تحقيق سلطة عالمية على كــل العالم المتحضر ، وهو مفهوم لقبهم الجديد للامبراطور الرومانى . ولم يطالبا بأكثر من مساواتهما بامبراطور القسطنطينية، وحقهما فى حكم اقطاعاتهم

---

(١) انظــر: Alcuin, Epist., 174, ed. E. Dümmler, in Monumenta Germaniae Historica, Epistolae, IV (Berlin, 1895), 288.

الغربية طبقا لمتطلباتهم ووجهات نظرهم الخاصة المتميزة • ولقد حاول الحاكمان اضفاء معنى ومضمون لحقائــق العصر السياسية ، وأن يسلما بالحقيقة التالية وهى ان قيما ومثلا وأنظمة سياسية جديدة وفريدة قد برزت الى الوجود فى الغرب الأوروبى •

ويلاحظ أن التطور الدينى أمد التحول السياسى بقوة دافعــة فى هذه الفترة الكارولنجية المبكرة ، عندما عمل على اتساع هوة الخلاف التى تفصل الغرب عن بقية العالم المسيحى • وكان تضــامن المسيحية الرومانية السريع هو أهم ما نتج عن اعتمــاد الكارولنجيين على أسقف روما وتأييده لهم•وكانت هذه الرابطة الوثيقة التى جمعت بين البابوية والكارولنجيين سببا فى تحقيق حلم جريجورى العظيم فى اقامة مجتمع مسيحى توجهه روما • فقد امتلك البابوات دولــة بابوية ضخمــة فى ايطاليا ، فضلا عن حماية أقوى أمــراء الغرب لهم ، وبــذا وضعوا الأساس الحقيقى لاستقلالهم • وعمل الحكــام الكارولنجيون ،أثناء قيامهم بدورهم كمصلحــين دينيين ، على ادخــال الشعائر والطقوس الرومانية فى خدمة القداس الالهى ، مع اقرار النظام فى جميــع أنحاء مملكتهم الشاسعة • وكانت النتيجة أنه أمكن تحقيق درجة ملحوظة من الوحدة الدينية مع بداية القرن التاسع الميلادى • كمــا أدى تطبيق النظام البندكتى على نطاق واسع كهدى للحياة الديرية فى الامبراطورية الكارولنجية ، الى زيادة أعداد « جند المسيح » الذين يعملون على نشر الشعائر والأفكار الرومانية • ونتج عن التعاون الوثيق بين الكارولنجيين والبابوات فى ميدان التبشير الى تقبل توجيه روما الذى ذاع وانتشر فى أمور العقائد والتنظيم الكهنوتى والنظام العام ، وكذلك مــا يتعلق بسيادة الكارولنجيين • ولم تقم البابوية بدور جديد فقط عندما قدمت الى الكارولنجيين اللقب الملكى فى أول الأمر ثم التاج الامبراطورى بعد ذلك ، بل حققت أيضا مركزا ممتازا لنفسها ولمن هــم تحت رعايتها • وكانت كل هذه التطورات تعنى أن المسيحية الرومانيــة أصبحت أثناء الفترة الكارولنجية المبكرة قوة فعالة مؤثرة فى معظم أنحــاء اوروبا

الغربية ، بدلا من انحصارها فقط فى أجزاء من ايطاليا والمناطق القليلة التى أرسل اليها المبشرون والواقعة على أطراف العالم المسيحى ، مثلما كان الحال من قبل .

وكذلك ساعدت حركة احياء الثقافة التى حباها شارلمان برعايته ، والتى عرفت باسم النهضة الكارولنجية ، على تنوير أذهان الأوروبيين الغربيين بمفهوم الغرب المسيحى المستقل . ولما كان الاعتقاد السائد هو أن الادارة السياسية السليمة ، والاصلاح الأخلاقى الفعال ، وتطهر الخدمات الدينية من الفساد ، يعتمد على وجود طبقة متعلمة — فقد قام الملك بدفع عجلة الاحياء الثقافى لخدمة غايات وأغراض عملية . ولتحقيق هذه الأهداف عنى العلم الجديد بأنماط ونماذج مميزة تناسب احتياجات الغرب ومطالبه . مثال ذلك العمل على اتقان اللغة اللاتينية ، وانتاج عدد متزايد من الكتب ، وتطوير أسلوب الكتابة وتحسينه ، ودراسة الكتاب المقدس بعناية ، ودراسة مؤلفات آباء الكنيسة والنخبة المنتقاه من الكتاب اللاتين ، ووضع نظام لحماية طلاب العلم يسمح لهم بمتابعة تلك الغايات. وقد جعل شارلمان من بلاطه فى آخن مركزا للعلم، كما شجع الأديرة على مواصلة نشاطها الثقافى . ووجد رجال العلم الذين جلبوا من كل أنحاء اوروبا تأييدا ورعاية كافيين يمكناهم من تكريس حياتهم لاتقان اللغة اللاتينية ، والتأليف فى النحو وأجرومية اللغة وقواعدها ، ونسخ الكتب فى مخطوطات جديدة جميلة ، ووضع كتب مختصرة للتعليم الدينى ، مع كتابة المؤلفات الأدبية التى تتميز بأصالتها والتى تعالج اللاهوت أو التاريخ أو السير والتراجم ، كما وجدوا التشجيع فى أن تتصل المكاتبات بينهم وبين غيرهم من رجال العلم .

وصاحب هذا الاهتمام بأمور العلم والتعليم ، نهضة فنية تحمل طابعا اوروبيا غربيا . فقد استحوذ بناء الكنائس على الجهود الممتازة فى هذا العصر . وكانت الكنائس الكارولنجية ، بوجه عام ، تبنى على

طراز الكنائس الرومانية المعروفة باسم البازيليكا فى العصر الكلاسيكى المتأخر ٠ وكان التخطيـط الأساسى لارض الكنيسة يتكـون من صحن مستطيل يخترقه جناحا الكنيسة على شكل صليب وينتهى بقبة مستديرة حيث يوجد الهيكل والمذبح ٠ كما توجد ممرات جانبية تمتد عادة بطول صحن الكنيسة ٠ وقد شيدت بعض الكنائس ، ومن بينها كنيسة شارلمان الخاصة فى آخن ، على شكل مثمن الأضلاع والزوايا ، وهو شكل مأخوذ عن النماذج البيزنطية ٠ وكانت أسوار الكنيسة مبنية من الحجر ، اما على شكل كتل كبيرة أو قطع صغيرة مثبتة بالملاط ٠ واستخدمت الأسقف الخشبية لان معظم العمـال الفنيين الكارولنجيين كانت تنقصهم المهارة فى بناء الأسقف الحجرية ٠ وفى الداخل كانت الجدران تزدان بالصور الملونة بالماء المعروفة بالفريسكو ، والتى تشرح القصص المستمدة من الكتاب المقدس ٠ أما الأجزاء الخارجية للكنائس فلـم تكن مزخرفة ٠ كذلك وجدت كئوس العشاء الربانى ، والشمعدانات الذهبيـة ، وكتب القداس الالهى ، وأغطية المذبح البديعة الصنع ٠ ومـع أن الكنائس الكارولنجيـة كانت فى جوهرها تقليدا للنمـاذج المبكرة فى ملامحهـا الأساسية ، فقد كانت هناك تجديدات ذات دلالة فائقة بالنسبة لمستقبل تاريخ الفن فى غرب اوروبا ٠ وأهمها تلك التعديلات التى طـرأت على الفن المعمارى لبناء الكنائس لتتناسب مع خدمة القداس الرومـانى ٠ وبدأ تشييد الكنائس الصغيرة المخصصة لذكـرى مختلف القديسين ، والأماكن التى توجد بها ذخائر أولئك القديسين ومخلفاتهم ٠ كما بنيت السراديب أسفل الكنيسة كمخازن لحفظ مخلفات القديس الذى سميت الكنيسة باسمه ٠ وتم التوسع فى عدد مرتلى الكنيسة ليناسب المشتركين العديدين فى احياء القداس وأداء المهام الخاصة بالأديرة ٠ وكانت هذه التطورات هى اللبنات الأولى فى الطراز الرومـانى الحديث المعروف باسم Romanesque ، والذى اتخذ شكله النهائى فى القرن الحادى عشر الميلادى ٠ ويمكن أن نكتشف فى النقوش العاجيـة الرقيقة وفى المخطوطات المزدانة بالرسوم الجميلة فى العصر الكارولنجى ، النماذج

الأولى للنحت الحجرى الرائع الذى ازدانت به الكنائس الرومانية التى شيدت فى هذا العصر المتأخر • كما تبرز كثـير من النقوش العاجية والمخطوطات المصورة مهارة فى المزج بين النماذج والتصميمات المأخوذة عن اصول رومانية قديمة وأصول كلتية وجرمانية وشرقية ، نتـج عنه طابع مميز فى الغرب •

ويبدو أن النتائج الايجابية لهذه الأنشطة كانت متواضعة ، اذا ما قورنت بالحياة الثقافية المعاصرة لها فى العالـم الاسلامى أو الدولة البيزنطية • فلم يكن رجال العلم الكارولنجيين على معرفة سوى بعدد قليل من المؤلفين الرومان القدامى • وكثيرا ما كان فهمهم لهؤلاء سطحيا متواضعا • وكانت اللغة اللاتينية التى استخدمها أفضل مؤلفيهم وكتابهم أقل بكثير فى مستواها عن النماذج الكلاسيكية القديمة • كما كان جانب كبير من أشعارهم وكتاباتهم اللاهوتية مجرد تقليد ، سواء من ناحيـة الشكل أو الموضوع • فعلى سبيل المثـال ، كتب اينهـارد سيرة حياة شارلمان على نسق ماكتبه سوتونيوس Suctonius كاتب سير الأباطرة الرومان • وبالرغم من أن كثيرا من أعضاء مدرسة البلاط كانوا يدافعون بشدة عن التعليم الحر المطلق المبنى على دراسة علـم البيان وقواعد اللغة والحساب والهندسة واللاهوت ، فقـد كانت الممارسة الفعلية فى المدارس الأسقفية والديرية تكاد لا تحقق هذه الغاية • لقد قضى معظم الطلبة وقتهم فى هذه المدارس فى تعلم القراءة والكتابـة من النصوص المتواضعة ، وفى الاجابة عن الأسئلة التى يطرحها أساتذتهـم الخاصة بالمعنى الرمزى فى أجزاء من الكتاب المقدس ، وممارسة مختلف الطقوس المتعلقة بالخدمة ، فضلا عن عملية نسخ الكتب • وأخفق شارل العظيم نفسه فى احدى المناسبات فى ابراز امتيازه وتفوقه فيما يتعلـق بأمور التعليم • فقال عنه اينهارد « انه حاول أيضا أن يكتب ، واحتفظ بألواح وأوراق بيضاء تحت وسادته ليعود يده أثناء ساعات الفراغ على كتابة أشكال الحروف • ومع ذلك ، لم يبدأ جهوده فى الوقت المناسب ، ولكنه بدأها مؤخرا بعد أن تقدم به السن • ولذلك حقق نجاحا محدودا » •

ومع أن الفترة الكارولنجية شاهدت نشاطا فنيا يفوق ذلك النشاط الذى عرفه العصر الميروفنجى ، الا أن الحصيلة الاجمالية من المبانى الجديدة كانت متواضعة اذا ما قورنت بالعصر الكلاسيكى المتأخر أو بالفترات المتأخرة من العصور الوسطى •

ورغم أن النهضة الكارولنجية كانت محدودة ، الا أنها تركت فى زمنها أثرا هائلا • فقد جعلت المجتمع الأوروبى الغربى على وعى أكثر بأهمية تراثه الثقافى • ولم يعد العلم أمرا مقصورا على عدد قليل من الرهبان الذين اعتزلوا الحياة الدنيا ، بل أصبح بدلا من ذلك أمرا ضروريا ولازما لحفظ كيان الحكومة والنظام الدينى بأكمله ، واعتبر مسئولية المجتمع كله • وفوق ذلك ، فان تركيز اهتمام طلاب العلم الكارولنجيين على التراث اللاتينى ، جعل الهوة الثقافية التى تفصل الغرب عن الشرق أكثر عمقا واتساعا • ولم يهتم الأوروبيون الغربيون بالشق اليونانى من التراث الكلاسيكى القديم ، مرة أخرى ، الا بعد قرون عديدة لاحقة• وفى النهاية ، أدت النهضة الكارولنجية دورا هاما فى خلق نظـام فعال لحياة ثقافية مزدهرة• فقد ظلت الكتب الدراسية ، والمدارس، والمكتبات، وطرق ووسائل الدراسة والتدريس ، وأساليب الأدب والفن ، جـزءا لا يتجزأ من تاريخ اوروبا الغربية • ومن هذا الأساس الـذى أرسى لبناته الكارولنجيون ، نمت وتطورت معظم ثقافـة الغرب فى العصور الوسطى •

وفى النهاية ، ثمة كلمة يجب قولها فى هذه الدراسة المختصرة عن الصفات البارزة للمجتمع الفرنجى ، وهى أن الدولة الكارولنجية غدت بحق مركز المجتمـع الأوروبى الغربى • وفى الواقـع ، كانت هنـاك جماعات سياسية عديـدة فى غرب اوروبـا ليست جـزءا من المملكة الكارولنجية ، من بينها الخلافة الاسلامية ، وعدة دول مسيحية صغيرة فى اسبانيا ، والممالك الانجليزية المتعددة ، والامارات السلافية العديدة، والأمم الاسكندنافية ، والأقاليم البيزنطية فى جنوب ايطاليا • وان هذه

الجماعات كلها تقريبا وجدت نفسها تسير ــ الى حد ما ــ فى فلك القوى الكارولنجية • فهى اما متحالفة معها تحالف التابع من المتبوع ، واما عدوة لها تناصبها العداء وتهددها بالمخاطر • ولقد سبق القول ان الدولة الكارولنجية قادت مشعل الثقافة فى الغرب الأوربى كله • وبالاضافة الى ذلك ، كان نظامها الدينى الذى اتخذ الطابع الرومانى قد امتد حتى وصل الى بعض السلاف والسكندنافيين الغربيين • وهكذا بدأت عملية ذوبانهم فى المجتمع الأوروبى الغربى • واذا أمعنا النظر فى مراحل التطور التى تحولت بموجبها « الكارولنجية » حتى غدت « اوروبية غربية » فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، أمكن أن نستخلص بحق نتيجة مفادها أن أهم مظهر حى للتاريخ الكارولنجى هو استقطاب الغرب كله حول محور يمتد من روما حتى آخن • ويمكن القول ، بشكل آخر ، ان الأسرة الكارولنجية حتى عام ٨٤٠ م كانت قد حددت الملامح المميزة لمجتمع اوروبى غربى ناهض • وكانت شديدة التحمس لهذا العمل ، لدرجة أن العالم كله بات يدرك قوتها وحيوتها • وكانت هذه هى اوروبا الأولى •

الدولة الاسلامية فى ظل الخلفاء العباسيين الأوائل

بينما كان الأمراء الكارولنجيون العظام يعملون بهمة فى سبيل خلق طابع مميز لحضارة اوروبا الغربية ، كانت هناك تغييرات هامة مماثلة آخذة فى تطوير الحياة فى الدولة الاسلامية الشاسعة التى كان قد أسسها المقاتلون العرب خلال القرن الذى تلا موت النبى محمد ﷺ عام ٦٣٢م• وأثناء القرن الأول استطاع الاسلام أن يضرب ضربته العسكرية فى العالم المتحضر • وحوالى عام ٧٥٠ م بدأت حركة الفتوحات تخبو • وما أن تم ذلك حتى مرت الدولة الكبرى التى كان يقبض على زمام الأمور فيها فى أول الأمر أقلية صغيرة من المحاربين ، بأزمة داخلية خطيرة • وبعد عام ٧٥٠ م اتجهت الجهود الخلاقة فى المجتمع الاسلامى نحو

- اقامة أنظمة داخلية تعمل على تقوية الدولة والابقاء عليها ، أكثر من العمل على توسيع رقعتها .

العباسيون الأول (٧٥٠ — ٨٤٧ م) والخلافة الجديدة

كانت التطورات الجديدة فى الدولة الاسلامية بعد عام ٧٥٠ م تتعلق بظهور أسرة جديدة هى أسرة بنى العباس التى تقلدت السلطه اسميا اعتبارا من عام ٧٥٠ م وحتى عام ١٢٥٨ م . وكانت فترة الحكم العباسى ، فى حقيقة الأمر ، تنحصر بين عامى ٧٥٠ ، ٨٤٧ م . فقد استطاع بنو العباس تقلد السلطة بالقوة منتهزين حالة السخط والتذمر التى نتجت عن سياسة الأمويين الخاصة باعتبار العرب هم الصفوة الممتازة داخل الدولة الاسلامية . ومع أن المحاربين العرب كانوا قد أحرزوا انتصارات عسكرية باهرة طوال قرن من الزمان ، الا ان الناس بدأوا ينظرون اليهم كشعب ينعم برغد من العيش نتيجة الجزية التى فرضوها على رعاياهم . ولم يقدموا لهم سوى القليل ، وكان معظم هؤلاء الرعايا أرقى منهم فى النواحى الثقافية والاقتصادية والسياسية. وقد شغل القادة الأمويون أنفسهم بأمور الحرب والدبلوماسية وجباية الجزية ، حتى أنهم نسوا فى بعض الأحيان أنهم بوصفهم خلفاء يعتبرون قادة دينيين . واتهمهم كثير من المسلمين بالانغماس فى الدنيويات . وطالما كان العنصر العربى هو العنصر الغالب فى الدولة الاسلامية ، فقد استمرت المشاحنات القبلية القديمة التى كان يتميز بها المجتمع الصحراوى المبكر ، باقية على ما كانت عليه . وعندما بلغ الشقاق والصراع أشده ، كانت الثورة ضد العصر الأموى قد نضجت . وفى عام ٧٥٠ استطاع شخص من عصب الرسول (ﷺ) الوصول الى السلطة بالقضاء على حكم الأمويين .

وليس هنا مجال سرد تاريخ الخلفاء العباسيين العظام الذين حكموا خلال القرن التالى باسهاب وتفصيل . فقليل منهم ، وبخاصة هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩ م) والمأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) ، كان

يحتل مكانة مرموقة بين أعظم حكام العالم. وقد اتبع الخلفاء العباسيون الأوائل ، بوجه عام ، سياسة أحدثت ثورة فى الدولة القائمة ، ووضعوا بشكل نهائى الخصائص والمميزات الأساسية للحضارة الاسلامية . فقد أصر بنو العباس منذ الوهلة الأولى على تأكيد الطابع الدينى للخلافة . واتهموا الخلفاء الأمويين بأنهم حطوا من شأن الخلافة بجعلها وظيفة علمانية الى حد بعيد ، تماثل كثيرا وظيفة الامبراطور الرومانى . وبذلك اعتبر العباسيون أنفسهم زعماء دينيين ، وأن الله قد أناط اليهم مسئولية تجديد النظام القائم على البر والتقوى والذى أرسى أساسه النبى محمد ﷺ . وبدأوا يطالبون جميع المسلمين بطاعتهم على هذا الأساس وحده ، مع التخلص من الروابط القبلية القديمة التى كانت سائدة فى الصحراء ، وكذلك روابط الزمالة فى الناحية العسكرية كأساس للحياة السياسية . فقد كان العباسيون هم « أمراء المؤمنين » ، وليس مجرد قادة للمقاتلين العرب فحسب . وهكذا جعلوا نظامهم أكثر عالمية . وأخذت الحقوق والامتيازات والواجبات التى اختص بها المسلم المؤمن تتسع دائرتها لكى تشمل كل المؤمنين بالله على حد سواء ، وليس فقط الأقلية المختارة من العرب .

وكان مفهوم العباسيين للدولة ، من نواح عديدة ، انعكاسا للآراء الشرقية عن الملوك الكهنة . وليس من المستغرب ، اذن ، أن ينقل العباسيون عاصمتهم من دمشق ذات الصبغة الهالينية الى بغداد حيث كانت المؤثرات الفارسية قوية . وحاول الأمويون ، من قبل ، تقليد نظم الحكم العملية عند الرومان ، أما العباسيون فقد استعانوا بالنظم الفارسية . فأقام الخلفاء فى بغداد بلاطا يتميز بالفخفخة والأبهة عاشوا فيه محاطين بألوان الترف فى جو غامض منعزل وسط حريمهم وخصيانهم ورجال بلاطهم ووزرائهم . واذا كشفنا النقاب عن حياة البلاط فى احدى حفلاته الدائمة ، لوجدنا أنظار مئات من رجال البلاط الذين كانوا يرتدون الملابس الزاهية تتركز على الخليفة ، ويقوم كل منهم بممارسة طقوس يصاحبها دقات الطبول .

ومع أن الخلفاء العباسيين اختاروا هيئة بلاطهم من جميع أنحاء الدولة الشاسعة ، الا أن العنصر الفارسي كان هو الغالب • وحتى جيوشهم كانت تتكون ، أساسا ، من الفرق الفارسية • وتميز بلاطهم بوجود أقسام ادارية محددة اختصاصاتها تحديدا واضحا ، ويشرف عادة على كل منها وزير ينوب عن الخليفة ويتمتع بسلطة كبيرة فى أغلب الأحيان • ومن بغداد امتدت شبكة ادارية منسقة تراقب حكام الولايات ، وهم الأمراء الذين أقاموا بدورهم عاصمة وبلاطا فى كل منها على نمط بغداد العاصمة وبلاطها • وقد أقام الأمراء ، أيضا ، حكومة دينية تتحمل المسئولية على المستوى المحلى • وبذلك حلت بتوجيه العباسيين دولة بيروقراطية واسعة محل جماعة المحاربين القدامى •

كذلك تمخضت عن النظام الذى أوجده العباسيون مظاهر غير مرغوب فيها ، مثل مؤامرات البلاط ، والمذابح السياسية المستمرة ، والجاسوسية • ووسائل الارهاب التى اتسم بها الحكم السياسى • ومع ذلك ، كانت الحكومة قوية عندما تولى تسييرها الخلفاء الأكفاء ، وانعكست قوتها فى فخامة العاصمة بغداد وبهائها خلال حكم هارون الرشيد وعدد من خلفائه ، كما تكشف عن ذلك قصص الف ليلة الشهيرة فكانت بغداد مدينة تضم أكثر من نصف مليون نسمة ، وكانت تلى القسطنطينية من حيث حجمها • كما كانت مساجدها الفخمة ، وقصورها الرائعة ، ومبانيها العامة ، وحوانيت أصحاب الحرف فيها التى تعج بالضجيج ؛ وشوارعها المرصوفة ، والنظام الذى اتبع فى توزيع المياه — كان كل هذا يعكس الثروة التى تدفقت على المدينة من الجزية والتجارة• وكانت دار الخليفة هم أفخم مبانى المدينة ، ويطلق عليها اسم « قصر البوابة الذهبية » • وكانت قبته تعلو شامخة لتطل على المدينة والسهل الذى يحيط بها •

أما الطبقات العليا فكانت تنعم بنعماء الترف ، وتعيش فى دور ازدانت بالفسيفساء اللامع والقراميد ، الأمر الذى يضفى عليها رونقا

وجمالا • كما تزين أفرادها بالملابس الحريرية الناعمة والجواهر الثمينة، وتعطروا بالعطور النادرة • ووجد الشعراء والفنانون كل رعايـــة من أغنياء المدينة • أما الطلاب ورجال العلم فقد كان لهم « بيت الحكمة » المشهور ، وهو الجامعة العظيمة التى أنشأها الخليفة المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م)، وقد زودت بمكتبة ضخمة ومعامل بها كافة التسهيلات اللازمة• وقام كبار العلماء بتدريس كل فرع من فروع المعرفـــة تقريبا ، وقد وفدوا اليها من كافة أرجاء الدولة • كما وفـــد الى بلاط الخليفـــة والى الأسواق والمدارس ، سيل من الرحالة والزوار الذين قدموا الى تلك المدينة العالمية من جهات نائية ، وأشاعوا جوا عالميا فيها •

وعلى النقيض من ذلك ، كانت عاصمة شارلمان فى آخن بدائية • فهى بسكانها الذين لايتعدون الوفا قليلة،وبكنيستها وقصرها المتواضعين، وحفنة العلماء الذين جاهدوا لاتقان مبادىء اللغة اللاتينية ولتدريس مناهج مبسطة من الدراسات لعدد قليل من الطلبة ، وحاجتها الى التجارة والصناعة المزدهرة ، وغلبة نبلائها الذين لايظهرون فى المدينـــة الا عند استدعائهم للقتال فحسب — هى بكل هذا وذلك انما تشير ، بشكل ما ، الى تفوق الشرق على الغرب فى القرن التاسع الميلادى •

ولم يحاول نظام الحكم العباسى الجديد السير على منوال سلفه باستئناف حملات الغزو العسكرى • بل سعى الى اكتساب تأييد الفرنجة فى الغرب ضد مسلمى اسبانيـــا الذين رفضـــوا الاعتراف بسيـــادة العباسيين • وقد أثار هارون الرشيد ، مثـــلا ، ضجة كبرى فى بلاط شارلمان عندما وصل سفراؤه عام ٨٠١ م ، ثم مرة أخرى فى عام ٨٠٧ م، يحملون هدايا فاخرة من بينها فيل وساعة مائية • وكان هـــذا الموقف الودى من جانب خلفاء بغداد قد خفف من الضغط الاسلامى على الغرب الأوروبى • كما كانت الحملات المتفرقة الموجهـــة ضد الامبراطورية البيزنطية تنتهى فى كثير من الأحيان بمفاوضات سلام • وبدأت الحدود الفاصلة بين بيزنطة والدولة الاسلامية تبرز عبر آسيا الصغرى • وبهذا

التقسيم الواضح بينهما ، شعر كل من المجتمعين بالأمـان فيما وراء حدوده الجديدة • والواقع أن المسلمين استطاعوا بالفعل لقتطاع أقاليم هامة معينة من الامبراطورية البيزنطية خلال تلك الفتـرة من الزمن ؛ وأهمهـا كريت وصقليـة • ولكنهـم لم يعـودوا يلتهمون الممـالك والامبراطوريات فى محلات عاصفة عاتية • وقـد أزاح توقف الزحف العسكرى عبئا ثقيلا عن عاتق بيزنطة ، وأوجد حالة من الاستقرار فى عالم البحر المتوسط ظل يتمتع بها حتى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى وبداية الحروب الصليبية •

لقد استمتع العالم الاسلامى خلال القـرون الأولى من الحكم العباسى برخاء ملحوظ • اذ كان المسلمون قد استولوا على أجزاء من أغنى مراكز الزراعة والتجارة والصناعة فى العالم • ثم قاموا بربط هذه المراكز الاقتصادية فى دولة واحدة ، مما سهل عمليات التبادل الاقتصادى بينها • كما شجـع العباسيون نمـو التجارة فيما يتعلـق بالمنتجات والصناعات الدقيقة • لقد شجعوا التجارة كما شجعوا الزراعة بصفة خاصة رغبة منهم فى توسيع قاعدة الضرائب (التى يجبونها) • وكانت المنتجات الاسلامية ، وبخاصـة الصلب الدمشقى والجلـد القرطبى والسجاد الفارسى والزجـاج السورى والـورق والأقمشة الكتانية والقطنية والحريرية ، تعتبر من أجود المنتجات فى العـالم • وكانت أساليب الزراعة هى أكثر الأساليب المعروفة تقدما فى هذا العصر • وقد ذهل الأوروبيون الغربيون عندما رأوا ، لأول مرة ، المنتجات الزراعية المتعددة التى تم انتاجها فى اسبانيا وسورية والأراضى المقدسة • وكان مما استرعى نظرهم ، على وجه الخصوص ، الدواجن الرشيقة والسكر والفاكهة • وبسبب تفوق كل هذه النواحى ، بدأ استخدام العديد من الألفاظ الشائعة فى اللغة الانجليزية التى اشتقت من المصطلحات العربية لمنتجات حوانيتهم ومزارعهم مثل الموسلين والكحول والبرتقال والليمون والحرير الدمشقى المزركش والقطن والقهوة والشربات •

وساعد على زيادة النمو الاقتصادى انتشار لغة عامة سهلت الى حد بعيد — السفر والترحال وتبادل السلع والبضائع • وأسهمت السهولة التى استطاع بها السكان المقيمون فى جزء من تلك الدولة ، فى التعرف على الظروف والأحوال المعيشية للناس فى أجزائها الأخرى البعيدة ، على خلق أذواق جديدة • واستتبع ذلك الاقبال على بضائع جديدة • ونتج عن مجموع هذه المؤثرات نمو التجارة والصناعة والزراعة • وبذلك ارتفع معدل الرخاء فى العالم الاسلامى ، بل كان هذا المعدل أعلى من أى مستوى آخر ينعم به الناس فى العالم المعاصر •

عالمية الاسلام

يحتمل كثيرا أن التطور السياسى والاقتصادى فى العصر العباسى الأول لم يسهم فى تكوين المجتمع الاسلامى بقدر اسهامه فى الانتشار السريع للاسلام ، وما استتبع ذلك من خلق مجتمع المؤمنين الكبير وحتى فى أيام حكم الخلافة السابقة ، دخل فى دين الاسلام كثير من غير العرب • ومما يدعو الى السخرية أن هؤلاء ساعدوا على سقوط حكامهم • ذلك لأن الأمويين كانوا يعاملون غير العرب ممن اعتنقوا الاسلام معاملة من هم أقل شأنا من العرب • وعلى هذا كانوا على استعداد لمساندة التحدى العباسى الذى وعد بالمساواة بين كل المسلمين وتحقيق وحدة الاسلام • وفى ظل النظام الجديد استمر دخول الناس فى الاسلام يزداد زيادة مطردة ، حتى أصبح غالبية سكان المنطقة الممتدة من اسبانيا الى الهند من المسلمين •

ويبدو أن معظم الحالات التى اعتنق فيها أصحابها الاسلام ، نتجت أساسا عن مزايا الدين الاسلامى • فقلما لجأت الحكومة العباسية الى القوة كوسيلة لدخول الناس فى الدين الجديد • وكانت سياستها التى درجت عليها هى اعطاء حرية كبيرة لجميع الجماعات الدينية داخل نطاق الخلافة ، وبخاصة اليهودوالمسيحيين الذين يعتبرون طبقا للشريعة الاسلامية جماعات كشف الله لها جانبا من الحقيقة • ولقد فرضت

الحكومة فعلا الضرائب على غير المسلمين ، ومنعتهم من تقلـد وظائف معينة • ولكن يحتمل أن هذه الأمور لم تكن عنيفة لدرجة الاجبار على تغيير الدين • وهكذا انتشر الدين الاسلامى بفضل محاسنـه ومزاياه ، وأصبح رباطا فعالا للوحدة •

وقد قيل مرارا ان القرن الذى يقع بين عامى ٧٥٠ ، ٨٥٠ م هو الذى أعطى تعريفا للدين الاسلامى الحنيف الذى استمر مـدة طويلة باعتباره قوة فعالة مؤثرة فى سير مجرى التاريخ • وقد اتخـذ الدين شكله الأساسى ، بطبيعة الحال ، زمن الرسول ﷺ الذى نزل عليه القرآن بالوحى ، وجمع بعد انتقاله الى ربه بسنوات قلائل • وكرس رجـال الفقه والشريعة جهودا ضخمة فى العصـر العباسى لدراسـة وتفسير الأحاديث النبوية الشريفة المنسوبةالى رسول الله(ﷺ)•كذلك عمل هؤلاء أيضا بجد للتوفيق بين الحقائق الدينية الاسلامية وبين المفاهيم الدينية والفلسفة الأجنبية التى كانت سائدة فى ربوع العالم الاسلامى • وكانت حصيلة دراسة الأحاديث الدينية ذخيرة هائلة من المادة التى أعانت على تفسير القرآن الكريم وتوضيح مفاهيمه • وأصبحت الأحاديث مصدرا لاغنى عنه بالنسبة للمسلمين المتمسكين بأهداب الدين والذين أطلـق عليهم اسم المسلمين السنيين • وترتب عـلى ذلك أن أصبحت العقيدة التى تضمنها كتاب الله دينا دقيقا عميق المعانى • وزاد الاهتمام بدراسة الشريعة واستنباط قواعد السلوك تناسب المسلم • ونظرا لأن القرآن لا يتضمن قدرا كبيرا من المادة التشريعية ، أصبحت الشريعة الاسلامية موضع دراسة متعمقة • واضطر رجال الشريعة والقانون الى استخلاص قوانين خاصة من المبادىء العامة ، الأمر الذى ترتب عليـه اختلاف فى الرأى • ولكن ، نتج عن ذلك أيضا مجموعة مفصلة كبيرة من القوانين التى تنص على حقوق المسلم وواجباته • وقد التزم أهـل السنة بهذه الشريعة ، التى أصبحت مصدرا آخر من مصادر الدين الاسلامى الذى نادى به محمد ﷺ •

ولم يؤد دخول الناس فى الاسلام على نطاق واسع ، بالاضافة الى الأمور المتعلقة بالعقيدة والمذهب السنى ، الى تحقيق وحدة دينية كاملة فى أرجاء الخلافة العباسية . ذلك أن الجماعات الكبيرة النشطة من غير المسلمين ، من اليهود والمسيحيين والزاردشتيين ، استمر وجودها داخل الدولة الاسلامية . وفى أواسط القرن التاسع الميلادى بدأت الانقسامات الجوهرية تبرز فى المجتمع الاسلامى . فقد وجد السنيون تحديا من قبل طائفة الشيعة التى أضر أتباعها على أن نسل على زوج ابنة الرسول هو الذى حافظ على جوهر الاسلام أكثر من الخلفاء الأمويين والعباسيين الذين نظر اليهم الشيعة كمغتصبين . وأخذت هذه الطائفة فى تطوير عقائدها وطقوسها الى أن انقسمت الى شيع داخلية تقف من أهل السنة موقف المعارضة . وبالرغم من هذه الانقسامات الدينية ، أدرك العالم الاسلامى أن الدين هو أوثق رباط للوحدة ، واعتبر العصر العباسى الأول العصر الذهبى للايمان الصحيح الجامع .

تطور الثقافة الاسلامية

ان الرابطة الروحية للعالم الاسلامى التى قوت من أواصرها التطورات الدينية ، قد رفعت من شأنها تلك النهضة الثقافية النشطة التى انتشرت فى كافة أرجاء الخلافة . وشاهد القرن الأول من التاريخ العباسى المولد الحقيقى لثقافة اسلامية متميزة . فلم يهتم المحاربون العرب فى الفترة السابقة اهتماما يذكر بالأمور الثقافية . ولذلك كانت مكونات الحياة الثقافية فى ظل الحكم الأموى ، أساسا ، امتدادا للتقاليد الثقافية أيام الجاهلية وما قبل الاسلام ، من يونانية ورومانية وفارسية وهندية مع تفاعل بسيط (بينها وبين تلك الثقافات) . ولقد شاهد العصر الأموى ، بالفعل ، بداية احياء ثقافى نتج عن انتشار لغة واحدة ودين واحد . ولكن ، قبيل عام ٧٥٠ م لم يكن هذا التطور الجديد قد آتى ثماره بعد .

ولقد ارتكز الاحياء الثقافى المبهر فى العصر العباسى الأول ،

والذى قدر له أن يؤثر على مجرى تاريخ العالم كله ، فى بدايـــة الأمر على ترجمة قدر كبيرمن المعارف اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية • فأصبحت هذه المعارف فى متناول جميع طلاب العلم المسلمين• وكانت دائرة المادة المنقولة الى العربية منسعة هائلة ، اذ تناولت علم الفلك ، والرياضيات ، والطب ، والكيمياء ، والجغـرافية ، والفيزياء ، والفلسفة ، والأدب ، وعلم الأخلاق ، والقانون • وكـان أبرز هؤلاء المترجمين المتضلعين فى العلم ، والذين اتخذوا من بغداد مركزا رئيسيا لهم ، من غير العرب • لقد كانوا من السوريين والفرس الـذين تعلموا كمسلمين اللغة العربية ، ولكـن ثقافتهم كانت مبنية علـى تقاليدهم الوطنية • وفى هذا العالم الواسع للدولة العباسية الذى احتضن الجميع، كانت معارفهم تتطلب الرعاية بصرف النظر عن مصادرهـم وأصولهم • كما شاهد هذا العصر تطورا سريعا لتلك الجوانب من المعرفة ، وبخاصة ما يناسب مواضيع الدراسة مثل اللغويات والمنطق والنحو • وكان نشاط طلاب العلم المسلمين فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٨٥٠ م يشبه نشـاط طلاب العلم الكارولنجيين فى نفس الفترة من الزمـن • وعلى هـذا ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن نهضة عباسية مماثلة للنهضة الكارولنجية ، طالما أن كلا منهما كانت تبحث عن أسس ترتكز عليهـا وينطلق منهـا العلم الجديد ، تكون مستمدة من التقاليد الثقافية السابقة • ومع ذلك ،ليس ثمة ما يجعل المرء يلمس انطلاقة النهضة العباسية أكثر من مقارنة دائرة الدراسات الاسلامية بمثيلاتها فى المدارس والأديـرة الكارولنجية • ويبدو أن الجهود التى بذلها الكارولنجيون فى سبيل استعادة واجادة فهم عدد قليل من مؤلفات اللاتين القدامى ، كانت أمرا يرثى له اذا مـا قورن بالعدد الهائل من المؤلفات العلمية والفلسفية المتنوعة التى وضع المسلمون أيديهم عليها •

ولم يترك العصر العباسى الأول سوى القليل فيما يتعـلق بفن المعمار والنقش يمكن أن نحكم على أساسه على مدى التقدم الذى تم فى هذين المجالين • اذ دمرت ، لسوء الحظ ، جميع آثار بغداد العظيمة•

وتشير الشواهد القليلة الباقيـة الى التطور الذى طـرأ على أسلوب الفن المختلط الذى نتج عن الاقتباس من النمـاذج اليونانية والرومانية والهندية والفارسية، والمصرية•فاذا اتخذنا أحد المساجد كأنموذج نجد أنه يشبه البهو الطويل ذى الأعمدة الموجود فى مصر ، والقوس الـذى يشبه حدوة الحصان المطلى من الخارج بالجبس الناعم فى بلاد الفرس، والعقود والقبوات البيزنطية المرتكزة على أعمدة من الرخام • وأصبح استخدام الزخارف الهندسية وزخارف من الفسيفساء من خصائص الفن الزخرفى • وبسبب المحرمات الدينية التى تتمثل فى عدم ابراز أجـزاء الجسم البشرى ، فان الرسم والتصوير الدينى لم يتطورا بحـرية فى العالم الاسلامى • ومع ذلك فقد انتشر أسلوب نشط من أساليب الرسم فى زخرفة القصور ، وكذلك فى الرسـوم الجميلة التى ازدانت بهـا المخطوطات • ومع ذلك ، فالدليل واضح على أن الفن الحى الجديد فى العصر العباسى ، شأنه شأن العلم الواسع المعاصر له ، انما استمد قوته الأساسية من مزيج من المصادر والأصول والتقاليد السابقة •

بيزنطة فى العصر اللاأيقونى (٧٤١ — ٨٤٣ م)

ليس هناك مجال للمقارنة بين مـا حققه الحكـام الكارولنجيون والخلفاء العباسيون من جهة ، وبين جهود الأباطـرة البيزنطيين خلال النصف الأخير من القرن الثـامن والنصف الأول من القـرن التاسع الميلادى من جهة أخرى • لقد عانت بيزنطة من انهيار آخر فى مكانتها تلك الحقبة من الزمن • ولم تكن خسارتها اقليمية ، مثلما كان الحـال منذ عهد جستنيان حتى أوائل القرن الثامن • وانما كانت الخسارة التى حلت بها قد أصابت هيبتها على وجه الخصوص • ذلك أن ادعاء أباطرتها بأنهم الرؤساء الوحيدون للعالم الرومـانى المسيحى قـد واجهه ادعـاء الكارولنجيين المضاد بأحقيتهـم فى اللقب الامبراطورى فى الغرب على الأقل • وفى نفس الوقت وجد البلاط البيزنطى منافسا قويـا آخر فى البلاط الاسلامى فى بغداد • وكانت النهضة الاسلامية قد بلغت نفس

مستوى الحياة الثقافية فى الدولة البيزنطية ، ان لم تكن قد تفوقت عليها ، كما تحدتها النهضة الكارولنجية • وكان الانهيار النسبى الذى أصاب بيزنطة ، الى حد كبير ، بسبب المشاحنات الدينية المريرة التى فرقت السكان شيعا وأقساما ، وأصابت الحكومة الامبراطورية ، بالشلل فى بعض الأحيان • ومع ذلك ، احتفظ المجتمع البيزنطى فيما بين عامى ٧٤١ ، ٨٤٣ م بالفعل ، بقوة أساسية فى صميم نظمه وثقافته مهدت الطريق لحركة احياء لامعة حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى • وقد ساعد ذلك على استعادة الامبراطورية سريعا لشهرتها من جديد •

الحركة اللاأيقونية ، والسياسة ، والدفاع

تعتبر المسألة الدينية موضوع الخلاف البارز فى التاريخ البيزنطى فى الفترة الواقعة بين عامى ٧٤١ و ٨٤٣ م • وقد أدت الهجمات الأجنبية، والحق يقال ، الى تعقد الوضع الداخلى بين وقت وآخر ، وبخاصة الهجمات التى شنها المسلمون والبلغار ، والتى ألقت عبئا ثقيلا على كاهل الحكومة الامبراطورية ، مع أنها قلما كانت تشكل تهديدا لوجودها • وفى الحقيقة كانت القوات البيزنطية ، خلال الفترة المبكرة من العصر اللاأيقونى ، قادرة بالفعل على اتخاذ موقف الهجوم ضد المسلمين والبلغار • فكان ليو الثالث قد صد الهجوم الاسلامى الكبير عام ٧١٧ / ٧١٨ م ، وبدأ فى تحرير آسيا الصغرى • كما قام باصلاحات داخلية تهدف الى تقوية الجيش وطبقة الفلاحين والادارة المركزية • وترك امبراطوريته عند موته أقوى نسبيا مما كانت عليه من قبل • واستغل خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) الموقف الجديد بمهارة فائقة • فاستفاد من الضعف الذى حل بالعالم الاسلامى أثناء فترة انتقال الحكم من الأمويين الى بنى العباس فى استرداد بقية آسيا الصغرى • وفى نفس الوقت نجح ، بعد حروب طويلة ، فى ايقاف التوسع البلغارى فى البلقان •

ومع ذلك ، فهؤلاء الحكام الأقوياء المشار اليهم كانوا قد أحدثوا جرحا عميقا فى المجتمع البيزنطى بتفجير الصراع حول الصور والأيقونات المقدسة ، خاصة عندما أصدر ليو الثالث مرسومه فى عام ٧٢٦ م الذى يقضى بمنع رعاياه من استخدام الأيقونات ، أى التماثيل والصور الملونة أو التى استخدم فى عملهـا الفسيفساء ، فى العبادة الدينيـة • وكانت العوامل التى أدت الى اتخاذ هذا القرار معقدة • فمنذ بداية التاريخ المسيحى تقريبا كانت هنـاك جوانب فنية تستخدم لتجميـل الطقوس والشعائر الكنسية ، بالرغم من المعارضة المستمرة بأن مثل هذه الأمور قد تؤدى الى عبادة الأوثان نفسهـا • وأصبحت التماثيـل والصور والرسوم الملونة بألوان زاهية براقة فى القرن الثامن وسيلة هامة للتعبير عن التقوى • وواجه بعض المؤمنين صعوبة واضحة فى التمييز بين هذه الآثار المادية الملموسة وبين الالـه المعبود • ومـع أن مشكلة عبادة الأيقونات كانت سائدة فى كل انحاء العالم المسيحى ، الا أنهـا كانت تتميز بخطورتها على وجه الخصوص فى الامبراطورية البيزنطية • وربما كانت حالة الريبة والشك القاتلة التى فرضها على سكان الامبراطورية خطر الغزو المستمر خلال القرن السابع الميلادى ، قد جعلـت الكثيرين يعلقون الآمال الكبار على حدوث معجزة فى شئون حياتهـم اليومية • ويتضمن الأدب البيزنطى فى ذلك العصر اشارات لاعد لها الى صـور المسيح والعذراء التى كانت تتكلم ، وتشفى المرضى ، وتهدىء العواصف ، وتساعد المؤمنين البؤساء بمختلف أنواع المساعدة • وملأ كثير من الناس بيوتهم بالأيقونات التى اعتقدوا فى قدرتها على اتيان المعجزات ، كمـا زينوا ملابسهم بها • وكانوا يبتهلون اليها ، ويرتلون لها ، ويضيئون أمامها الشموع • واعتقدوا اعتقادا راسخا بأن هذه الأيقونات ما هى فى الحقيقة الا قوى الهية •

وكان لهذا التطرف الذى تجاوز الحد ، فى النهاية ، رد فعل بـين البيزنطيين • لقـد كانت المعارضة قوية ، على وجـه الخصوص ، فى الأناضول فى الولايات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، حيث احتـج

الأساقفة الأقوياء على سند لاهوتى ، وحيث اتجــه الفلاحون السذج البسطاء ربما نتيجة اتصالهم الوثيق باليهــود والمسلمين ، الى حياة الطهر . وأصبحوا أقل ميلا الى المطالبة بصور مادية ملموسة لالاههم . ويشير تمركز حركة معارضة عبادة الأيقونات فى بلاد الأناضــول الى تغلغل المؤثرات الدينية الشرقية القوية داخــل الامبراطورية البيزنطية خلال القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد والتى تقلهــا معهم الجنود المسلمون . ولما كان ليو الثالث سورى المولد ، فقــد شب عــلى كراهية شخصية عميقة لعبادة الأيقونات . ويبدو أن هــذه الكراهيــة ازدادت خلال السنوات العديدة التى قضاهافىالأناضول كقائد عسكرى. واشتبكت مع مسألة الأيقونات وتداخلت معها مشكلة الدور الذى تلعبه الرهبنة فى المجتمع البيزنطى . فقد كان الرهبان أثناء قيامهم بتطوير أسلوب الطقوس الدينية المعقد المنمق ، قد مارسوا سلطتهم القوية على عناصر كبيرة من السكان .وكان الدير البيزنطى النموذجى عامرا بالذخائر والآثار المقدسة التى قامت من حولها الاحتفــالات الدينية المنمقة . ونتيجة لذلك تلقت الأديرة هبات لا حصر لها من المؤمنين ، بحيث بدت منافسا للأباطرة أنفسهم فى ثرواتهم ونفوذهم .

وقد منع ليو الثالث فى المرسوم الذى أصدره فى عــام ٧٢٦ م ، استخدام الأيقونات فى الخدمات الدينية . ولاشك أنــه كان يأمل من وراء ذلك تطهير الحياة الدينية البيزنطيــة من ناحية ، والقضــاء على السلطة المطلقة التى كانت تتمتع بها الأديرة من ناحية أخرى . ومنــذ اللحظة الأولى قوبل المرسوم بمقاومة شديدة ، وبخاصة من قبل الرهبان وسكان القسطنطينية والولايات الأوروبية . ولكن ليو لم يتراجــع عن قراره ، وثبت عليه . وعاد فأصدر مرسومــه مستهينا بالاضطرابات الشعبية التى كانت القسطنطينية مسرحا لها . وخلع البطريارك الــذى عارض فى أمر الاصلاح ، وأحل محله بطرياركا مؤيدا لحركــة تحطيم الأيقونات . كما اتخذ اجراء قانونيا ضد الذين عارضــوا مرسومه . وواصل خليفتاه قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) وليو الرابــع

(٧٧٥ — ٧٨٠ م) سياسته • وكان قسطنطين ، بصفة خاصة ، متحمسا لهذه القضية • وأخذ يجرد الكنائس ، دون هوادة ، من محتوياتها الفنية الرائعة ، مضطهدا المدافعين عنها المعروفين باسم « متعبدى الأيقونات » «Iconodules» ومع أن الاجراءات التى اتخذها قد وطدت أقدام محطمى الأيقونات فى الوظائف الكنسية الكبيرة ، الا أن سياسته لم تلق مطلقا تأييد جميع رعاياه • وتحت وطأة الاضطهاد حـــدد متعبدو الأيقونات موقفهم ، وخرجوا بدفاع لاهوتى فعال • وكانت المعارضـــة البابوية (فى روما) للحركة اللاأيقونية أمرا بالغ الخطورة ، لأنها أدت الى قيام التشاحن بين البابا والامبراطور ، كما كانت السبب — الى حد ما — فى اتخاذ القرار البابوى الخاص بالتحالف مع الفرنجة • وقد أنتهى هـــذا الاتفاق — حسبما سلف — باستيلاء البابوات والفرنجة على أجزاء كبيرة من الأرض البيزنطية فى ايطاليا •

وبعد الموقف الصلب الذى لا يلين الذى وقفه كل من ليو الثالث وقسطنطين الخامس وليو الرابع فيما يتعلق بتحطيم الصور والأيقونات، عانت الامبراطورية (البيزنطية) من نتائج مثيرة للقلق من جراء انقلاب فجائى فى الأوضاع السياسية • ففى عام ٧٨٥ م أصبح ابن ليو الرابع البالغ من العمر عشر سنوات ، وهو قسطنطين السادس ، امبراطورا تحت وصاية أمه ايرين • ولما كانت ايرين ، بصفتها الشخصية ، تعارض حركة تحطيم الصور والأيقونـــات ، يساندها فى ذلك قطـــاع قوى فى الامبراطورية ، فقد دعت الى عقد مجمع مسكونى فى مدينة نيقية عـــام ٧٨٧ م لاصدار الأمر باعادة عبادة الصور والأيقونـــات • وبذلك اتخذ محطمو الصور والأيقونات موقف الدفـــاع ، واستمروا فى معارضتهم الصارمة للسياسة الامبراطورية الجديدة ، مستغلين بمهارة طموح ايرين فى الاستحواذ على العرش لنفسها ، كوسيلة لتدعيم مركزهم • وفعلا نجحت ايرين فى الاستيلاء على العرش عام ٧٩٧ م بعد أن خلعت ابنها وسملت عينيه • ولكن ثمن طموحها كان غاليا • فقد شك الكثيرون من رعاياها فى شرعية استيلاء امرأة على العرش • وكان اغتصـــابها للتاج

ذريعة لتتويج شارلمان امبراطورا عام ٨٠٠ م . ولم يعترف الامبراطور البيزنطى صراحة بوجود امبراطـور غربى الا فى ٨١٢ م . ولكنه بدا واضحا أن الهيبة البيزنطية قد أصابتها لطمة شديدة قبل ذلك التاريخ من جراء العمل الجرىء الذى أقدمت عليه البابوية والفرنجة . كما ضعف الدفاع عن الحدود فى عهد ايرين ، ونتج عن ذلك استئناف المسلمين والبلغار لهجماتهم تحت قيادة حاكميهم العظيمين هارون الرشيد وكروم Krum .

وقد تركت ايرين التى خلعت فى عام ٨٠٢ م لخلفائها الذين جاءوا بعدها مباشرة ، تركة مثقلة بسبب مؤامرات البلاط والتهديدات الخارجية والخزانة الخاوية . وهى صعاب أضيفت اليها حملة الأباطرة من جديد على الأيقونات . وفى عام ٨١٣ م تولى العرش ليـو الخامس ، وهو قائد عسكرى آخر من الأناضول . وتحت تأثير منبته الشرقى ، وتشجيع رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يكرهون استخدام الصور والأيقونات ، أبدى رغبته فى مجاراة ليـو الثالث وقسطنطين الخامس . ففى عام ٨١٥ م أصدر الامبراطور الجديد مرسوما يقضى بالغاء جديد للصور والأيقونات . وواصل سياسته خليفتاه ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وثيوفليوس (٨٢٩ — ٨٤٢ م) . ومع أن هؤلاء الأباطرة جميعا قد لجأوا الى اساليب العنف لفرض سياستهم ، الا أنهم لاقوا فى هذه المرحلة الثانية من الصراع اللاأيقونى معارضة أشد عنفا وأكثر تصميما واصرارا عما عرف من قبل . فقد كرس أهل القسطنطينية والولايات الغربية أنفسهم بحماسة بالغة للاحتفاظ بالصور والأيقونات التى يحبونها . ولم تفلح المراسيم والأوامر الامبراطورية فى اقناعهم بالتخلى عنها . وقام الرهبان الذين قادوا حركة المعارضة ضد اللاأيقونية بحملة ماهرة نجحت فى توسيع شقة الخلاف حتى امتدت الى العلاقات بين الكنيسة والدولة . ونجحوا كذلك فى تشكيك الشعب فى صلاحية ادعاء الأباطرة بالسيطرة على الكنيسة . وتدعيما لهذا الاتجاه قاد شخص من دير ستوديون يدعى تيودور جيشا قويا من الرهبان المتعلمين . وبالاضافة

الى استخدام الجدل اللاهوتى ، لجا متعبدو الصور والأيقونـات الى مؤامرات البلاط لخدمة قضيتهم • وأمام هذا الهجوم الماهر المدبر ، وجد الأباطرة رغم كفاءتهم كاداريين وكقادة عسكريين ، أنه من المتعذر فرض سياستهم الدينية بالقوة •

ومرة أخرى نجد أن التى أنهت الصراع اللاأيقونى كانت امرأة• فبعد موت ثيوفيلوس أصبحت أرملته تيودورا وصية على ابنها الصغير ميخائيل الثالث • وبعد أن تيقنت تماما أن الصـراع اللاأيقونى قد قوض السلطة الامبراطورية ، كما أنه فقد قدرته على اقنـاع الناس بتأييده ، بدأت هى ومستشـاروها فى ارجـاع الصور والأيقونـات بحرص وحذر • وفى نفس الوقت عاملت المتعلقين باللاأيقونية باعتدال ملحوظ ، الأمر الذى جعلهم يتقبلون هزيمتهم بسهولة • وقد أدت هذه السياسة المعتدلة الى غضب متعبـدى الصور والأيقونات المتطرفين ، وبخاصة أتبـاع تيـودور راهب ديـر ستوديون • ولكن الحكـومة الامبراطورية كبحت جماحهم بكل قوة • وسرعان ما أدركوا أنه لا أمل لهم فى املاء سياسة دينية على الحكومة الامبراطورية • وبانتهاء الصراع اللاأيقونى بدأ العصر الذهبى فى التاريخ البيزنطى • ومع ذلك فقد كلف هذا الصراع غاليا ، اذ نتج عنه نزاع داخلى مرير لمدة تزيد عن قرن من الزمان،الأمر الذى مهد الطريق لضياع الأقاليم الغنية فى ايطاليا•كماشجع ادعاءات الفرنجة فيما يتلعق بالتاج الامبراطورى ، وأضعف الدفاع عن الحدود الامبراطورية • وليس هناك من شك فى أن الأباطرة اللاأيقونيين الكبار كانوا ذوى مبادىء عالية وايمان قوى ، وقـد انصب تصميمهم على اصلاح الحياة الدينية فى امبراطوريتهم • ولكن رفضهم الاتفاق والمصالحة كلفهم الكثير • فقد تسبب فى الحط من مكانة الامبراطورية اذا ما قارناها بتلك المكانة التى كان يتمتع بها العباسيون والكارولنجيون•

الحضارة البيزنطية فى العصر اللاأيقونى

وعلى أية حال ، لم يسيطر الصراع العنيف حول الأيقونات سيطرة

تامة على التاريخ البيزنطى فى الفترة الواقعة بين عامى ٧٤١ و ٨٤٣ م • فقد عملت الامبراطورية خلال هذه الفترة على الاحتفاظ بكيانها السياسى والاقتصادى الأساسى ، مع العمل على تطويره • وكان هذا عاملا لـه فعاليته فى استرجاع قوتها وتخلصها بسرعة مما حل بها بمجرد انتهاء الصراع الدينى •

وترجع القوة الهائلة التى تمتع بها النظام السياسى البيزنطى الى ادعاء الامبراطور بالسلطة المطلقة باعتباره ممثل الله على الأرض • ولم يتساهل أى امبراطور اعتبارا من ليو الثالث حتى ثيوفيلوس أبدا عن ادعاءاته بحقه فى السلطة الأوتوقراطية ، والشعور بالمسئولية عن رفاهية رعاياه ومصلحتهم التى احتوتهـا ادعاءاته المبالغ فيهـا • وحتى أشد الأباطرة حماسة لحركة تحطيم الصور والأيقونات أمثال ليـو الثالث وقسطنطين الخـامس وثيوفيلوس ، قد تمتعوا باحترام فائـق بسبب جهودهم التى بذلوها فى سبيل الدفاع عن الامبراطورية واقامة العدل بين رعاياهم • فقد أصبح ثيوفيلوس ، على سبيل المثال ، بطلا فى أعين سكان القسطنطينية لجهوده فى نشر العدالة • اذ قـام بجولات قصيرة متكررة فى شوارع المدينة يستفسر من الناس عن أسعار المأكل والملبس، ويوقع العقاب على المتهمين بالغش • كما سمح بمقابلة أصحاب المطالب لعرضها عليه • وهكذا عملت البيروقراطية المركزية بكل كفـاءة لخدمة الامبراطور ، وأثبتت مقدرتها على احتفاظ الحكومة بوظائفها العادية طوال هذه الفترة من الزمن • فكان الأباطرة على دراية تامـة بمسألة انضباط سلوك موظفيهم المدنيين العديدين • فقد أخذ ليو الثالث على عاتقه ، مثلا ، مهمـة مراجعة قانون جستنيان الـذى يتميز بأهميته ، حتى يمكن تزويد المحاكم الامبراطورية بدليل تهتدى به وتفيد منه فى أعمالها • وكان هذا القانون الذى راجعه والذى يطلق عليه اسم ايكلوجا Ecloga مكتوبا باللغة اليونانية بدلا من اللغة اللاتينية • كما كان يمثل صبغ أجزاء من قانون جستنيان بصبغة حديثة لتتناسب ومطالب العصر الجديد •

وكان العجز فى الدخل يعرقل ، فى فترات متباعدة ، أعمال الحكومة الامبراطورية . ولكن الاصلاحات التى قام بها الأباطـرة كانت تمد الدولة ، مرة أخرى ، بالموارد المالية اللازمة لحكومة قادرة على العمل . ويبين النظام المالى السليم الذى تمتعت بـه الامبراطورية البيزنطية تناقضا واضحا مع الدولة الكارولنجية المعاصرة لها (فى الغرب) ، والتى كان عليها أن تعتمد على الخدمات الشخصية التى يؤديهـا الأفصال التابعون للملك لتسيير شئون الدولة . وقد مارس الامبراطور سلطاته بفعالية من خلال نظام كفء للحكومة المحلية التى نفذت مشيئته فى كل ركن من أركان الامبراطورية .

وربما كان النظام العسكرى الذى طبقته الدولة مصدرا أساسيا لقوتها ومنعتها . فقد استمر أباطرة العصر اللاأيقونى يستخدمون الجند المرتزقة فى النظام (الذى اتبع للدفاع عن الحدود) خلال القرن السابع الميلادى . وكان غالبية الجند من الفلاحين الأحرار الذين منحوا الأراضى نظير الخدمة العسكرية . وعمل الأباطرة على توسيـع وتنسيق نظام الثيمات حتى يضمنوا الافادة التامة من المصادر العسكريـة . وحتى عندمـا كانت المشاحنات الدينيـة على أشدها ، استطـاع الأباطرة اللاأيقونيون الاعتماد على القوات العسكرية للعمل بكل نشاط وكفاءة ضد الأعداء الذين هاجموا البلاد من الخارج . وكان خير عون لجهـود الجيش ذلك الجهاز الدبلوماسى البيزنطى المنسق أحسن تنسيق والذى أخذ يعمل فى كل مكان ، سواء فى العالم الاسلامى ، أو بين السلاف ، أو فى بلاد البلغار والغرب بهدف اكتساب حلفاء أو القضاء على أعداء. ولم تستطيع المشاحنات الداخلية المريرة ، بصفة عامة ، أن تضعف من كيان الأوتوقراطية البيزنطية فى ذلك العهد الى درجة خطيرة ، ولو أنها حولت طاقاتها فى بعض الأحيان الى مخاطرات لا فائدة منها ولا جدوى من ورائها .

وحتى خلال الصراع اللاأيقونى ، وبالرغم من جهود البعض ،

وبخاصة الرهبان ، لتحرير الكنيسة من السيطرة الامبراطورية ، فقد واصلت الكنيســة البيزنطية تأييدهــا القوى لسلطــة الامبراطــور الأوتواطور . فقــد كان بطريــارك القسطنطينيــة رأس الكنيســة البيزنطية ، وكان يعتبر نفسه ـ عادة ـ ممثلا للامبراطور الذى اختاره. وكان الأساقفة الذين يعملون فى خدمة البطريارك يسيرون ، عمومــا ، وفقا لارشاداته . وبذلك كونوا هيئة دينية واضحة المعالم تعمل على تشجيع الوحدة وفرض الطاعة داخل نطاق الامبراطوريــة . واستمر الشعب الذى كانت تحركه دائما المشاعر الدينية القوية فى استجابته للزعامة الكهنوتية . واستمر هذا التلاحم الوثيق بين الدولة والكنيسة، الذى بدأ مبكرا فى التاريــخ البيزنطى ، غير منفصم خــلال الصراع اللاأيقونى . وعلى الرغم من أن هذا الارتباط لم يكد يظهر وتتذاك ، فمن المحتمل أن النزاع الدينى العنيف قد عمق الحياة الروحية فى المجتمع البيزنطى ، وبخاصة فى محيط الأديرة ، بالكشف عن المبالغة والمغالاة فى الطقوس الخاصة بالقداس الالهى ، وبالزام المسيحيين على التفكير فيما تعنيه شعائرهم الدينية . وقد أسهمت الحركة اللاأيقونية ، أيضا ، فى فصل الكنيسة البيزنطية عن بقية المجتمع المسيحى . ولما كان البابوات يعتقدون أن الحركة اللاأيقونية هرطقة ، فقد وجهوا جهودهــم الى الحفاظ على نقاء الحياة الدينية فى الغرب بدلا مــن تكريس جهودهم للكنيسة العالمية . وعندما انتهى الصراع اللاأيقونى تماما ، كانت البابوية قد وثقت تحالفها مع الفرنجة ، الأمر الــذى أصبح معــه من المتعذر استئناف العلاقات بين روما والقسطنطينية على الأسس القديمة . وكان بطاركة القسطنطينية ، بالمثل ، قد استفادوا من اتساع شقة الخلاف عندما تم الاعتراف بهم باعتبارهم قادة الكنيسة البيزنطية . ومع أنه لم تكن هناك قطيعة (دينية) حتى ذلك الوقت بين الشرق والغرب ، الا أن كلا من شقى العالم المسيحى قد اقتنع اقتناعا راسخا بكيــان مستقل خاص به .

وكانت الحكومة الامبراطورية ترتكز ، هى الأخرى ، على أسس

اقتصادية متينة فيما يتعلق بالريف البيزنطى • فبعد أن سلم الأباطرة بأهمية طبقة الفلاحين المستقلة ، حاولوا تحسين ظروفها وأوضاعها ، وحماية أفرادها من تعسف أفراد الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأرض • وكان تشجيع التجار والصناع المهرة وتقدير الامبراطورية لهم ، يعتبر جزءا من السياسة العامة للدولة • ونتيجـــة لذلك ظلت القسطنطينية واحدة من أعظم مراكز التجارة والصناعة فى العالم ، حتى بعد كل ما أصابها فى هذا الشأن بسبب سيطرة المسلمين على المراكز الاستراتيجية الهامة فى حوض البحر المتوسط ، وبصفة خاصة فى صقلية وكريت • ولم تكن هذه الخسائر من الفداحة لتؤثر على نشاط الأسواق والحوانيت المزدحمة بالبضائع والناس ، والتى استمرت تمد العـــالم بسيل من المنتجات ، الأمر الذى ساعد على تألق وتنعم وثراء المجتمع البيزنطى •

وعلى أية حال ، لا يمكن اعتبار فترة الصراع حـــول الأيقونات فترة ثقافية لامعة • فقد قضى النقاش حول المسائل الدينية على الفن الدينى قضاء يكاد أن يكون تاما • كما كممت أفواه كثـــير من العلماء باضطهادهم ونفيهم وحتى باستشهادهم • وكان جانب من أدب العصر متحيزا لفريق دون آخر تحيزا شديدا ، حتى أنه فقد قيمته كلية •ومع ذلك فقد كان للجدال اللاأيقونى تأثير قوى • فانطلقت جهــود فكرية وفنية لها شأنها آتت ثمارها فى النهاية فى شكل نهضة ثقافيـــة رائعة • لقد أثار الصراع الدينى اهتماما لاحد لـــه بالدراسات اللاهوتية • اذ انكب الدارسون وطلاب العلم ، من كلا الجانبين ، على الدراسة جريا وراء ما يبرر آراءهم الشخصية • فأقبلوا على دراسة الكتاب المقدس وأقوال آباء الكنيسة بتعمق من نوع جديد لم يثر فقط اهتمامهم بالدين، بل أثار أيضا بطريقة غير مباشرة اهتمامـــا بالتربية والتعليـــم • فقد شحذت دراسة الكتاب اليونان القدامى ، مهارات الناس فى اللغة والمنطق وعلم البيان • ونجد مثالا واضحا لذلك فى الكتابـــات المستفيضة التى كتبها يوحنا الدمشقى (مات حوالى سنة ٧٥٠ م) ، وتيودور الستديونى Theodore of Studion وكانـــا من معارضى حركة تحطيم

الأيقونات • وقد لعب الأخير ، أيضا ، دورا هاما فى تأكيد أهمية النظام الداخلى والتعلم داخل الأديرة ، وهو الاصلاح الـــذى أدى فى النهاية الى تخريج عدد من قادة الفكر الذين قدر لهم أن يحققوا مجدا للمجتمع البيزنطى بعد عام ٨٥٠ م•

وحتى بالنسبة للفن الـــذى أثرت فيه حركـــة تحطيـــم الصور والأيقونات تأثيرا مدبرا للغايـــة ، كان ثمة شواهـــد تدل على حيوية متجددة • فلم يقف أولئك الذين كانوا يعارضون بكل عنف تمثيل المسيح والعذراء والقديسين فى شكل صور ، موقف العـــداء بالنسبة للفنون الأخرى • ونتج عن ذلك أن عمل الفنانون على تنمية نواح جديدة عبروا فيها عن أنفسهم بمهارة بالغة فى صور للحياة اليوميـــة ، وفى تصوير الأشخاص والموضوعات التاريخية • فكشفوا بذلك عن اتجاهات وميول واضحة نحو الواقعية التى حاكت الأساليب الهللينستية • هذا ، فضلا عما استخلصوه من نظريات مشتقة من الرسوم الهندسية الاسلامية • وقال أحد المؤرخين المعروفين المعنيين بالفن البيزنطى أن فترة تحطيم الصور والأيقونات قد شاهدت بذر البذور الفنية التى انتجت محصولا ذهبيا رائعا فى أواخر القرن التاسع وخلال القرن العـــاشر للميلاد ، بالعودة الى نماذج العصر الكلاسيكى المتأخـــر • وان استمرار هـــذا التقليد الحيوى القائم على الاهتمام بثقافة اليونان والرومان القدماء، والذى تأثر تأثيرا قويا بالمثل العليا الدينية ، قد أمـــد الحياة الفكرية والفنية فى بيزنطةبنوعية خاصة جعلها تتميز عن حضارة اوروبا الغربية والحضارة الاسلامية •

وهكذا مر عالم البحر المتوسط خلال القرن الممتد من سنة ٧٥٠م الى سنة ٨٥٠ م بمرحلة جديدة من مراحل تاريخه • ففى سنة ٨٥٠ م كانت الحضارات الثلاث المتميزة قد أرست دعائمها بوسائلها المختلفة بشكل أوضح مما كانت عليه الحال فى سنة ٧٥٠ م • فقـــد كان التقدم الذى أحرزه الأوروبيون الغربيون سريعا ، وبصفة خاصـــة فى تنظيم

حياتهم الثقافية والدينية والسياسية • كما أضاف المسلمون الى قوتهم العسكرية التى أثبتت وجودها ، ثقافة اسلامية متطورة ، مــع تحويل عقيدتهم الى ديانة عالمية حقة • وبالرغم ممــا اعترى الامبراطورية البيزنطية من ضعف فى الداخل من جراء المشاحنات الدينية المستمرة ، فقد دعمت أنظمتها الأساسيــة ، واحتفظت بشخصيتهــا فى النواحى السياسية والدينية والثقافية • وأما روما القديمة ، فقــد حجبتها عن الأنظار تقريبا فى عام ٨٥٠ م المجتمعات الثلاثة الجديــدة التى كانت تحتل فعلا مسرح الأحداث فى عالم البحر المتوسط • وقــد بدأت تمر بحالات الضغط والتوتر الناتجة عن علاقاتهــا الجديدة والظروف التى ألمت بها •

الفصل الثالث

الانقسام الداخلى فى الحضـــارة الجديدة

تفتت العالم الاسلامى :

التفكك السياسى .

القوى الموحدة .

انتعاش الدولة البيزنطية :

الدولة البيزنطية تستعيد نفوذها السياسى فى عهـد الأسرة المقدونية .

التطور الدينى .

النهضة الثقافية .

الدولة البيزنطية والعالم السلافى .

تجزئة الامبراطورية الكارولنجية :

نشأة ممالك الغرب الأوروبى .

نحو مجتمع اقطاعى .

الروابط العامة فى مجتمع غرب اوروبا .

دخلت منطقة البحر المتوسط حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى فى دور ثالث — وهو الأخير فى هــذه الدراسة — من أدوار نشــأتها وتطورها بعيدا عن وحدة روما القديمة التى انقسمت الى ثلاث حضارات هى : الحضارة الاسلامية ، والحضارة البيزنطية ، وحضــارة الغرب الأوروبى • وان الملامح المميزة للقرن الذى بدأ تقريبا بعد عام ٨٥٠ م، لاتختلف عن خصائص الحضارات الثلاث التى كانت قد رسخت وتوطدت بالفعل • فقد استمرت كل منها تنمو وتتطور فى اتجاههــا الخاص بها ، مؤكدة بذلك التحرك التاريخى الذى سبق اجماله فى الفصلين السابقين من هذا البحث • فلم يكن ثمــة فكاك من النتائج المترتبــة على ظهور الاسلام ، او صبغ الغرب بصبغة جرمانية ، أو التغييرات التى طرأت على بيزنطة فى ظل الضغط والمعانــاة • وتكمن أهميــة السنوات التى تلت عام ٨٥٠ م فى الأحداث التى طرأت على كل من هذه الحضارات الثلاث • فالوحدة التى كانت مظهرا من مظاهــر الحضارة البيزنطية لتتمش مع مقتضيات الظروف ، والتى أصبحت تقريبا حقيقة واقعة فى كلا المجتمعين الأوروبى الغربى والاسلامى فى عهد كل من الكارولنجيين الأوائل والعباسيين الأول — قد انهارت وحلت محلها الخلافات • اذ تفككت تدريجيا عرى الروابط الداخلية لكل من هذه الحضارات المختلفة تماما عن بعضها • وتخلفت عنها مجموعات مفككة غــير متماسكة من الوحدات السياسية التى ارتبطت معا بروابط ثقافية ودينية • وما تاريخ العصور الوسطى فى معظمه الا سجل للتطور المستمر لأجــزاء قائمة بذاتها تكون العــالم الاسلامى والامبراطوريــة البيزنطيــة والغرب الأوروبى • ومع ذلك ، فقد ظلت روابط الوحدة التى انبثــق معظمها قبيل القرن العاشر الميلادى قويــة ، بحيث أصبــح ضروريا بالنسبة للمؤرخ أن يواصل التفكير فى المصطلحات الخاصــة بحضارات الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية والعالم الاسلامى •

تفتت العالم الاسلامى

لقد كانت القوة الدافعة للتاريخ الاسلامى خلال القرن الأول من

العصر العباسى (٧٥٠ — ٨٥٠ م) بمثابة شعور عام قوى جاهد مستميتا لخلق وحدة سياسية مع تدعيم الوحدة الدينية وامتثال تراث ثقافى مختلف المصادر فى حضارة واحدة • ومع ذلك ، فقد بدأت الشروخ والتشققات فى القرن الذى تلا عام ٨٥٠ م تظهر فى النظام السياسى الاسلامى ، مما أنذر بوضوح بظهور دول مستقله متنافسة • ولكن بينما كانت هذه القوى المنقسمة المجزأة تعمل عملها فى هذه الناحية فى العالم الاسلامى ، كان ثمة تطورات دينية وثقافية تهدف الى تحقيق درجة من الوحدة كانت لها دلالتها بالنسبة لمستقبل التاريخ الاسلامى • وفى القرن العاشر الميلادى كان الاسلام قد أصبح عالما يتكون من عدة دويلات ، تلك السمة التى ظل يتسم بها ردحا طويلا من الزمن • وكثيرا ما وقفت احداها ضد الأخرى تعارضها معارضة شديدة • ومع ذلك ، فقد وجد الأفراد الذين عاشوا فى أركان القارات الثلاث (اوروبا وآسيا وافريقية) روابط عامة تربط بينهم ، وهى روابط الدين والثقافة •

التفكك السياسى .

أصر خلفاء بغداد بعد أواسط القرن التاسع الميلادى على المطالبة بلقب « أمراء المؤمنين » الذى كان يفخر ويتباهى به يوما العباسيون العظام فى العصر العباسى الأول • ولكن البيروقراطية الشديدة المركزية، والادارة المحلية القادرة ، والنظام المالى السليم ، والتكوين العسكرى القوى ، أخذت كلها فى الانهيار سريعا بعد عام ٨٥٠ م • واعترى الحكومة المركزية فى بغداد الانحلال والفساد • كما قامت أنظمة سياسية مستقلة فى ولايات الخلافة النائية •

وأخذ تماسك الحكومة المركزية ينهار تدريجيا تحت ضغط مؤامرات البلاط والخلافات الدينية وخيانة الحكام المحليين • وفى هذه الظروف أثبت الجيش القائم الذى جند أفراده أساسا من فارس ، عدم كفاءته بعد أن فشل فشلا تاما فى حماية الخلفاء ضد المؤامرات والاغتيالات المتكررة • واضطر المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، ثامن خلفاء العباسيين ،

الى ادخال فرقة من الأتراك كحرس للقصر فى بغداد ، أملا فى زيادة توفير الأمن لشخصه فى عاصمته • وهؤلاء الأتراك هم من الآسيويين الرحل الذين كانوا لفترة طويلة من الزمن العدو اللدود للدولة (الاسلامية) على طول حدودها الشمالية الشرقية • وما لبثوا أن أقنعوا الخلفاء بقدرتهم ومهارتهم كمقاتلين • وسرعان ما استطاعوا أن يجعلوا الخلفاء سجناء لهم وألعوبة فى أيديهم ، مع أنهم كانوا عبيدا لهم من الوجهة النظرية •

وحاول عدد قليل من الخلفاء فى القرن التاسع الميلادى أن يضعوا حدا لنفوذ الترك • فعلى سبيل المثال نجد المعتصم نفسه يذهب الى حد نقل حكومته من بغداد بصفة مؤقتة لتفادى وقوع صدام بين حرسه التركى وأهالى بغداد • ولكن أولئك الخلفاء كانوا لا حول لهم ولاطول أمام أتباعهم الشرهين (الطامعين فيهم) • وتحول تاريخ الخلافة العباسية سريعا حتىأصبح سجلا روتينيا رتيبا لثورات القصر التى نتجت عادة عن مؤامرات قام بنسج خيوطها حرس البلاط ، ولكنها كانت غالبا ناتجة ، فى أساسها ، من مؤامرات الطامعين من الحريم والخصيان والزوجات والموظفين المرتبطين بالجهاز الحكومى فى العاصمة ، وقد استهدف كلهم احلال خليفة بآخر • وفى عام ٩٤٥ م ، قاد أحد القادة الطموحين فعلا فرقته الحربية الى بغداد فى محاولة تستهدف أسر الخليفة • ولم تعد « مدينة السلام » الغارقة فى الفوضى وأعمال الشغب المتواصلة ، قادرة على القيام بعبء العمل الادارى اللازم لحكم تلك الدولة الكبيرة الشاسعة بشكل حسن • وسرعان ما بدأ القادة العسكريون الناجحون فى تسمية أنفسهم بلقب « أمير الأمراء » ، دالين بذلك على تفوقهم الحقيقى على أتباع الخليفة الأخرين • وفى غمرة هذا الفساد الذى حل بالدولة تم ابعاد الخلفاء المغلوبين على أمرهم عن مسرح الأحداث • وشجعوا على التمتع بملذات الحياة ومباهجها التى بلغت درجة خيالية فى بلاط بغداد • وفى القرن العاشر الميلادى بدأت الأسر المستقلة فى الظهور ، أولا فى شمال افريقية ، ثم فى اسبانيا ، واتخذ

أربابها لقب الخلافة • وهكذا وجد علـى مسرح الأحداث ثلاثـة من المطالبين بالسلطة • ومع ذلك ، استمر الخلفاء العباسيون يعيشون فى الظل سجناء لعناصر عسكرية مختلفة حتى عام ١٢٥٨ م •

وقد عجل بهذا التفكك الذى أصاب الخلافة العباسية تلك الحركات الانفصالية الواسعة الانتشار التى نتج عنها قيام دويـلات اسلامية جديدة داخل نطاق هذا الكيان المتـداعى • وكانت عمليـات التجزئة والتفتيت معقدة الى حد أنه لايمكن التحدث عنها بالتفصيـل • ولكن نتائجها كانت واضحة تماما ، وبصفة خاصة فى أواخر القـرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد • فقد أسس أحد ورثة الأمويين دويـلة مستقلة فى اسبانيا مبكرا فى عام ٧٥٦ م ، وقد بلغت درجة من القـوة والرخاء أن حاكمها طالب فى عـام ٩٢٩ م بلقب الخلافة الرفيـع • ثم ظهرت دولتان أخريان فى شمال افريقية فى القرن التاسـع الميلادى ، وكان مقرهما تونس ومراكش • وكذلك تأسست دولة أخرى منفصلة فى مصر عام ٨٦٨ م على يد حاكم تركى كان قد أرسله خليفة بغداد الى ذلك الاقليم • ثم ظلت مصر بعد ذلك مستقلة ، وغدت أحـد المراكز الرئيسية للقوى الاسلامية ، وبصفة خاصة بعد زوال الدولة الفاطمية التى كان بداية ظهورها فى شمال افريقيـة ، وطالبت بلقب الخلافـة بدعوى الانحدار من سلالة فاطمة بنت الرسول ﷺ ثم استولت عـلى السلطة عام ٩٦٩ م • وكذلك برزت الى الوجود دويلات أخرى صغيرة فى سورية وفلسطين وبلاد العرب ، وقد تفاوتت فى مدد بقائها ومـدى قوتها • وهكذا أصبحت المنطقة كلها وكأنها أرض لا صاحب لها ، تتصارع عليها آخر الامر القاهرة وبغداد والقسطنطينية واوروبا الغربية • أما فى الأجزاء الشرقية من الدولة الاسلامية القديمة ، فقد أدت عدة عوامل الى زيادة تصدعها وتفككها ، من بينها تلك القوى المتزايدة بين الايرانيين والهنود والترك ، فضلا عن شعور متفاقم بعـدم الرضـاء عن حكم العباسيين • وتمخض عن ذلك عدد من الدويلات الهامة المستقلة • وبذلك لم تعد هناك فى القرن العاشر الميلادى دولة اسلامية كبرى ، ووجـد

بدلا منها عشرة أو ثنتا عشرة دويلة متنافسة تتربص كل منها بالأخرى، وكل واحدة تشق طريقا خاصا بها .

وان انحلال سلطة العباسيين وانهيارها ، والانقسام الذى ترتب على ذلك فى العالم الاسلامى ، قد فتح الطريق للتدخل الأجنبى . ففى عام ٨٥٠ م بدأ الخط البيانى للمد الاسلامى فى النزول ، وبدأ الاسلام يعانى من اعتداءات الترك الأجانب فى القرن التاسع الميلادى ، والذين أصبحوا مسلمين بحكم وجودهم داخل الدولة الاسلامية . كذلك عانى الاسلام من الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى . ومن الأوروبيين الغربيين فى القرن الحادى عشر للميلاد (فصاعدا) .

ولكن هذا لايعنى أن عام ٨٥٠ م يحدد نهاية التأثير الاسلامى فى الحياة السياسية فى منطقة البحر المتوسط بصفة عامة ، وفى غرب اوروبا على وجه الخصوص . فلقد برزت الممالك المسيحية فى اسبانيا فى العصور الوسطى نتيجة الحروب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين. وكان لهذا الصراع أبلغ الأثر على معظم أجزاء الغرب الأوروبى . اذ تأثر التاريخ الأيطالى بهجمات المسلمين من تونس على صقلية وجنوب ايطاليا فى القرن التاسع الميلادى ، كما تأثر بالهجمات المضادة التى قام بها الايطاليون والنورمان فى القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد . وان احتكاك الأوروبيين المسيحيين بالمسلمين فى صقلية واسبانيا ، والذى نتج عنه انتقال المؤثرات الثقافية الهامة من العالم الاسلامى الى الغرب الأوروبى ، لايقل فى أهميته ودلالته عن الدور المبكر المتعلق بالفتوحات والسيطرة السياسية .

القوى الموحدة

بينما كانت قوى كثيرة متعددة تعمل على تقطيع أوصال العالم الاسلامى من الناحية السياسية ، كانت روابط الوحدة لا تزال قوية فى

هذا العالم فى الناحيتين الثقافية والدينية ، وقد عملتا على سد الثغرات بين أجزائه المنسلخة المتنافسة ، وتعويضها عن هـذا التفكك السياسى ، وربطها معا بفضل خبرة الاسلام الفائقة •

ولم يسد الحياة الدينية فى الدولة الاسلامية الكبرى سلام تام فى الفترة التى تلت عام ٨٥٠ م • فقد وقفت عدة حركات عسكرية انفصالية من المذهب السنى الذى يدين به العباسيون ، موقف التحدى ، وكثيرا ما عمل القادة السياسيون المتمردون على اثارة الخلافات الدينية بهدف ايجاد أسس ممكنة للتخلص من السيـادة العباسية • وكـانت أشد الجماعات نشاطا ، على وجه الخصوص ، الجماعــات الشيعية المختلفة التى أصرت على أن الدين الحنيف قد توارثة عن الرسول (ﷺ) سلسلة من الزعماء الدينيين من سلالة على ابن عم الرسول وصهره (ﷺ) • وثمة حركات أخرى نادت بالزهد والتقشف كانت واسعة الانتشار ، مثلها مثل الجماعات الشيعية ، وان كانت أقل ميلا منها للتحدى والعنف •

ومع ذلك ، فرغم التسليم بالأثر الذى خلفه الانفصال الدينى ، الا أنه يجب الاعتراف بأن المعتقدات الدينية العامة كانت لا تزال تلم شمل المسلمين فى مجتمع واحـد • فقـد اشترك السنيـون والشيعة والمتزهدون والمتصوفون معا فى ارساء مجموعة من القواعد الأساسية المتعلقـة بالشرائـع والطقوس الدينيـة • وان تمسـك المسلمـين جميعا بالقرآن الكريم قد زودهم بمصدر واحد عـام يستمدون منه قوانينهم الدينية والسياسية • وتعتبر الصلاة من روابط الوحدة الدينية للعالم الاسلامى من اسبانيا حتى بلاد الهند ، حيث يسجـد المسلمون متجهين نحو مكة المكرمة وهم يؤدون نفس الصلاة الى الله وبلغة واحدة وقد يحدث أن تتحاجى وتتجادل الطوائف المختلفـة ، ويترتب على ذلك سفك الدماء بسبب ما أشكل عليهم فى أمور العقيدة • ومـع ذلك ، فان وجود دين واحد جعل لهم فكرا واحدا وأسلوبا سلوكيا عاما موحدا •

وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع وطوال القـرن العاشر

الميلادى ، بذل رجال الفقه والشريعة محاولات هامة للتعريف بطبيعة الاسلام وماهيته . فظهرت فى هذا العصر المجموعات الرسمية الكبرى متضمنة أقوال الرسول (ﷺ) وتفسير القرآن . كما جمعت القوانين والشرائع الاسلامية ، واشتملت على بحوث فى الفقه والشريعة اعتبرت أساسا للدين الاسلامى . ويرجع الفضل فى الجهود التى بذلت فى سبيل التعريف بالدين الحنيف الى أشخاص من جميع الدول.فقد ضم رجال العلم من كافة أرجاء العالم الاسلامى الذين كانت مؤلفاتهم منتشرة متداولة أينما وجد المسلمون المؤمنون بالله ورسوله (ﷺ) .

وكانت الرابطة الثقافية فى العالم الاسلامى هى العامل القوى الثانى من عوامل الوحدة . فقد كانت تمثل فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادية أحد المظاهر الكبرى فى تاريخ العالم الثقافى . وحسبما ذكرنا آنفا ، فان ترجمة الآداب والعلوم اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية ، زودت طلاب العلم المسلمين خلال العصر العباسى الأول ، بذخيرة واسعة من المعرفة . فبدأوا حوالى عام ٨٥٠م فحص هذا الينبوع من الحكمة والمعلومات والمعارف التى كانت تتعارض مع تعاليم دينهم . وسرعان ما اتجه المسلمون نحو صهر هذه المادة المتشعبة فى شكل موسوعات ودوائر معارف الهدف منها تلخيص المعرفة فى كل الميادين والمجالات . ومع العمل المستمر الدائب ، كثيرا ما وجد رجال العلم المسلمين أنفسهم يجابهون مشكلات لم يستطيعوا حلها الا باستنتاجات توصلوا هم اليها تتميز بالجدة والأصالة . وبذلك تحول نشاطهم من عملية النقل والجمع الى نشاط مبدع خلاق . وانتشرت نتائج هذه الدراسات المتعلقة بالتراث القديم فى كل أنحاء العالم الاسلامى ، وتعدت الحواجز السياسية ، وربطت الطبقات المثقفة فى كل مكان بأحدث معرفة أمكن الحصول عليها فى ذلك العالم المعاصر .

لقد كانت دائرة الدراسات الاسلامية خلال هذا العصر هائلة متسعة . وكان أول ما يسترعى الانتباه هو الفقه والشريعة . ومع ذلك،

كانت مجالات الدراسة الأخــرى نشطة للغاية • ففى ميــدان العلوم الطبيعية ابتكر رجال العلم المسلمين ، الذين اعتمدوا على مجموعاتهم وموسوعاتهم التى ضمت المعرفة القديمة ، كتبا علمية مختصرة تفضل غيرها من الكتب فى أى بقعة أخرى فى العالم المعاصر لهم • ومن الممكن أن نكتشف فى هذه المؤلفات أصول معرفتنا العلمية الحديثة • فقد تفوق المسلمون ، بصفة خاصة ، فى الطب ، حيث أضافوا الى المعــارف التى استقوها من المجتمعات السابقة اكتشافاتهم الجديدة فى هذا الميدان • فكانت المؤلفات العظيمة بكل من الرازى (٨٦٥ — ٩٢٥ م) وابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) — اللذين يعرفــان فى الغرب الأوروبى تحت اسمى Rhazes و Avicenna — بالنسبة لكل منهما انتاجا نموذجيا يتمثل فيه امتزاج المعرفة القديمة بالخبرة العملية المعاصرة • وقد ترجمت مقالة ابن سينا العظيمة فى الطب الى اللغة اللاتينية فى نهايـــة القرن الثالث عشر الميلادى • وظلت المصدر الأساسى عن هــذا الموضوع فى الغرب حتى بواكير العصر الحديث • وطبقت المعرفة الطبية تطبيقا عمليا فى كثير من المستشفيات التى أقيمت تقريبا فى كل مدينة اسلامية هامة ، حيث اختبرت كفاءة الأطباء فى بعض المدن بعناية قبــل التصريح لهم بممارسة المهنة عمليا • كذلك أعد العلماء المسلمون فى ميادـــن الفلك والكيمياء مؤلفات ضخمة تضم المعرفة السابقة فى قالب حديث ، بعــد اضافة ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة اليها • وكان طالب العلم المسلم النموذجى الذى يدرس هذه العلوم ، يربط عادة بين علم التنجيم وعلم الكيمياء القديمين بدراساته العلمية الجاده الأصيلة • ولعدة قرون وجد المهتمون بالأسرار الخفية والسحر فى الكتب العلمية الاسلامية حصيلة وافرة من المادة • ونتيجة لسهولة الترحال فى العالم الاسلامى ، أصبح بوسع الجغرافيين أن يصفوا ، بكل دقة ، الأرض ومظاهرها الطبيعية وصفا فاق كل ما عرف عنها من قبل • كما أحرز علماء الرياضيات تقدما ملحوظا له قيمته ، بسبب الفرصة الفريدة التى سنحت لهم للربط بين علم الرياضة فى كل من اليونان والهند ، كأساس لعلوم الرياضيات عندهم • فكان الجبر الذى اخترعه الخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى هو النتاج

الرئيسى لعلماء الرياضيات المسلمين ، فضلا عن النظام العددى العربى . وقد وصلت تلك الابتكارات الى مرتبة الكمال والتمام فى ثبات ورسوخ فى القرون التالية ، الى أن انتقلت الى الغرب فى النهاية لتكون أساسا لعلوم الرياضيات الحديثة .

ومع أن طلبة العصر الحديث قد يبهرهم ما حققه المسلمون من منجزات فى مجال العلوم ، الا أنه يجب ألا يفوتهم الدور الذى قام به الفلاسفة المسلمون وأهميته بالنسبة للتطور الذى أصاب الدراسات الفلسفية بعد ذلك . فقد استهوى كثير من علماء العرب المذهب العقلى اليونانى القائل بتحكيم العقل فى كل شيء ، وبخاصة ما نادى به ارسطو . هذا ، بينما وجد فريق آخر من العلماء ، ومعظمهم من الفقهاء الذين مالوا الى الزهد أكثر من مناداتهم بالمذهب العقلى ، ووجدوا فى الأفلاطونية الجديدة مصدرا هاما لتأملاتهم . وسرعان ما ترجموا هذه المؤلفات وغيرها من كتب الفلاسفة اليونان القدامى الى اللغة العربية . وتعدى كبار الفلاسفة المسلمين مجرد الترجمة ، وسعوا ليس فقط للتوفيق بين الآراء الأفلاطونية والأرسططالية ، وانما للتوفيق بينها وبين الفقه الاسلامى . وكان هذا عملا شاقا يتطلب من الفيلسوف أن يجد أساسا عاما بين المعتقدات الواضحة للدين الاسلامى وبين الأفكار المنطقية المجردة والمعقدة التى تضمنتها الفلسفة اليونانية دون القضاء على رأى منها . وقد بلغت جهود ما يمكن أن نطلق عليه الفلسفة المدرسية الاسلامية ذروتها فى المؤلفات الكبرى لابن سينا الذى سبق الاشارة اليه ، والغزالى (١٠٥٨ — ١١١١ م) ، وكذلك ابن رشد (١١٢٦ — ١١٩٨ م) ذلك المسلم الاسبانى المعروف فى الغرب باسم Averroës . وترك هؤلاء الفلاسفة أثرا بالغا على الفلاسفة اللاهوتيين اليهود والمسيحيين الذين كانوا هم أيضا يحاولون التوفيق بين معتقداتهم الدينية والفلسفة اليونانية . وبسبب ما أسهم به الفلاسفة المسلمون ، الى جانب تأثيرهم على الآخرين ، احتلوا مكانة هامة فى تاريخ الفلسفة .

ان مجموعة الكتب التى قام بتأليفها الفقهاء والمحامون والعلماء والفلاسفة المسلمــون ، بالاضافة الى عــدد غير قليــل من الشعراء والقصاصين والمؤرخين ، والتى لم تتعرض لها هذه الدراسة بسبب ضيق المكان ، أوجدت معينا من المعرفة أسهم فى جمع أولئك الذيــن يعيشون فى أماكن متباعدة جغرافيا فى مجتمع ثقافى واحد • وقد نبع هذا الفيض الهائل من المعرفة من مصادر قديمة متعددة استطاع رجال العلم المسلمين أن يصيغوها فى قالب جديد طبقا لمعتقدات الدين الاسلامى • وقد أمكن لهذه المعرفة ، فى صورتها الجديدة ، أن تصبح عامة بحيث يستفيد منها جميع المفكرين المسلمين • كما برزت مطالبتهم بالوقوف على قدم المساواة من الناحية الثقافية ، مع بقية العالم ، وربما تفوقوا عليه • وكان واضحا للعيان ذلك النشاط والالمام الواعى والخلق الذى تميزت بــه الثقافة الاسلامية فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادية • وزاده وضوحا وجود دين واحد أصبــح الأساس الدائــم المتين للحضـــارة الاسلامية •

وكانت هذه المحصلة الثقافية ذات أهمية خاصة بالنسبة للدارس فى تاريخ اوروبا بسبب تأثيرها القوى فى سبيل احياء الحياة الثقافية فى الغرب • وقد أخذ طلاب العلم الغربيون منذ أواخر القرن الحــادى عشر وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميــلاد يستخلصون لأنفسهم قدرا كبيرا من المعرفة الاسلامية فى الناحيتين العلمية والفلسفية، وأضافوها الى ذخيرة ثقافتهم الهزيلة المتبقية التى كانوا قد استمدوها أساسا من المصادر اللاتينية (القديمة) • لقــد كان تأثــير العلوم الاسلامية على اوروبا قويا لدرجة أن المؤرخين يرون أنها أسهمت فى قيام « نهضة القرن الثانى عشر » • وليس هنــا مجال متابعــة هذا الموضوع ، وان كان يجب تذكير القارىء بأن أهمية التاريخ الاسلامى الثقافى خلال القرنين التاسع والعاشر ، وما يعنيه من دلالات بالغة ، تكمن ليس فقط فى دوره كدافع للوحدة داخل نطاق العالم الاسلامى ،

بل أيضا فى دوره كقوة حضارية امتد أثرها وتأثيرها الى ما وراء الحدود الاسلامية •

انتعاش الدولة البيزنطية

ان كانت الامبراطورية البيزنطية قد انكمش حجمها واهتزت كرامتها فيما مضى ، الا أنها بدأت حوالى عام ٨٥٠ م تستمع بمولد جديد لقوتها السياسية وتماسكها الدينى وحيويتها الثقافية • وبذلك بات من المؤكد قيامها بدور بارز فى تاريخ البحر المتوسط لعدة قرون تالية ، وامتداد نفوذها داخل قسم كبير من العالم السلافى • وبدأ السلاف البدائيون ينهلون من نهل الدولة البيزنطية الحيوى ، وبخاصة فى أمور الدين والثقافة ، ولو أنهم نجحوا فى الاحتفاظ بشخصيتهم وذاتهم من الوجهة السياسية والجنسية • وبذلك احتوت دائرة النفوذ البيزنطى هذا العنصر المتنوع فى اطار الوحدة التى تميزت بها حضارة البحر المتوسط فى أواخر القرن التاسع وخلال القرن العاشر الميلادى •

الدولة البيزنطية تستعيد نفوذها السياسى فى عهد الأسرة المقدونية

أصدرت الحكومة البيزنطية ، حسبما أسلفنا ، مرسوما باعادة الصور والأيقونات فى الخدمات الدينية • وبذلك وضعت نهاية للنزاع اللاأيقونى الذى أشاع الفرقة والانقسام فى الامبراطورية فترة غير قصيرة من الزمن • ونتج عن استعادة بيزنطة لتوازنها السياسى الذى أعقب ذلك مباشرة ، واستمر طوال القرن العاشر وبواكير القرن الحادى عشر الميلادى ، نهضة كبيرة كان من شأنها قيام العصر الذهبى للقوة البيزنطية • وكان أولئك الذين أرسوا بنائها السياسى القوى هم حكام الأسرة المقدونية التى تقلدت زمام السلطة عام ٨٦٧ م ، والتى ضمت عددا من الأباطرة العظام الذين برزت شهرتهم فى التاريخ البيزنطى •

كرس أول امبراطورين من هذه الأسرة وهما بازيل الأول (٨٦٧ —

٨٨٦ م) وليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢ م) ، جهودهما الكبرى لاعادة تجديد وتقوية البنيان الداخلى للمجتمع البيزنطى • وقلما نجـد رجلين مثلهما اختلف كل منهما عن الآخر اختلافا تاما • ومع أن بازيل من أصل ريفى ، الا أنه ترك بيته فى مقدونية واتجه الى القسطنطينية وهـو لا يزال فى سن الرجولة • وفى العاصمة الكبيرة استرعت قوتـه البدنية الهائلة ومهارته فى ترويض الخيل ، انتباه الامبراطور ميخائيل الثالث • وانتهت العلاقة الوثيقة التى توطدت بـين الأثنين ، والتى قـوت من أواصرها جلسات اللهو والمرح المستمرة ، فجأة وبشكل قـاس عندما أجهز بازيل على ميخائيل عام ٨٦٧ م ، واستولى على أعنة الحكم • وكان يمثل الصفوة الممتازة من المفكرين فى المدينة •

ورغم التناقض الواضح بين هاتين الشخصيتين ، فقد عمـل كل من بازيل الأول وليو السادس بكل همة ونشاط لتحقيق هـدف واحد هو اعادة بناء نظام سياسى قوى • ونتج عن جهودهما فى هذا السبيل مجموعة هائلة من التشريعات ، أهمها التعريف الجديد لمفهوم الحاكم الأوحد المستبد والمختار من قبل الله • وبلغت هذه التشريعات ذروتها عندما أصدر ليو السادس قانون البازيليكا Basilica • وهو عبارة عن مجموعة من القوانين مدونة باللغة اليونانية ، واستمدت كثيرا ممـا جاء فى مجموعة قوانين جستنيان اللاتينية التى كان قد عفا عليها الزمن ، وتم تعديلها لتتمشى مع الاصلاحات القانونية التى قام بهـا ليو الثالث فى القرن الثامن الميلادى •وباضافة العديد من القوانين الفردية والكتب التفسيرية ، أصبحت هذه المجموعة التشريعية دستورا مناسبـا لاكثر النظم الحكومية التى ظهرت حتى ذلك الوقت فعالية وكفاية • وبذلك بلغت الدولة البيزنطية ، بفضل الحق الالهى ، فى عهـد المقدونيين أوج مجدها •

وان كانت تشريعات المقدونيين الأوائل قد عرفت مفهوم الحكم الاستبدادى ، فقد وضعه حكام هذه الأسرة موضع التنفيذ • فمنـذ

عهد بازيل الأول وحتى حكم بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) ، كانت الحكومة البيزنطية نموذجا يحتذى فى كفاءتها الممتازة . فكان الأباطرة هم صورا حية للدولة . ومع أن بازيل الثانى كان بلا منازع أبرزهم جميعا ، الا أنه كان من أوجه كثيرة نموذجا للأسرة المقدونية من أولها الى آخرها . فقد قال عنه أحد المعاصرين له « انه لم يحكم طبقا للقوانين المكتوبة ، بل طبقا لقانون غير مدون هو من وحيه الخاص » .

ولما كان بازيل الثانى رجلا يتمتع بطاقة هائلة وذكاء وطموح ، فقد أمضى فترة حكمه كلها فى نشاط دائب مكرسا جهوده الشخصية للشئون العسكرية والمالية والسياسية للامبراطورية . وكان البلاط الامبراطورى فى القسطنطينية يتكون من جهاز ضخم من الخبراء المدربين الذين حددت مراتبهم وواجباتهم ورواتبهم بتفصيل وتدقيق . وان نظام الرقابة الصارم الذى فرضته تلك البيروقراطية على التجارة والصناعة والزراعة البيزنطية ، قد ضمن الموارد المالية اللازمة ، وكذلك المواد الخام الضرورية ، وجعل الامبراطورية تنعم باستقرار اجتماعى ورخاء اقتصادى . وتم اصلاح نظام الثيمات الذى استمر يؤدى دوره كوسيلة فعالة للادارة المحلية والتجنيد العسكرى . ولم يمتد تأثير دبلوماسية بيزنطة البارعة الى ماوراء حدودها فحسب ، بل أصبحت هذه الدبلوماسية نموذجا يحتذى فى جميع أنحاء العالم المتحضر . كما تضاعفت أهمية قوتها العسكرية والبحرية فى البحر المتوسط وفى شرق اوروبا . ولكن الحكومة البيزنطية التى دبت فيها الحياة من جديد ، لم تسلم بطبيعة الحال من التهديد من حين لآخر بسبب مؤامرات البلاط والثورات العسكرية والقلاقل التى أثارها الشعب . وكان أشدها خطرا ملاك الأرض الطموحين الذين ينتمون الى الطبقة الأرستقراطية ، والذين كافحوا دون هوادة فى سبيل حرمان الفلاحين من أراضيهم ، وتكوين اقطاعيات أكبر ، وتحدى الحكومة المركزية والاستهانة بها . ومع ذلك ، فقد كان جهاز العمل فى الأسرة المقدونية ، بلا منازع ، يمثل أقوى حكومة فى منطقة البحر المتوسط كلها خلال القرنين التاسع والعاشر

وبداية القرن الحادى عشر للميلاد ، كما يعتبر من أنجح نماذج الحكم المطلق فى التاريخ بأسره .

وقد أدى اعادة التنظيم الداخلى الى احياء النفوذ البيزنطى فى مجال الشئون الدولية . ففى نهاية العصر اللاأيقونى كـان مركز بيزنطة الدبلوماسى والعسكرى غير مستقر على الاطلاق ، واستمر على هذه الحال أثناء حكم المقدونيين الأوائل . فكان المسلمون لا يزالون يمارسون ضغطا خطيرا على صقلية وايطاليا البيزنطية وآسيا الصغرى . كما أن ظهور الروس واغاراتهم على أسوار القسطنطينية عام ٨٦٠ م قد شكل تهديدا من اتجاه جديد . ولكن البلغار كانوا يمثلون الخطر الداهم ، وكرست الموارد البيزنطية أساسا لمواجهة هجماتهم (ودفعها عن البلاد) . وبلغ الضغط البلغارى ذروته أثناء حكم الملك سميون (٨٩٣ — ٩١٧م). وان الجهود المستميتة التى بذلها هذا الملك المقتــدر فى سبيل انشاء امبراطورية بلغارية تقف الند للند أمام الامبراطورية البيزنطية ، قــد قللت بشكل فعال من النفوذ البيزنطى فى البلقان ، وأجبرت الحكومــة الامبراطورية على الخضوع للحاكم البلغارى والاذعان لمطالبه .

ومع ذلك ، ففى الربع الثانى من القرن العاشر الميــلادى ، كانت بيزنطة مستعدة للقيام بهجوم مضــاد . ففى منطقة البلقــان دفعت الدبلوماسية البيزنطية ومشاكل بلغاريــا الداخلية الدولــة البلغارية الى اتخاذ موقف الحياد فى بداية الأمر . وأثناء قيام بيزنطــة بعملية تفتيت قوى البلغار وعزلهم ، استطاعت أن تكون شبكة معقــدة من العلاقات السياسية مع الامارات السلافية فى كل من البلقان وروسيا ، وأيضا مع الجماعات المقاتلة المتنقلة كالهنغار والبتشنج والخزر . وبعد أن تمكنت بيزنطة من حفظ السلام فى البلقان بفضل دبلوماسيتها ، شنت هجوما عسكريا كبيرا ضد الدولة الاسلامية المفككة . واستطاعت سلسلة من الحملات الصليبية أثناء حكم اثنين من الأباطرة العسكريين همــا نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ويوحنا تزيمسكس (٩٦٩ — ٩٧٦ م) ،

ارساء دعائم النفوذ البيزنطى ، مرة أخرى ، فى شمال سورية وأرمينية. كما استطاع الاسطول البيزنطى ، فى نفس الوقت تقريبا ، بعد أن دبت فيه الحياة من جديد ، استعادة جزيرة كريت وقبرص . وبذلك عـاد النفوذ البيزنطى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط الى سابق عهده .

وبعد أن أجبرت الحكومة البيزنطية المسلمين على التراجع شرقا ، أصبح لها مطلق الحريـة فى القضاء على التهديد البلغارى . وكانـت قد استطاعت من قبـل خلال القرن العاشر الميـلادى أن تجر المملكة البلغارية بدهاء للدخول فى فلكها نتيجة النفوذ الدينى والثقافى . وأخيرا عمل الامبراطور بازيل الثانى الذى أثاره تدخل البلغـار فى الشئون البيزنطية ، على تسويـة الحساب معهم بغـزو مملكتهم وضمها الى الامبراطورية البيزنطية باعتبارها ولايـة من ولاياتها . وان حملاتـه النشطة التى أكسبته لقب « ذابح البلغار » ، لم تؤد فقط الى ازالة عدو قديم ، بل أكدت أيضا السيادة البيزنطية على السكان السلاف فى معظم شبه جزيرة البلقان وفى مساحة شاسعة تمتد نحو الشمال والشرق عبر أواسط اوروبا الى داخـل الروسيا . وفى نفس هـذا الوقت حاولت الامبراطورية البيزنطية الاحتفاظ بقدم راسخة فى الجنوب الايطالى ، ولو أن جهودهـا العسكرية والدبلوماسية الكبرى كانت موجهـة الى الشرق والشمال .

وهكذا ، ففى الوقت الذى بلغت فيه الأسرة المقدونية ذروة قوتها فى عهد بازيل الثانى ، استعادت الدولة البيزنطية مكانتها فى قمة العالم . وفاقت أعمال بازيل الثانى ما حققـه أى امبراطور سابق منـذ عهد جستنيان . ثم زادت رقعة الامبراطورية زيادة كبيرة باستعادة شمال سورية وأرمينية وبلغاريا وكريت وقبرص . وأصبحت بيزنطـة تعتمد على حكومة قومية ، يدعمها رخـاء اقتصادى ونظـام اجتماعى ثابت ومستقر . وهكذا قدر لها أن تعمر لفترة طويلة تالية ، على الأقـل من الناحية السياسية .

التطور الدينى

ان القرار الذى اتخذ بشأن النزاع اللاأيقونى لم يؤد الى نهضة سياسية فحسب ، بل فتح أيضا صفحة جديدة لنهضــة دينية سرت فى أوصال الكنيسة البيزنطية • وترتبت على هذه النهضة ثلاثة تطورات تسترعى الانتباه هى : اتساع هوة الشقاق بين بطاركــة القسطنطينية وبابوات روما ، ذلك الشقاق الذى كان نذيرا بالقطيعة الدينيــة النهائية بين الكنيستين الشرقية والغربية • أما التطور الثانى فهو التكييف المستمر للمظاهر المميزة للفكر والممارسة الدينية اللذين أبعدا الكنيسة البيزنطية عن الطوائف المسيحية الأخرى • وأخيرا تلك الجهود المتحمسة التى بذلها الكنيسة البيزنطية من أجل زيادة قوة الحكومة فى البلاد ، وبخاصة فيما يتعلق بمدى فعاليتها وتأثيرها خارج نطاق الامبراطورية •

لقد بدا أن الصدام بين روما والقسطنطينية الذى تولد عن النزاع اللاأيقونى قد انتهى باعادة استخدام الصور والأيقونات • ومــع أن الامبراطورة تيودورا لم تأخذ رأى البابوية بهــذا الخصوص ، الا أن النظام الامبراطورى فى عــام ٨٤٣ م عزز مركز البابويــة • وهكــذا ، قبضت ، مرة أخرى ، على زمام الحكم هيئة تهتم بايجاد سلام مــع روما • وكانت الآمال بالوفاق واتحاد الكنيستين قد بدت براقة رائعة فى أواسط القرن التاسع الميلادى • ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة سرعان ما أدت مشاحنات جديــدة مريرة الى ابتعــاد الكنيستين عن بعضهما ، وازدياد الهوة بينهما عمقا واتساعا •

لقد خلف الصراع اللاأيقونى داخل الكنيسة البيزنطية نفسها تركة مثقلة بالفرقة والشقاق • وثمة فئة من الكهنة والرهبــان نذرت نفسها للقضاء على كل آثار الحركة اللاأيقونية ، مع العمل بهمة أكبر للاستقلال الدينى عن الحكومة الامبراطورية • وقــد ناضلت ضد كــل من نادى بالاعتدال وسعى للتوفيق بين هذه الآراء الدينية المتعارضة مع التطون

مع السلطات المدنية من أجل وحدة المجتمع البيزنطى • وقد أثار المتطرفون ، الذين كانوا مستائين من البطاركة المعتدلين الذين اختارهم الأباطرة البيزنطيون ، تدخل روما المتكرر • وعندما وجد البابوات أنفسهم فى المعمعة ، برروا موقفهم الذى لم يكن هناك مناص منه ، على أساس أن لهم السلطة العليا فى الكنيسة العالمية • ولم تتنكر الحكومة البيزنطية وغالبية رجال الدين لهذا المطلب ، ولكنهم رفضوا تطبيقه عندما تعارضت القرارات الخاصة به مع مصالح الدولة البيزنطية وكنيستها •

وفى عام ٨٥٨ م تحرج الموقف عندما خلع البطريارك اجناتيوس Ignatius وحل محله فوتيوس Photius ، وهو علمانى مثقف مدنى كفء • والتجأ كل من فوتيوس والحكومة البيزنطية الى روما ملتمسين الموافقة على هذا التغيير ومباركته • وكان البابا آنذاك هو نيقولا الأول الذى تمسك بوجهة نظر متشددة فيما يتعلق بسلطة البابوية، والذى كان يتلهف بشدة الى تأكيد سلطته كلما كان ذلك ممكنا • وفعلا بعد مفاوضات مستفيضة رفض فى النهاية اقرار انتخاب فوتيوس وأصدر قرار الحرمان ضد البطريارك • وغنى عن القول ان الحكومة البيزنطية لم تقبل هذا القرار ، كما رفضه فوتيوس نفسه •

وان ادانة البابا نيقولا للبطريارك فوتيوس قد أملاها علية موضوع خلاق جديد يتميز بأهميته البالغة بالنسبة لكل من روما والقسطنطينية• فبعد عام ٨٦٠ م بوقت قصير تطورت امكانية العمل التبشيرى الهام فجأة فى مورافيا وبلغاريا ، وكانت كل منهما تدخل فى نطاق ولاية ايلليريا التابعة لسلطة الكنيسة الرومانية ، الى أن استولى عليها ليو الثالث عام ٧٣٢ م • وكان نيقولا تحدوه الآمال الكبار فى تنصير المورافيين والبلغار وادخالهم فى حظيرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، مدفوعا فى ذلك بنظرية سيادة روما العالمية ، ولو أنه كان واضحا أن الحكومة البيزنطية لن ترضى بمثل هذا التطور أن يحدث بين أشد

أعدائها خطرا عليها • ورأت أنه اذا استطاع المبشرون البيزنطيون تنصير المورافيين ، فسيكون للقسطنطينية حليف هام يقف فى ظهر البلغار الذين يهددونها • واذا نجحوا فى تحويل البلغار الى المسيحية (الأرثوذكسية) ، أمكن وضع أساس طيب لعلاقات أكثر سلما وهدوءا بين تلك المملكة الخطيرة وبين الامبراطورية البيزنطية • وفيما يتعلق بهذه المسألة الحيوية ، تحرك فوتيوس ذو البصيرة الثاقبة بسرعة ، وشكل فرقا تبشيرية فيما بين عامى ٨٦١ و ٨٦٤ م تعمل فى كل من مورافيا وبلغاريا • وكان النجاح الذى أحرزه (فى هذا السبيل) سببا فى ازدياد عداء روما عمقا وحدة •

ومع ذلك ، لم يكن النصر الذى أحرزته بيزنطة فى مجال العمل التبشيرى تاما • فسرعان ما وجد المبشرون البيزنطيون فى مورافيا أنفسهم أمام منافسيهم الجرمان الذين سعوا للحصول على مساعدة البابوية • والتجأ الملك البلغارى بوريس الذى تعمد عام ٨٦٤ م على يد كهنة بيزنطيين الى روما أملا فى كسب موافقة البابوية على انشاء بطرياركية بلغارية منفصلة (عن بيزنطة) • وبذل نيقولا قصارى جهده لاستغلال هذه الالتماسات • هذا ، بينما ناضل فوتيوس خوفا على ضياع المصالح البيزنطية • وفى الوقت الذى اتسعت فيه الحركة المحتدمة (بين روما والقسطنطينية) ، بدأ البلغار يستغلون بشدة الخلافات العقائدية بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، وكل فريق يحاول اقناع المتنصرين الجدد أن معارضيهم ليسوا على صواب وأنهم هراطقة فى عقيدتهم وطقوسهم •

وفى عام ٨٦٧ م قامت ثورة (فى بيزنطة) أدت الى خلع فوتيوس واعلان بازيل الأول امبراطورا • ومات نيقولا الأول بعد ذلك بوقت قصير • وبذل بازيل والبطريارك الجديد اجناتيوس الذى سبق الاشارة اليه ، جهدا كبيرا لتسوية النزاع مع روما ، بهدف تعزيز أقدام الأسرة الجديدة • ووافقت البابوية على اعادة اجناتيوس الى منصبه ، وانتزعت

من البيزنطيين الساخطين اعترافا بحق روما فى الفصل النهائى فى أمر النزاع القائم فى الكنيسة البيزنطية • ولكن هذا النصر كانت تشوبــة المرارة بسبب ما بدا من ارتداد بلغاريا طواعية الى عقيدة القسطنطينية. فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة وسمحوا للبلغار بأن تكون لهم وظيفة رئيس أساقفة مستقلة بهم ، وبذلك زاد النفوذ الدينى البيزنطى ، بينما تضاءلت فرص بابوية روما فى بلغاريا • وحاولت البابوية فى السنوات التالية أن تستعيد نفوذها فى بلغاريا ، وحـــانت فرصتها عندمـــا مات اجناتيوس عام ٨٧٧ م • وأعـــاد بازيل الأول فـــوتيوس الى كرسى البابوية ، وسعى للحصول على موافقة روما من أجل تقليد رجل سبق أن صدر ضده قرار الحرمان الكنسى من قبل كل من بازيل والبابا •

ومع ذلك ، فقد كان البابا يوحنا الثامن راغبا فى التفاوض فى هذا الأمر • فانعقد مجلس هام فى القسطنطينية خلال عامى ٨٧٩ — ٨٨٠ م أسفر عن موافقة أعضائه على حسم الخلاف والتراضى • وتم الاعتراف بفوتيوس كبطريارك شرعى ، بينما عادت بلغاريا الى حظـــيرة الكنيسة الرومانية • وكان هـــذا الوفاق علامـــة على عودة السلام بين رومـــا والقسطنطينية التى عانت الشىء الكثير لسنوات عديدة طويلة • واحترام البيزنطيون مطالبة رومـــا بالسلطة الكنسية العليـــا ، وذلك بالسماح للبابوية بأن يكون لها دور هام فى اتخاذ قرار بشأن صلاحية فوتيوس لمنصب البطريياركية ، كما أرضوا مطالب روما فى بلغاريا • وفى مقابـــل ذلك نجحت الكنيسة البيزنطية فى الحصول على اعتراف صريح بشرعية بطريياركية فوتيوس القدير • وقد أدت فترة رئاسته الثانيـــة الى تقوية الصرح الداخلى للكنيسة البيزنطية ورفع شأنها •

وفى الواقع أفاد البيزنطيون فائدة كبرى من هذه التسوية • فعلى الرغم من اعترافهم بسيادة روما ، الا أن الصراع الطـــويل أثبت مقدرة الحكومة الامبراطورية (فى بيزنطة) على اختيار بطاركتها وفقا لمشيئتها• كما لم تعد البابوية (فى روما) تعتمد على نفوذ الكنيســـة البيزنطية

للضغط والتأثير الكاملين على الحكومة الامبراطورية وموظفيها الدينيين. واستطاعت الحكومة البيزنطية وكنيستها عن طريق السياسة الحاذقة ، فضلا عن لباقتها ومهارتها فى اثارة مشاعر الجماهير ، ابطال اشراف روما على الشئون الدينية فى بيزنطة . هذا ، على الرغم من الاعتراف بسيادة روما من حيث المبدأ كما أن عودة بلغاريا الى العقيدة الرومانية لم يكلف البيزنطيين شيئا ، لأن البلغار رفضوا قبول توجيه روما لهم . وربما أدرك بازيل الأول وفوتيوس أن البلغار كانوا يميلون بشدة الى العقيدة والثقافة البيزنطية ، حتى أن فرصة تقبلهم لسيادة روما كانت ضئيلة . وعلى اية حال ، فقد تطورت الكنيسة البلغارية بعد عام ٨٨٠م ، وازداد ارتباطها قوة وتوثقا مع القسطنطينية على حساب روما . ويرجع هذا ، الى حد بعيد ، الى فوتيوس الذى ساعد على انماء وتطوير سياسة مبنية على مصالحة محترمة مع روما ، الى جانب استغلاله المنسق لكل فرصة ترفع من مكانة التنظيم الداخلى للكنيسة البيزنطية وتعمل على تعزيزه وتقويته . وان النجاح الملحوظ لسياسته تلك ، قد يفسر الاساءة البالغة التى وجهها قادة الكنيسة الغربية لهذا البطريارك العظيم فى السنوات الأخيرة .

وهكذا ، بدأت باتفاقية عام ٨٨٠ م فترة ممتدة من السلام النسبى بين روما والقسطنطينية . ولم يكن باستطاعة البابوية ، بعد أن انغمست بشدة فى شئون ايطاليا السياسية ، وبعد أن أضعفتها اللامركزية الاقطاعية التى تغلغلت فى الحياة الكهنوتية فى الغرب ، أن تتدخل فى الشئون البيزنطية . وعندما كانت العناصر الغاضبة المستاءة فى بيزنطة تسعى للحصول على مساعدة البابوية من حين لآخر ، كان بوسع الأباطرة والبطاركة عادة منع التدخل الفعال دون اثارة سخط البابوية وثورتها . ولم تستطع النزاعات التى قامت بسبب الخلافات العقائدية العنيفة ، تحدى سلطة البطاركة . وان تسرب النفوذ الدينى البيزنطى بين السلاف فى البلقان ووسط اوروبا والروسيا ، قد طبعها بطابع لا يمحى ، مما شجع السلاف المسيحيين على الاتجاه صوب الأديرة البيزنطية ، وبصفة

خاصة تلك الجماعات العديدة التى كانت تعيش فوق جبل آثوس Athos لتعلم الدين والآداب على أيـــدى المعلمين البيزنطيين • كـــذلك أدت الانتصارات العسكريـــة التى أحرزها الأباطـــرة فى الشرق الى عودة الصلات القوية النشطة بين بطريارك القسطنطينية وبطاركة الشرق • وترتب على كل تلك التطورات أن ازدادت مكانة الكنيســـة البيزنطية وبطاركتها ، وتأصل استقلالها • كما قوى الاحساس بزعامتها بين من اعتنقوا المسيحية من السلاف ، وبين المسيحيين « المحررين » فى الشرق•

وعلى أية حال ، فقد أدت الظروف المتغيرة مع بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، مرة أخرى ، الى تصاعد العداء بين روما والقسطنطينية، والذى تسبب آخر الأمر فى حدوث القطيعة الدينية التى لاتزال قائمة حتى وقتنا هذا • ومع أن قصة الانفصال النهائى تخرج عن نطاق هذه الدراسة ، الا أنه جدير بالذكر تماما أن احيـــاء الكنيسة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ،أدى بشكل فعال الى الانقسام النهائى ،فقد اعتاد البطاركة البيزنطيون على الاستقلال بكنيستهم ،، وعلى التمتع بمكانة مرموقة والقيام بدور قيادى • لقد أدركوا أنهم ليسوا بحاجة الى احناء رءوسهم أمام مطالب البابوات الذين أصروا على تأكيـــد سيادتهم ،، وبصفة خاصة أثناء حركة الاصلاح الكبرى فى القرن الحـــادى عشر الميلادى ، والذين اشتدوا فى ادانة الطقوس والتعاليم الدينية البيزنطية•

لقد أدى انتعاش الكنيسة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية الى تزايد الاختلافات وتباينها بين العقائد والطقوس فى الكنيستين الشرقية والغربية • كما ميز بداية طور ثان فى هذا التطور • اذ عمل الأباطرة وبطاركتهم المقتدرون على تحديد الطقوس الكنسيـــة ، وشجعوا على تنقية الدين من الشوائب العالقة به داخل نطاق امبراطوريتهم • وان المشاحنات التى قامت بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية، التى تفاقمت أثناء القطيعة الدينية وبعدها ، أكدت بصفة أساسية اختلاف الآراء فيما يختص بزواج الكهنة وقانون الايمان والنظم المتعلقة بالصيام ونظام

العبادة أثناء القداس والعمليات الخاصة بتناول الأســرار المقدسة • وكانت الاختلافات الظاهرية ، عـلى أية حال ، ترمـز الى اختلافات جوهرية فى الأمـور الروحية لكـل من الكنيستين • وكانت الكنيسة البيزنطية فى العصر اللاأيقونى واقعة تحت تأثير أفكـار المتطهرين • ولكن بعد عام ٨٥٠ م بدأت العناصر البيزنطية القديمة فى الظهور ثانية فى الطقوس الدينية • ويمكن ادراك هذا التطور الجديد فى الطقوس الأرثوذكسية البيزنطية المحكمة ، فى تلك الرمزية الشديدة فى الفن الدينى البيزنطى ، وفى أمجاد الموسيقى الكنسيـة البيزنطية ، وفى تعقيدات اللاهوت الأرثوذكسى البيزنطى ، وكذلك فى الدور الفعال الذى قامت به الديرية فى الحياة الدينية البيزنطية • فضلا عن مفاهيم التقوى الممثلة فى الأعياد الدينية البيزنطية • وربما كان من الصواب القول بأن كثيرا من هذه المظاهر الفريدة قـد اتخذت شكلها النهائى فى عهـد الأسرة المقدونية التى أعقبت الحركة اللاأيقونية • ولا شك أن خبرة هذه الأسرة وحنكتها قد قضت على كل أمل كانت تصبو اليـه الكنيسة الرومـانية لفرض طقوسها الرومانية فى شتى أنحاء العالم المسيحى بعـد انتهاء الصراع اللاأيقونى • كما وضعت أساسا لمجادلات ومنازعات أكثر حدة وعنفا حول ممارسة الشعائر والطقوس الدينية فى العصور التالية •

أما المرحلة الثالثة البارزة من مراحل القطيعـة الدينية ، فهى تلك التى ساندت فيها الكنيسة البيزنطية بشدة اتساع نطاق السلطة المطلقة للدولة • فقد كان المفهوم الامبراطورى الأساسى عن الكنيسة أنها عضو للدولة وسند لها ، والامبراطور باعتباره قائدا دينيا الى جانب قيادته السياسية • ولكن هذا المفهوم كان موضع التحدى العنيف أثناء الصراع اللاأيقونى عندما حاول الأباطرة فرض سياسة دينية لم تلق القبول من جماهير الشعب بوجه عام • لقد قاومت هذه السياسة قطاعات لها وزنها فى الكنيسة البيزنطية ، وكانت نهاية الصراع الخاص بالصور والأيقونات، بشكل ما ، نصرا للكنيسة على الدولة • ولكن فى عهد الأسرة المقدونية استعاد الأباطرة ، مرة أخرى ، سلطتهم على السلك الكنهوتى • ولكنهم

استخدموا تلك السلطة بمنتهى الحرص والحذر ، وأظهـروا احتراما عظيما للكنيسة ، وقلما تدخلوا فى الشئون العقائدية • وقد عبر عن هذه السياسة بوضوح أحد الأباطـرة المقدونيين ، اذ قـال « أنـا اعترف بسلطتين فى العالم : السلطة الكهنوتية والسلطة الامبراطورية • وقـد أناط خالق الكون الى الأولى مهمة رعايـا الأرواح وخـلاص النفوس والى الثانية مهمة ادارة النواحى العلمانية والأمور الزمنية • ولتأمن كل من هاتين السلطتين من الهجوم عليها حتى ينعم العالم بالرخاء » •

وعلى أية حال ، لم يكن الأباطرة ، فى الحقيقة ، بحاجـة لاجبار الكنيسة على شىء ما ، لأن الشخصيات الدينية الرئيسيـة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاد ، أحست بمسئولية متقدة نحو صالح الدولة • وبذلت كل جهد ممكن لتوجيه عامة الشعب نحو الامبراطور المعظـم فى شتى المناسبات باعتباره خادم الرب ، ودافعت بحماسـة عن سلطته المطلقة • وكان رجال الدين متحمسين ، على وجه الخصوص ، لمساندة السياسة الخارجية البيزنطية • وسعى المبشرون البيزنطيون ، بشكل مطرد الى ربط معتنقى المسيحية الجدد بالقسطنطينية ، وبذلك أصبحوا مسئولين مسئولية كبرى عن تلك الروابط القوية التى ربطت عددا كبيرا من السلاف ببيزنطة • وأصبح الاتحاد التام بين الكنيسة والدولة نهائيا خلال عصر الأسرة المقدونية • وقلما نجد فى تاريخ البشريـة بأجمعه مثالا أفضل من كنيسة الدولة تلك ، تعمل فى الحدود المتاحة لهـا على تعظيم الامبراطور وتلقين المؤمنين مبدأ الولاء للدولة • واعتبارا من القرن التاسع الميلادى فصاعدا كانت علاقة الكنيسة البيزنطية بالدولـة تمثل نقيضا للصراع العنيف الذى قام بين الكنيسة والدولة فى الغرب ، والذى قسم المجتمع الأوروبى الغربى عـلى امتداد فترة طويلـة من تاريخ العصور الوسطى •

النهضة الثقافيـة

لقد أدت النهضة الثقافية اللامعة الى زيادة تألق المجتمع البيزنطى

الناهض في عهد الأسرة المقدونية . واستطاع العـالم البيزنطى ، خلال الحقبة الطويلة التى عانى فيها من الحصار ، والتى فرقته فيها المشاحنات الدينية الداخلية ، أن يحافظ على تراثه القيم من الثقافة الكلاسيكية اليونانية والعلوم المسيحية الأولى ذات الأصول اليونانيـة . وبتسوية المشاحنات الدينية واحياء النشاط السياسى فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، استمد العلماء والفنانون وحيهم من هذا التراث القديم لخلق أروع شكل للثقافة البيزنطية .

ولما كانت هذه النهضة قد بدأت فى أواسط القرن التاسع الميلادى، فقد تميزت ، على وجـه الخصوص ، بالتوسع فى النشـاط العلمى فى جامعة القسطنطينية . وتركزت برامجها على الدراسـات الكلاسيكية اليونانية . وكان من بين أساتذتها أعظم قادة الفكـر فى ذلك العصر ، وعلى رأسهـم البطريارك العظيـم فوتيوس . كمـا كانت الحكومة الامبراطورية ، دوما ، هى الحامى الأساسى للعلوم والفنون ، وأخرجت عددا من العلماء العظام فى ذلك العصر من بين أفراد الأسرة الحـاكمة نفسها . فكان ليو السادس المعروف بليو العاقل وقسطنطين السابـع من رجال العلم والعلماء الممتازين والكتاب الذين يتميزون بوفرة الانتاج. وقد ساندت الدولة المدرسة الكبرى فى العاصمة ، فكـان فيها أساتذة يتقاضون بسخاء وعن جدارة . وكان جميع الطلبة يقبلون بالمجان ولا يدفعون أى رسوم على الاطلاق . وزاد الاهتمام بالدراسات الكلاسيكية، وأضفى الأدب والفلسفة والعلم على الثقافة البيزنطية فى العصر المقدونى روحا علمانية ملحوظة ، بالرغـم من متابعـة الدراسات الدينية بولع وشغف فى المكتبات الكبرى بالأديرة .

وربما كانت أبرز مظاهر النهضة المقدونية المتعددة الجوانب ، هو جمع دائرة معارف استمدت مادتها من أدب بلاد اليونان القديمة الذى يتميز بغزارته . وشأنهم شأن المسلمين المجاورين لهم ، استطاع علماء الدولة البيزنطية فى القرون التاسع والعاشر والحـادى عشر الميلادية

أن يضعوا كتبا دراسية فى جميع الموضوعات التى يمكن تصورها ، مثل القانون ، والادارة العامة ، والعلوم العسكرية ، والتاريـخ ، والعلوم الطبيعية ، والزراعة ، والطب ، واحتفالات البلاط ، وحيـاة القديسين ، وعلم الأخلاق ، واللغويات ، والديلوماسية ، وغير ذلك من المواد الكثيرة الأخرى . وان دلت مثل هذه القائمة من المواد على شىء ، فانما تدل على أن العلماء كانوا شديدى الرغبـة لخدمة مجتمعهـم فى الشئون العملية . وقد احتاج مثل هذا العمل الى مكتبات ضخمة . ولهذا تميز العصر المقدونى بمجموعات الكتب العظيمة ، وعلى وجه الخصوص كتب الأدب اليونانى القديم . وقد استلزمت عملية الافادة من هـذه المادة ، بطبيعة الحال ، تدريبا لغويا واعيا . ولما كانت اللغة اليونانية التى تكلمها أهل بيزنطة فى القرن العاشر الميلادى ، تختلف اختلافا بينا سواء من ناحية النطق أو المفردات أو النمو ، عن لغة الكتاب الكلاسيكيين القدامى، فقد تم احياء الدراسات اللغوية لتدريب الطلبـة على استيعاب ما كتبه المؤلفون ، ومحاولة تقليد أسلوبهم الأدبى بعد ذلك . ولقد كتبت شروح وتفسيرات عديدة لتوضيح النصوص القديمة ، والعمـل على تكييفها لتلائم التعاليم والحياة المسيحية . ولكن العديد منهـا كان يعكس نزعة انسانية واتجاها نحو السفسطائية والعلمانية ، الأمر الذى يكشف عن مدى تأثير الكتاب الاغريق القدامى على شارحيهم ومفسريهم .

ومع أن هذ العصر الذهبى لم يكن بادىء ذى بدء خلاقا ومبدعا ، الا أن القوة الدافعة للدراسة وعملية الجمع والتحصيل قد انتقلت الى مرحلة الجدة والأصالة . فسجل فريق من المؤرخين المشهورين أعمال الحكام السابقين عنهـم والمعاصرين لهم . كما تم وضـع سير وتراجم بقلم المؤلفين من الرهبان بصفة خاصة ، وهم الذين تخصصوا فى كتابة سير القديسين . وغالبا ما قدمت المناقشات اللاهوتيـة التى لاتنتهى تفسيرات جديدة للعقيدة . وكان جانب كبير من شعر هـذه الفترة على منوال النماذج الكلاسيكية . واستطاع أحد الشعراء أن ينظم فى القرن العاشر الميلادى ملحمة شعرية بيزنطية . ولكننا نجد أشد الالهام عمقا

فى تلك القصائد والترانيم التى تعبر عن المشاعر والانفعالات الشخصية الجياشة ، كما تعبر عن التقوى العميقة فى النهضة الدينية •

وفى هذا العصر ، أيضا ، اكتملت ملامح وأساليب الفن البيزنطى الرئيسية • وقد أضاف البيزنطيون الى الفنون الكلاسيكية من ناحية خطوطها وأشكالها ، لمسة من ذوقهم ومواهبهم فى الزخرفة الغزيرة والألوان البارزة ، بحيث تتلائم واحتياجاتهم • وهكذا تطور التقليد الأعمى للنماذج الهللينستية ليصبح أسلوبا أصيلا قويا • وان أعظم مخلفات العصر المقدونى هى كنائس القسطنطينية الفخمة بجدرانها المغطاة بالفسيفساء الملونة التى تصور ليس فقط القصص المعروفة المثيرة للعواطف والواردة فى الكتب الدينية المسيحية بواقعية غريبة ، بل تبهر أيضا نظر المشاهد لتلك الألوان الزاهية التى تشبه الجواهر المطلية باللونين الذهبى والأسود • ووجد ، أيضا ، فن علمانى نابض بالحياة ، وبخاصة فى القصور والمبانى العامة • ومع أن المتبقى منه قليل، فهناك ما يكفى لتعريفنا بصفاته المميزة • لقد كان الفن والمعمار البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى محل اعجاب الكثيرين خارج الامبراطورية • فتم تقليده بكل تفاصيله تقريبا فى الغرب الأوروبى والعالم السلافى ، وترك أعمق الأثر فى كل منهما فيما يتعلق بتطور الذوق الفنى •

لقد كشفت النهضة البيزنطية فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد عن محصلة ثقافية تفوق بكثير ماانتجته النهضة الكارولنجية،ولم يقف معها على قدم المساواة سوى المسلمين • وفوق هذا وذاك ، أكدت النهضة البيزنطية بقاء التراث اليونانى القديم فى شكله الأصلى ، أكثر من نسخه المترجمة الى العربية واللاتينية التى وصلت الى العالم الاسلامى أو الغرب المسيحى • واعتمد علماء الغرب الأوروبى فى العصور المتأخرة، وبخاصة فى عصر النهضة ، كلية على المعارف البيزنطية للوصول الى مناهل العلوم الكلاسيكية اليونانية • وفى نفس الوقت ، خطت النهضة البيزنطية خطوة حيوية فى العملية الطويلة التى تهدف الى خلق ثقافة

مصطبغة بالصبغة الهللينية قدر لها أن تزدهر فى القسطنطينية وحواليها ٠

الدولة البيزنطية والعالم السلافى

بعد أن استعادت الدولة البيزنطية قوتها الفعالة ، أصبحت بعد عام ٨٥٠ م قادرة على مد نفوذها فى رقعة واسعة من العالم السلافى الذى عوضها عن خسارتها فى آسيا وافريقية والغرب الأوروبى خلال القرون السابقة ٠ كما أصبح بوسعها ، فى نفس الوقت ، تغيير مصير السلاف تغييرا تاما ٠

لقد تغلغلت التأثيرات البيزنطية فى العالم السلافى على مستويات عدة ٠ فمنذ القرن السادس الميلادى فصاعدا ، عبرت القبائل السلافية الحدود البيزنطية فى البلقان ، واستقرت بين المجتمعات البيزنطية فى مساحة كبيرة من شبه الجزيرة ٠ وسرعان ما تعود القادمون الجدد على أساليب حياة جيرانهم الأكثر رقيا ٠ وحتى الصدام المسلح المتواصل بين المجتمعين نتج عنه احتكاك ثقافى مفيد عن طريق السياسة البيزنطية التى تهدف الى توطين أسرى الحرب السلاف فى جميع أنحاء الامبراطورية ٠ وكان ثمة سيل مطرد للتبادل الدبلوماسى أدى الى ارتحال آخر الأمراء السلاف الى القسطنطينية ٠ كما سافر المبعوثون البيزنطيون وأتباعهم الى عواصم البرابرة ٠ فلم يجد الأمراء السلاف مفرا ، بعد ما رأوه من عظمة وأبهة البلاط البيزنطى ، وتألق المجتمع البيزنطى ، وفخامة القسطنطينية ، من محاولة تقليد بيزنطة فى عواصمهم البدائية ٠ وغالبا ما استطاعت الدبلوماسية البيزنطية الناجحة ادخال الامارات السلافية ضمن منطقة النفوذ الامبراطورى ٠ وهكذا فتحت قنوات اتصال ثابتة انتقل عبرها التجار ومنتجات الامبراطورية الى جزء كبير من العالم السلافى ٠

وعلى أية حال ، كانت المسيحية هى الرباط الأساسى المتين بين الدولة البيزنطية والعالم السلافى ٠ وقد استغرقت عملية تحويل

السلاف الى المسيحية وقتا طويلا . فقد بدأت عندمـا استقر السلاف أولا على طول حدود الامبراطورية الرومانية فى عهدها المتأخر . ولم تبذل الكنيسة البيزنطية لمدة طويلة أى جهد تبشيرى مخطط (فى هـذا المجال) . وكانت عملية ادخالهم فى المسيحية بطيئة جـدا . واستمر الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن التاسع للميلاد عندما اتخـذ فوتيوس سياسة أكثر قوة . وكان مندوباه الرئيسيان همـا الكاهنين العالمين المقوقس Cyril وميثوديوس Methodius اللذين عرفا بحق باسم « رسولى السلاف » . وأوفدهمـا ، الى مورافيا عـام ٨٦٣ م استجابة لطلب أمير مورافى لارسال بعثة تبشـيرية (الى بلاده) . وكرس المقوقس وميثوديوس جهودهما الكبيرة لتطوير خدمة القداس السلافى وارساء أدب تعليمى منـاسب للمورافيين . ولتحقيـق هذه الغاية فقد كيف المبشران الأبجدية اليونانية للوفـاء باحتياجات لغة سلافية مكتوبة . وبذلك تملقا السلاف واستطاعا اقناعهـم بنسختهم الخاصة بهم من الكتاب المقدس . ولكن الأهم من ذلك هو التطور اللغوى أيضا الذى جعل فى الامكان نقل تلك الدائرة الواسعة من مختلف العلوم البيزنطية الى السلاف بلغاتهم المختلفـة . ولم يكن عمـل المقوقس وميثوديوس التبشيرى فى مورافيا بصفة دائمة ، بل أنه فى عام ٨٨٥ م طرد الجرمان رسوليهما واعتنقوا المسيحية على المـذهب الرومانى . وعندئذ التجأ المبشران الى بلغاريا التى رحبت بهما ، فتابعا بنشاط فائق عملية خلق مسيحية سلافية وثقافيـة سلافية ، وكلاهمـا مستمد من بيزنطة .

وبدأ ادخال بلغاريا فى المسيحية عام ٨٦٤ م بعماد الحاكم البلغارى على يد كهنة بيزنطيين . واستمر البلغار يتأرجحون فترة قصـيرة بين المسيحية الرومانية والمسيحية البيزنطية . وأخيرا ، انحازوا كلية الى القسطنطينية ، بسبب رغبـة بيزنطة فى السمـاح لهم بهيئة تنظيمية مستقلة خاصة بهم يرأسها بطريارك بلغارى ، مع موافقتها على استخدام القداس السلافى الجديد . وبلغ من رغبة الحكام البلغـار فى تقوية

المسيحية ، أن اقتبسوا ما يمكن اقتباسه من بيزنطة لمدة قرن من الزمان تقريبا بعد اعتناقهم المسيحية • كما ترجموا العديد من الكتب الدينية اليونانية الى اللغة البلغارية ، وكان ذلك نقطة البدايـة للأدب الوطنى البلغارى • كذلك شيد البلغار أديرتهم على نمط الأديرة البيزنطية ، وبدأ رهبانهم يزاولون أنشطة مماثلة ، مثل كتابة حياة القديسين ونسخ الكتب المقدسة • وكانت معظم الكنائس البلغارية نماذج مطابقة للفن المعمارى والزخرفى البيزنطى •

وأخذت المؤثرات البيزنطية تتسلل ، أيضا ، الى داخل الروسيا فى عصر الأسرة المقدونية • وكانت الامبراطورية قد أبدت اهتمامها منذ فترة طويلة بمختلف السكان الذين يقطنون جنوب الروسيا ، وبصفة خاصة القبائل الآسيوية الرحل التى كانت تكتسح تلك المنطقة من وقت لآخر • وفى عام ٨٦٠ م هاجم شعب يطلق على نفسـه اسم الروس مدينة القسطنطينية ، ومنها جاءت كلمة روسى • وليس واضحا تماما من هم هؤلاء القوم ، ولكن يحتمل أنه كانت لهم علاقة ما بالامارات الجديدة التى ظهرت فى الروسيا خلال القرن التاسع الميلادى • ففى ذلك الحين أسس السويديون (المعروف فى التاريخ الروسى بالفرانجيين) Varangians مدنا بحذاء الطرق النهرية التى تصل بحـر البلطيق بالبحر الأسود والقسطنطينية وسرعان ما أصبحت كييف أهم هذه المدن جميعا • وامتدت سلطة حكامها لتشمل السلاف المحيطين بها ، مكونة بذلك امارة قوية • وقد نشأت علاقة حيوية بين القسطنطينية وكييف • واتخذت فى بعض الأحيان شكل الحرب نتيجة هجمات عديدة قام بها السلاف ضد القسطنطينية • وفى أحايين أخرى اتخذت شكل محالفات بينهما زودت أباطرة بيزنطة بسند قوى ضد البلغار • كذلك وجد بين القسطنطينية وكييف دائما تبادل تجارى واسع • وفى مناسبات قليلة قام أمراء وأميرات من كييف بزيارة القسطنطينية لمشاهدة عجائب المدينة، وليخلع أباطرتها عليهم الألقاب • كمـا وجدت ، أيضـا ، الجماعات التبشيرية طريقها من الامبراطورية الى امارة كييف ، واستطاعت ضم

متنصرين جدد رغم نفوذ المسيحية الرومانية القوى الـذى تغلغل فى الروسيا عن طريق بلغاريا ومورافيا وغرب اوروبا • وأخيرا ، فان تحويل الأمير فلاديمير Vladimir الى المسيحية البيزنطية وزواجه من أخت الامبراطور بازيل الثانى عام ٩٨٨ أو ٩٨٩ م ، قد فتح الطريق لسيل لا يتوقف من التأثيرات البيزنطية فى المجالين الثقـافى والدينى ، التى امتدت فى اتجاه الشمال الى قلب العالم السلافى • وقد تـم الحفاظ على هذه المؤثرات والتوسع فيها بعد تنظيم الكنيسـة الروسية التى ارتبطت برباط وثيق بالسلك الكهنوتى البيزنطى •

وثمة نماذج عديدة لانتشار الثقافة البيزنطية السريع فى العالم السلافى • فقد كانت القوانين التى سنها الأمراء السلافيون على نسق القوانين البيزنطية • وان قدرا كبيرا من الأدب الدينـى المترجم من اليونانية قد بدأ انتشاره وتداوله باللغات السلافية • كذلـك شيدت الكنائس وزينت وفقا للأساليب البيزنطية • وتأصلت جذور الرهبنة بين السلاف • كما تم تصميم بلاطات الأمراء الوطنيين على نمـط القصر المقدس فى القسطنطينية • واتبعت نفس الأساليب البيزنطية فيما يتعلق بنظم الحكم والادارة • ونهجت الأرستقراطية السلافية نهج المجتمع البيزنطى • وقد حقق السلاف الشرقيون تقدمـا سريعـا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بسبب المؤثرات البيزنطية • ومع ذلك حاولت الحكومات السلافية البدائية الاحتفاظ باستقلال واسع النطاق • وكقاعدة عامة ، لم تحاول الدولة البيزنطية غزوها سياسيا ، وانما آثرت الاكتفاء بربطها بها كأقمار لا تستطيع الانفصال عن كوكبهـا بسبب الجاذبية المغناطيسية للدين والفن والعلم البيزنطى • وكان هذا الاتجـاه نحو الشمال هو الخطوة الأخيرة فى تقـدم وانتشار الحضـارة البيزنطية الجديدة •

تجزئة الامبراطورية الكارولنجية

لقد تحطم فى القرن التاسع الميلادى حلم الغـرب الأوروبى فى

دولة مسيحية كبرى يحكمها امبراطور واحد ، نتيجة تفتت الامبراطورية الكارولنجية الى مجموعة من الدول التى ورثتها • وكان الانهيار مدمرا حتى أن هذه الدول تفتت بدورها الى وحدات سياسية صغيرة • وبذلك بدأ عصر اقطاعى غير مستقر فى الغرب • وعلى أية حال ، فان الصدمة لم تكن من القوة لتقضى على الروابط التى جعلت من المسيحية الرومانية وحدة واحدة ، ولتقضى على الثقافة اللاتينية التى تمخضت عن النهضة الكارولنجية •

نشأة ممالك الغرب الأوروبى

كان ثمة شواهد على ضعف الامبراطورية بدت بوادرها فى أواخر حكم شارلمان ، وأصبحت تنذر بالخطر فى عهـد لويس التقى (٨١٤ — ٨٤٠ م) • فقد بدأ ابن شارلمان ، الشديد الورع والمثاليـة ، حكمه — كما سبق الاشارة — بمحاولة تقوية الامبراطورية والعمل على رفع قدر الوظيفة الامبراطورية • وكان سنده الرئيسى مجموعة نشطة من القادة الكنسيين والعلمانيين الذين شاركوه اعتقاده فى ضرورة وجـود دولة مسيحية قوية يجب أن تبنى على المثالية المسيحية • ومع ذلك ، فقد فشل الامبراطور ومعاونوه فى اقناع رعيته البائسة المتناثرة عن امبراطورية تمتد من سكسونيا الى روما ومن بريطانيا الى وسط ألمانيا • ومع أنه يحتمل أن الكثيرين قد أدركوا أن شارلمان ، ذلك المحارب القوى والمشرع الفذ ، قد حقق آمالهم ، الا أنهم لم يتفهموا ما حاول أن يحققـه ابنه الذى يقل عنه مقدرة والذى يحيط به كهنة هم موضع ثقتـه • ولقـد تكشف عدم المبالاة بحلم لويس التقى ، بل والوقوف منه موقف العداء، عندما اصطدم هذا الحلم لأول مرة بعقبة كأداء •

وكانت مشكلة الوراثة امتحانا هى الأخرى • فقد نـادى المثل الأعلى الكارولنجى بوضوح بأن تظل الامبراطورية موحدة تحت امرة حاكم واحد • ولكن التقليد الجرمانى الذى كان تأثيره قويا فى تشكيل

كافة نواحى الحياة اليومية للكارولنجيين ورعاياهم ، كان يرى أن المملكة ماهى الا جزء من الممتلكات الخاصة ، وأنها بناء على ذلك يجب أن تقسم بين أبناء الملك عند وفاته . ونجد أن لويس نفسه قد تـردد فى تمسكه بمبدأ الوحدة الذى مزقته قوة دفع التقليد الجرمانى ، الأمر الذى عزز طموحات أبنائه ونبلائه . وفى عـام ٨١٧ م أصدر مرسومـا لصالح الوحـدة الامبراطوريـة ، نص عـلى أن يرث ابنـه الأكبر لوثـير Lothair اللقب الامبراطورى والقسم الاكبر من الامبراطورية . هذا ، بينما خصص لولديه الآخريـن مملكتين صغيرتين داخـل نطاق الامبراطورية وتحت سيادة لوثير . وبدأ الابنان الصغيران يتآمران منذ الوهلة الأولى للحصول على قسم يكون أكثر عـدلا . وكذلك تعرض موقف لوثير ومعاونيه من رجـال الامبراطورية لخطـر شديد ، عندما أنجبت زوجة لويس الثانية ابنا رابعا حاول أن يحصل له على نصابه فى تقسيم جديد فى عام ٨٢٩ م . وقد أصيبت حكومـة لويس بالشلل منذ عام ٨٣٠م نتيجة سلسلة من الثورات التى أثارها أبناؤه . وشارك النبلاء فى هذه الثورات ، لأنهـم وجدوا أن المتنافسـين الملكيين عـلى استعداد لشراء ولائهم لهم مقابل منح من الأرض .

وخلف لوثير والده كامبراطور فعلا فى عام ٨٤٠ م ، واحتفظ بلقبه حتى وفاته عام ٨٥٥ م . ولكن ولـدى لويس الآخريـن اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة ، وهما شارل ولويس ، ثارا ضـد أخيهما . وبعد كفاح مريراستطاعا اجبار لوثير فى عام ٨٤٣ م على الموافقة على معاهدة فردان التى خصصت لشارل مملكة ضخمة للفرنجـة الغربيين اشتملت على معظم فرنسـا الحديثة . كمـا حصل لويس على مملكة مساوية لها فى الحجم للفرنجة الشرقيين تقع شرقى نهر الراين . واحتفظ لوثير بشريط مستطيل من الأرض يمتد من مصب نهر الراين حتى ضفته الغربية ، ثم يستمر امتداده الى داخـل ايطاليا . وكان لـه اللقب الامبراطورى ، ولكن أهميته كانت قد تلاشت تقريبـا لأن الحاكمين

الآخرين كانا يتمتعان باستقلال فعلى • وفى الحقيقة ، يمكن القول انه انبثقت عن الامبراطورية الكارولنجية ثلاث ممالك •

وحاول الاخوة الثلاثة الاحتفاظ بعلاقات يسودها السلام لسنوات قليلة بعد عـام ٨٤٣ م ، والتعـاون على أسـاس المشاكل والمصالح المشتركة • وأما الكنيسة التى ظلت طويلا مخلصة للمثل الأعلى للوحدة المسيحية ، فقد عملت بجد لبث روح التعاون بين الكارولنجيين • وفضلا عن ذلك ، فقد سببت الثورات الداخلية والهجمات الشرسة لغزاة جدد ، المتاعب لكل ملك منهم • اذ بدأ المسلمون فى شمال افريقية اغاراتهم على ايطاليا ، وبلغ الأمر أن دخلوا روما فى عام ٨٤٦ م • ثم كان الفيكنج المتوحشون الذى قدموا من شواطىء بحرى الشمال والبلطيق فى شكل جماعات كبيرة متتابعة الى أنهار اوروبا ووديانهـا ، ليشيعـوا الذعر والخراب بضرباتهم الجزئية المفاجئة التى يستطع الملوك دفعها •

ولكن هذه المصالح المشتركـة لم تكن كافية لحفـظ التعاون بين الاخوة • ففى عام ٨٥٥ م مات لوثـير ، وقسمت مملكتـه التى تمثل شريطا مستطيلا بين ثلاثة أبناء • وبذلك وجدت ثلاث ممالك جديدة هى اللورين وبرجنديا وايطاليا ، الى جـانب مملكتى الفرنجـة الغربيين (فرنسا) والفرنجة الشرقيين (المانيا) • واتخذ أحد أبنائه ، وهـو لويس الثانى (٨٥٥ — ٨٧٥ م) ، لقب امبراطور الى جانب لقبه كملك على ايطاليا • وكرس معظم طاقاته ، أساسا ، للدفاع البطولى عن ايطاليا ضد المسلمين • وقلما أطل ببصره عبر جبال الألب الى مـا كانت عليه الامبراطورية القديمة • اذ أدرك أنـه ليس بوسعه الحصـول على أى جزء من تلك المنطقة التى سرعان ما أغرقتها الفوضى • كما واجه شارل الأصلع حاكم الفرنجة الغربيين تهديدات خطيرة بسبب تمـرد النبلاء الذين حرضهم أخوة لويس الجرمانى • ولم ينجـح فى محاولاته التى قصد بها ضد غزوات الفيكنج التى زاد عنفها وقسوتها فى اقليم الفرنجة الغربيين على وجه الخصوص • ومع أن لويس كان بوسعه غزو مملكة

شارل فى مناسبتين ، الا أنه واجه صعابا شديدة مع أمرائـــه فى مملكة الفرنجة الشرقيين • وبذل كل من لويس وشارل جهدا كبيرا فى محاولة الاستيلاء على أراضى ابنى أخيهم ملكى اللورين وبرجنديا • وقد حققا نجاحا جزئيا عندما اقتسما اللورين بينهما فى عـــام ٨٧٠ م • ولكنهما دفعا الثمن غاليا نتيجة انتصارهم ، بسبب الامتيازات التى طالـــب بها النبلاء ، تلك الامتيازات التى عجلت بانحلال الامبراطورية وانهيارها•

وبعد موت الامبراطور لويس الثانى فى عام ٨٧٥ م ، سيطر على التاريخ الكارولنجى اتجاهان متساويان فى أثرهما السىء • فمن ناحية ، سعى المتمسكون القلائل بالمثل الأعلى الامبراطورى القـــديم ، وعلى رأسهم البابوية ، للبحث دون جدوى عن أمير من سلالة الكارولنجيين يمكن وضع التاج الامبراطورى فوق رأسه • ومن ناحية أخرى ، كان الانهيار قد دب فى أوصال الحكومة المركزية داخل كل مملكـــة من تلك الممالك الكارولنجية المتعددة ، الأمر الذى أتاح للانفصال الملكيين الأقوياء الحصول على استقلال حقيقى ، مما شجعهم تماما على انتخاب ملوك لم يكونوا أصلح حالا من الملـــوك الميروفنجيين الأواخـــر الذين كانوا عاطلين « لا يفعلون شيئا » •

وانتهت مطالبة البابا بأباطرة أقوياء بالفشل • فكل امبراطور جاء بعد عام ٨٧٥ م كان نفوذه على الامبراطورية كلها أقل من نفوذ سابقه• وأما آخر من حمل اللقب الامبراطورى ، لم يكن أكثر من ملك ايطالى ضعيف ، وكانت القوة النامية لطبقة النبلاء الايطاليين قد ألقت بظلها عليه الى حد بعيد • وحوالى عام ٩٢٤ م كان قد خبا الحكم الكارولنجى فى عالم مسيحى غربى يمثـــل وحدة سياسية فعالـــة • وحتى العرش الامبراطورى نفسه ظل خاليا اعتبارا من عام ٩٢٤ م وحتى عام ٩٦٢ م عندما استحوذ اوتو الكبير على التاج ، وهو امبراطور جرمانى كانت رقعته الامبراطورية تشتمل فقط على مملكة الفرنجـــة الشرقيين وذلك الجزء الايطالى الواقع تقريبا الى الشمال من روما • وكان هذا الفساد التام الذى دب فى أوصال السلطة السياسية الموحدة خطيرا ، وبصفة

خاصة بالنسبة للبابوات الذيـــن وجدوا أنفسهم فى حاجـــة لمن يتولى حمايتهم ، والذين كانت طموحات النبلاء الرومان مصدر تهديد لهم • وفضلا عن ذلك ، فقد استمرت الغارات الاسلامية على ايطاليـــا ، الى جانب ظهور قوة غازية جديدة تتمثل فى المجريين أو الهنغار ، الأمر الذى زاد هوة الفوضى السياسية عمقا واتساعا •

أما عن الممـــالك الكارولنجية الواقعة شمال جبـــال الألب ، فقد تفككت بسرعة تحت الضغط المتزايد لغارات الفيكنج والمجريين ، بالاضافة الى الاستقلال المطرد لكبار النبلاء • وكان الملوك الكارولنجيون الـــذين جاءوا بعد شارل الأصلـــع (توفى عـــام ٨٧٧ م) ولويس الجرمانى (توفى عام ٨٧٦ م) غير أكفاء ، ولـــم يعمروا طويـــلا ، وقد كرسوا مواهبهم المحدودة أساسا لمشاريع تستهدف حرمان ذويهم من الأرض • واختفى تقريبا احساس الكارولنجيين بالمسئولية نحو اقامـــة العدالة والنهوض بالدين وللدفاع عن المملكة والاشراف على الأفصـــال التابعين لهم • واغتصب النبلاء الأقوياء الوظائف الحكومية واتخذوها لأنفسهم نتيجة اهمالها • وقد جعلوا من هـــذه الوظائف العامـــة التقليدية ارثا يتوارثونه • وأرسوا المبدأ القائل بأن المنح الملكية من الأراضى هى حق مكتسب لهم لا يرد • وقاموا ، بدورهم ، بانشاء دوائرهم الخاصة من الأفصال التابعين لهم • وهكذا تقوض بسرعة فائقة المبدأ الخاص بملكية قوية تشبه الحكم الكارولنجى المبكر •

وقد قدر للدولة الكارولنجية أن تعود الى سابق عهدها خلال فترة قصيرة من الزمن تمتد من عام ٨٨١ م وحتى عام ٨٨٨ م ، عندما انتخب شارل السمين ابن لويس الجرمانى ملكا على الفرنجة الشرقيين ، وملكا على ايطاليا وامبراطورا ، ثم أخيرا ملكا على الفرنجة الغربيين • وبذلك أعيد توحيد الامبراطورية كلها تحت لواء حاكم كارولنجى واحد • ولكن هذا لم يكن سوى فاصلا عريضا • فقد نتج عن موت شـــارل المبكر فى عام ٨٨٨ م ليس فقط عودة الاتجاه الانفصالى الذى دام طوال النصف

قرن السابق ، وانما وجد أيضا رد فعل شديد سرى ضد الكارولنجيين • وحتى قبل وفاة شارل السمين انتخب نبلاء الفرنجـة الغربيين ايودو Eudo كونت باريس ملكا عليهم • وكـان شفيعه فى ذلك دفاعه القوى عن باريس ضد الفيكنج • وهكذا عادت أخيرا الأسرة الكارولنجية الى عرش الفرنجة الغربيين ، وظلت تتمتع به حتى عام ٩٨٧ م • ولكن انتخاب عام ٨٨٧ م الذى أكد حق الكارولنجيين فى وراثة العرش ، لم يعد الآن يسمح به النبلاء ورجال الدين • وكان الحـاكم الكارولنجى الأخير لملكة الفرنجة الشرقيين ، والذى ينحدر من سلالة الكارولنجيين، هو لويس الطفل الذى مات فى عام ٩١١ م ، فانتخب رجال الدين ونبلاء الفرنجة الشرقيين الأقوياء دوق فرنكونيا ، وهو شخص غير كارولنجى ، ملكا عليهم • وفى كل من ايطاليا وبروفانس وبرجنديا ، ارتقى العروش الملكية ملوك غير كارولنجيين •

وهكذا بدد ورثة شارلمان ميراثهم • وأصبـح اللقب الامبراطورى الذى أنشىء عام ٨٠٠ م لتوحيد المسيحيين الغربيين يحمله فى عام ٩٠٠م ملك ايطالى ضعيف لم يكن صوته مهابا فى ايطاليا أو فى أى مكان آخر • وحلت محل الامبراطورية دول جديـدة هى فرنسا والمانيـا وايطاليا وبرجنديا وبروفانس • ومع أن هذه الممالك كانت تحمل لقرون عديدة بصمات أصلها الكارولنجى ، الا أن ظهورها فى القرن التاسع الميلادى كان بداية مرحلة جديدة فى التاريخ الأوروبى •

ولكى نعطى صورة كاملة للتقسيـم السياسى المتزايد للغرب ، يجب أن نذكر كلمة هنا عن مصير بقية الغرب الأوروبى سياسيا • فخلال القرن التاسع الميلادى شاهد العالم تجمع القبائل السكندنافية المقاتلة فى ثلاث ممالك متميزة هى : النرويج والدانمارك والسويد • ويبدو أن هذه الممالك المشاغبة تحت القيادة الاسمية لملوك ضعاف أنتجت موجات لا نهاية لها من المغامرين الفيكنج الذين هاجموا الأجزاء التى استطاعوا الوصول اليها فى غرب اوروبا والروسيا والجزر البريطانيـة وايسلندا

وجرينلاند ، وربما وصلوا الى امريكا الشمالية فيما بين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن العاشر الميلادى • واستقر كثير من الغـــزاة فى النهاية فى الأراضى التى أغاروا عليها ، ومن بينها مقاطعـــة نورمانديـــا الفرنسية وشمال انجلترا وايرلندا وايسلندا ، ومناطق نوفجورود وكييف فى روسيا • وفى هذه الأماكن المبعثرة هنا وهناك استقر الفيكنج بسرعة، ولعبوا دورا حيويا فى التاريخ الأوروبى قبل أن يذوبـــوا فى السكان المحليين • وبالرغم من هذه الهجرات ، فقد استمرت الممالك السكندنافية فى الارتقاء ، وقامت بدور هام متزايد فى تطور اوروبا السياسى •

وكان القرن التاسع قرنا حاسما فى تاريخ انجلترا المبكر • وقام الفيكنج بشن سلسلة متلاحقة من الغارات المدمرة على الدول الصغيرة التى لم تأخذ شكلها النهائى بعد ، والتى كان قد أقامها الغزاة الجرمان الأول • ونتج عن ذلك غزو واحتلال جزء كبير من شمـــال بريطانيـــا ، ترتب عليه رد فعل قومى قوى • وكان بطـــل التحرير والاسترداد هو الفريد الكبير (٨٧١ — ٨٩٩ م) الذى أنقذ مملكته من الفيكنج بدفاعه عن مقاطعة وسكس جنوب انجلترا ، واكتسب لقب « مؤسس » انجلترا• وقاد خلفاؤه الذين جاءوا بعده مباشرة قوات وسكس فى هجوم مضاد أعادوا به فتح شمال انجلترا ، وأقاموا مملكة انجليزية موحدة لتنضم الى الحكومات المستقلة الأخرى التى ظهرت فى غرب أوروبا •

نحو مجتمع اقطـــاعى

كان تصدع الامبراطورية الكارولنجية يمثل شيئا أكثر من انقسام غرب اوروبا الى ممالك مستقلة • فقد كـــان ، فى الحقيقة ، التجسيد الواضح تمما للعيان للتغيير الأساسى الذى طـــرأ على البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى للمجتمع ، والذى أدى فى النهاية الى قيام النظام الاقطاعى • ومع أن مراحل التطور الاقطاعى لـــم تكن مطلقا متماثلة فى جميع أنحاء الغرب ، الا أنها تضمنت بصفة عامة تطورات

واسعة مؤكدة هى : تحديـد السلطة الملكيـة ، وتحديد الالتزامـات السياسية ، وربط السلطة السياسية بملكية الأرض ، وظهور طبقة النبلاء التى اضطلعت بأعباء الحرب و الحكم وسيطرت على شعب من الأرقاء، ونمو النظام الاقطاعى • وكانت كل من هذه السمات والمظـاهر التى ستكون النظام الاقطاعى ، قد ظهرت وتأصلت جذورها من قبل ، حتى أن ما حدث فى القرن التاسع الميلادى ، ما هو الا النتيجة النهائية لعملية تطور طويلة •

وكان التحديد المطـرد للسلطة الملكيـة من الناحيتين القانونية والعملية عن طريق تطور نظام التبعية ، هو أحدى الخصائص المميزة للازمة الطاحنة فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد •ومع أن الكارولنجيين العظام كانوا قد أحاطوا أنفسهم بعدد كبير من الرجـال الذين ارتبطوا بهم عن طريق أداء يمين الولاء والاخلاص ، الا أنهم لم يعتبروا ذلك قيدا على سلطاتهم • وبينما كان هؤلاء الأفصال ، الذين أطلق عليهـم اسم « المعاونين الخصوصيين » مرضيا عنهم من الملـك وينتظر منهم القيام بخدمته ، فقد ظلوا خاضعين للسلطات المحلية • وأثنـاء حكم لويس التقى كان ثمة تغيير جوهرى أخذ يؤثر على هذا الموقف • ذلك أن رجال الدين الذين حاولوا التأثير على سياسـة الحكومة ، حرضوا هؤلاء الأفصال التابعيين للملك ، فبـدأوا يصرون على تحـديد أكثر وضوحا لمسئوليات الملك حيالهم • واضطر كل كارولنجى متبرم من ذلك، أن يرضخ لهذه المطالب بهدف تدعيم قوته ضد الكارولنجيين الآخرين المنافسين له • وهكذا اتخذت الملكية بشكل متشدد نظامـا يقوم على أساس التعاقد (بين طرفين) • فالافصال ، من ناحية ، لهـم حقوق وعليهم واجبات • والملوك ، من ناحية أخرى ، لهم حقـوق وعليهم مسئوليات مقابل ذلك • ولكن الأفصال ، بشجاعة متزايـدة ، نقضوا عهود التبعية والولاء للملك ، على أساس أنه فشل فى الوفاء بالتزاماته نحوهم • وان مثل تلك التصرفات ، التى كانت تعتبر قبل ذلك بقليل خروجا خطيرا عن الواجب ، غالبا ما دعمتها القوانين الشرعية وساندها

العرف السائد • فلم يعد الملك حاكمـا مطلقا ، وانما غدا سيـدا يؤيده عامة سكان مملكته الذين يدينون لـه شخصيا بالولاء أفصـالا لسادة متزايدة بدأت تتخلى عن ولائها له ، لأنهـا أصبحت أفصـالا لسادة آخرين • وقد بلغ الملوك الكارولنجيون الأواخر درجة من الضعف لـم يكن أمام من هم أكثر ضعفا سوى اختيارا محدودا ، وهو أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة أشخاص أقوياء مقابل الوعد بتوفير الحماية لهم • ونتج عن هذه الاجراءات شبكة معقدة متشابكة من الروابط الشخصية بين عامة الناس والسادة دون أية اشارة الى الملك وسلطاته •

وهكذا أختفت السلطة الملكية كلها تقريبا ، وتجمعـت السلطة السياسية الحقيقة بسرعة فى قبضة ملاك الأرض • وطلب الأفصال من سادتهم ، بشكل متزايد ، منحا من الأرض أو وظائف تمكنهم من الوفاء بالتزاماتهم نحوه • وكان هذا التطور متفقا مع ما سار عليه الكارولنجيون الأوائل • وبالتدريج أصبحت هذه المنح أو الحصص حسبما كان يطلق عليها ، لايمكن التصرف فيها ، خاصة بعد أن غدت وراثيـة فى أواخر القرن التاسع الميلادى • وترتب على عملية منح هـذه الحصص من الأرض للأفصال ، استنزاف الموارد الملكية وبصفة خاصة أثنـاء فترة الاضطراب فى القرن التاسـع عندما سعى الملـوك مستميتين لكسب الأتباع ، واضطروا الى منح وظائف ملكية وراثية كالاقطاعات • وأصبح بمقدور هؤلاء النبلاء اغتصاب منـح كبيرة من الملك كانـوا ، عادة ، يقسمونها الى اقطاعيات أصغر • وبـذلك أوجدوا كيانـات سياسية مستقلة عن الملك تعتمد ، أساسا ، عـلى نفسها • وسرعـان ما طالب الأفصال بحقهم فى السلطة السياسية كامتياز ضرورى لهم • وقد أدت كل هذه العوامل الى تفتيت السلطة السياسية ، وانهيار نفوذ الحكومة المركزية ، وزيادة حصانة السادة النبلاء من ملاك الأرض •

وان النتائج العملية لتطور نظام التبعية والحصص الاقطاعية فى الامبراطورية الكارولنجية ، تكاد تتحدى أى بيان • وبصفة عامة ، فان

كل دولة كارولنجية جاءت بعد دولة كارولنجية أخرى ، انقسمت فى الواقع الى امارات عديدة مستقلة • وغالبا ما ترتب فى نفس الوقت تقسيم جزئى داخل التقسيمات الادارية للامبراطورية الكارولنجية القديمة • وقد عهد الى الكونتات والأدواق الذين كانوا من بين أهم موظفى الملوك الكارولنجيين ، بممارسة السلطة الملكية فى أقسام ادارية معينة محددة ، وكانوا يزودون عادة بمعونات تتمثل فى هبات من الأرض• وكان نجاح هذا النظام ، من وجهة النظر الملكية ، يعتمد على رغبة الأفصال فى احترام سلطة الملك العليا • وطالب الكارولنجيون الأقوياء باحترام كاف ليتسنى تسيير النظام • ولكن الموقف أخذ يتغير فى أواسط القرن التاسع الميلادى • أذ أصر الكونتات والأدواق اصرارا متزايداً على نيل حقوقهم كأفصال • وكثيرا ما اعطوا تلك الحقوق أولوية على واجباتهم كموظفين ملكيين • فاغتصبوا من الملك ملكيات أكبر من الأرض ، استمدوا عن طريقها سلطة أكثر استقلالا • وأهم من ذلك كله ، أنهم — على سبيل المثال — بدأوا يعتبرون امتيازات وظائفهم مثل تحصيل الضرائب والغرامات ، جزءا من حصصهم الاقطاعية باعتبارها دخلا خاصا لهم • كما أصروا على أن تكون أرضهم ووظائفهم السياسية وراثية فى نسلهم • ولم يكن الملوك بحكم العادة الاخذة فى النمو والحاجة المتزايدة للتأييد ، قادرين على الوقوف فى وجه هذه المطالب • وبذلك تفتتت ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا وبرجنديا وبروفانس مع بداية القرن العاشر الميلادى الى امارات واضحة الحدود قدر لها أن تلعب دورا هاما فى التاريخ المتأخر لكل مملكة منها • ولما كانت هذه الحصص الاقطاعية تعامل باعتبارها أبعاديات للأفصال الذين حكموها ، فقد أصبحت فى الواقع بمثابة دويلات مستقلة تحت السيادة الاسمية للملك • وفضلا عن ذلك ، فقد حدثت فى داخل كل دويلة نفس العملية • اذ ادعى الأفصال التابعون للكونتات والدوقات لأنفسهم ، بدورهم ، أحقيتهم فى السلطة المستقلة داخل حصصهم الصغرى ، مثلما فعل سادتهم تماما بكونتياتهم ودوقياتهم • وبلغ بعض السادة درجة من القوة أنهم تحكموا

فى أفصالهم • ولكن معظمهم لم تكن لهم القدرة على ذلك • وبهذه العملية زال تقريبا مفهوم السطة العامـــة ، وكان يتم التعبـــير عن الحقوق والواجبات السياسية بمصطلحات تدل على علاقة السادة والأفصال بعضهم ببعض من جهة ، وارتباطهم سويا بالأرض من جهة أخرى •

ومع ذلك ، فقد بقيت الملكية بعد تفتت السلطة العامة الى قوى خاصة • وطالما أن التبرير الشرعى الوحيد لوجود الحصص الكبيرة من الأرض أنها مستمدة من سلطة التاج ، فقد كان الدوقـــات والكونتات العظام حريصين دائما على انتخاب الملك . على الرغم من أنهم لم يعنوا بتوجيه الاحترام الكافى للسلطة الملكية • وطبقا لذلك ، اعترف مجتمع الغرب الأوروبى الممزق فى بداية القرن العاشر الميلادى بالملوك الذين استمدوا سلطاتهم الفعالة من حقوقهم كسادة اقطاعيين فحسب • ويعتبر جانب كبير من تاريخ اوروبا الغربية اعتبارا من عام ٩٠٠ م فصاعدا قصة مفادها كيف استطاع هؤلاء الملوك استخدام حقوقهم الاقطاعية الأساسية ، تدعمها التقاليد الكارولنجية الباقية القائلة بأن الملك هـــو قائد رعيته وقت الحرب،وهو حاميهم فيما يتعلق بأمور العقيدة،وأنه قادر على اعادة بناء ملك قوى — أو بكلمـــة أدق فى التعبير — ملك اقطاعى قوى •

ان تحول النظام السياسى من الملكية المركزية الى الاعتماد أكثر فأكثر على العلاقات الشخصية ، كان له تأثير قوى على التطور الاجتماعى لغرب اوروبا • فقد كان عدد الرجال الذين تملكوا الأراضى ومارسوا السلطة السياسية ، أى اولئك الذين شاركوا تماما فى المجتمع الاقطاعى، قليلا • وبين مراتب هؤلاء الصفوة من السادة اللوردات والأفصال ، سرعان ماتطور نمط مميز من الحياة مستمد مباشرة من النظام الاقطاعى، مثل الحرب والحكم وادارة الأرض والاحتفاظ بالمركز بين الأقران • وقد تم تنمية هذا الأسلوب من الحياة بكل حرص ، متمثلا فى الشجاعة والولاء والبسالة فى الحرب والتركيز على الشئون المحلية والاستقلال

فى العمل • ولم تستطع هذه الطبقة النبيلة الحاكمة المقاتلـــة أن تعبر تعبيرا واعيا عن مثلها الاقطاعية العليا الا فى القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد • ولكن بعام ٩٠٠ م فرضت الطبقـــة الأرستقراطية من اللوردات والأفصال زعامة حقيقية فى الغرب الأوروبى •

وواضح أن مصير غالبية السكان كان قد تقرر بهذا التركيز الجديد على تملك الأرض وعلى المحلية ، الأمـــر الذى عجـــل بظهور نظـــام الاقطاعيات الكبيرة • ولما كانت الأرض هى المصدر الوحيـــد للثروة ، فقد أعتمد النبلاء الاقطاعيون تماما على استغلالها بنجاح للوصول الى السلطة • فركزوا اهتمامهم بدرجة متزايدة على تطـــوير الاقطاعيات الواسعة المكتفية ذاتيا ، التى أخذت فى الظهور منـــذ العصر الرومانى • وبنهاية القرن التاسع الميلادى كان السيد اللورد أو الفصل الهام يسيطر على ضياع عديدة ، وقد احتفظ بجزء من الأرض للوفـــاء بحاجاته • وقسم الباقى الى حصص صغيرة لتأجيرها للفلاحين • ومقابل استخدامهم لهذه القطع من الأرض دفعوا للسيد اللورد من نتاجها • كمـــا قاموا بحرث أرض السيد الخاصة داخل الاقطاعية • وللتأكد من سلامة سير العمل لهذا النظام ، كان غالبية الفلاحين مرتبطين شرعـــا بالاقطاعيات كأقنان • وكان السيد الاقطاعى بالضرورة يتولى توجيه حياتهم السياسة والاجتماعية ، وبذلك تم ممارسة تجربة حكومـــة محلية خاصـــة بكل اقطاعية على حدة • ومع أن النبيل كان السيد الذى لا ينازعـــه أحد فى الاقطاعية ، فقد كانت ثروته تعتمد على كد أقنانه فى أرضـــه ، وهى حقيقة شجعت على اتخاذ سياسة أبوية تعمل لصالح القن ، وان كان هذا لم يمنع من ظهور وتطور طبقة اجتماعية متميزة خاصة بالفلاحين • وبالرغم من أن التسلط على اقطاعيات مستقلة بذاتها قـــد أدى الى تفتيت اوروبا اقتصاديا وسياسيا ، وتحويلها الى مجتمع يعتمد كليـــة على الزراعة ، الا أن النظام الاقطاعى الجديد استطاع الوفاء بحاجات اوروبا المادية ، وأوجد عالما مستقرا حيث لقى الضعيف الحماية والوسيلة

لضمان لقمة العيش ومقومات الحياة وسط الاضطرابات التى سببتها حالة الفوضى العسكرية والسياسية •

الروابط العامة فى مجتمع غرب أوروبا

ان اختفاء الحكومة الكارولنجية القوية فى القرن التاسع الميلادى ، لم يؤد فقط الى تمزيق الوحدة السياسية للامبراطورية ، وانما أدى أيضا الى فسخ الروابط التى ربطت مناطق اوروبا المستقلة بالحكومة المركزية الكارولنجية • كما ان النظام الاقطاعى الذى بدأ فى الظهور ، والغزوات الجديدة التى تعرضت لها اوروبا،وفشل المثالية الكارولنجية — كل هذا هدد الروابط الدينية والثقافية التى ربطت الأوروبيين الغربيين معا • ومع ذلك ، فان التطور الدينى والثقافى فى النصف الأخـير من القرن التاسع وبواكير القرن العاشر للميلاد ، ترك بالفعل بعض القوى الموحدة التى يجب أن يحسب حسابها •

لقد شاهد النصف الأخير من القرن التاسع الميلادى تطورا مستمرا للعالم المسيحى الرومانى • وان الموضوع الأساسى فى التاريخ الكنسى هو تحديد أكثر وضوحا لمطلب الكنيسة برعاية المجتمع الغربى • وتحت قيادة الحكام الكارولنجيين العظام ، كانت العقيدة الرومانية والطقوس الدينية والنظام الرومانى قد انتشرت وسادت فى معظم أنحاء الغرب • كما كان هدف المجتمع النهائى الذى تأصلت جذوره ، هو العمل من أجل تحقيق الغايات المسيحية • وقد رفع هذا الاتجاه من قـدر الكنيسة الرومانية ، ولكنه فرض عليها أيضا قيودا معينة • فقد تصرف كل من شارلمان ولويس التقى بالفعل ككاهن أعظم ، وقد تمتعا بحقوق وواجبات تتعلق بتنظيم هيئة رجال الدين واصدار القوانين الدينية وفرض الحياة الأخلاقية • ولكن بعد عام ٨٤٠ م استطاعت الكنيسة تأكيد استقلالها الى درجة كبيرة ، باستغلال الفرصة التى اتيحت لها نتيجـة انحلال السلطة الكارولنجية • فجمعـت بشجاعة مجموعات القوانـين الكنسية

التى كانت تستهدف تدعيم النظام الكنسى • ولكن هذا ترتب عليه ، الى جانب ذلك ، مطالبة السلطة الكنسية بمختلف درجاتها توجيــه النشاط السياسى • وقد ضمنت هذه القوانين ، بشكل متزايــد ، للكنيسة حقها فى ادارة أملاكها الخاصة • والأهم من ذلك ، هى الروح البابوية التى انتعشت من جديد مطالبة بالاستقلال • وكان للبابوات ، عــلى أساس الأحداث التى وقعت فى عهدى شارلمان ولويس التقى ، حق منح التاج الامبراطورى • وفى أواخر القــرن التاسع الميلادى كانــوا يختارون الأباطرة • كما نشطوا فى قمع المنازعات الأسرية التى كانت تثور بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وفى توجيه اللوم الى الملوك على السلوك غير اللائق • وان دراسة متأنية لأعمال البابا نيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧ م) والبابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢ م) ، تكشف انهما قد نقضا الوضع الذى كان قائما أيام شارلمان ، ومفاده أن الكاهن هو حــامى السلام والنظام والوحدة ، والملك هو خادم للكنيسة قدر له أن يعمل من أجل تحقيق هذه الغايات • ومع ذلك ، فقد تم كبح طموحات البابوية مبكرا فى القرن العاشر الميلادى عندما استطاع النبلاء الايطاليون المنتصرون السيطرة على البابوية وتحويلها الى اقطاعية يهبونها لمن يشاءون • ومنذ ذلك الحين تورط معظم الأساقفة تورطا شديدا فى النظام الاقطاعى ، وأصبحت مصالحهم الى حد بعيد محلية وخاصة •

ومع ذلك ، فقد أحرزت الكنيسة انتصارات هامة تهدف الى تحقيق استقلالها عن السلطة العلمانية وذلك قبل تطبيق النظام الاقطاعى على المجتمع الذى حول الدولة الى حالة من الفوضى • وعلى عكس مـا حدث بالنسبة للتخلخل والانهيار التامين للنظام السياسى ، حولت الكنيسة روحها النامية من أجل التحرر الى احساس مثمر بالمسؤلية عن مصير المجتمع • وأصبحت هذه هى القوة العظمى التى تشــد من أزر الغرب ووحدته • وقد تركزت روح التعليم الكنسى حول الاخاء بين المسيحيين ، والتزام الجميع بطاعة الله وما أعد سبحانه وتعالى لجميع الناس فى الحيــاة الأخرى • وان مقدرة الكنيسة على التحلل من ربط شخصيتهــا ربطا

كاملا بالأسرة الكارولنجية ، بعد أن نسى الحكام الكارولنجيون العمل على تحقيق هذه المثل العليا ، جعلها المؤسسة الوحيدة الباقية التى ترمز للشخصية العامة للمجتمع الغربى • وفى هذا المقام لا يختلف العالم المسيحى الغربى كثيرا عن العالم الاسلامى • فقد كانت هناك ، أيضا ، اعتقادات وطقوس وقيم أخلاقية عامة لا تزال باقية تحمل سمات مجتمع يقوم على نظام يسوده الاضطراب فى القوى السياسية •

وقد عملت الكنيسة كقوة تدعو الى الوحده بطريقة أخرى هامة فى أواخر التاسع الميلادى • فقد استمرت جهودها التبشرية بين اولئك الذين عاشوا داخل اطار الغرب الأوروبى • واستطاعت أن تكسب باستمرار متنصرين جدد فى اسكنديناوه وبين السلاف الذين كانوا يقيمون فى شرق اوروبا ، وذلك رغم ما أملته ظروف هذا العصر من متاعب • وقد نشر المبشرون الناجحون . وهم غالبا من جماعة الرهبان البندكتيين ، الطقوس والعقائد الغربية ، وبذلك أوجدوا الصلة بين المعتنقين الجدد للمسيحية والعالم « القديم » •

واستمرت الثقافة اللاتينية ، هى الأخرى ، تؤدى دورها كرباط عام خلال النصف الأخير من القرن التاسع الميلادى • ويمكن القول ، ولو على سبيل السخرية ، أن النهضة الكارولنجية قد أتت بعض ثمارها فى ذلك العهد • فبعد موت شارلمان تدهورت دائرة بلاطه اللامع ، وانتقل مركز النشاط الثقافى فى الامبراطورية الى الأديرة • وفى هذه الأماكن المنعزلة النائية ، استمر العمل على أساس النمط القديم • فكانت اللغة اللاتينية تدرس ، والكتب تنسخ ، والمقالات اللاهوتية تؤلف ، والتاريخ يكتب ، والسير والتراجم تدون • وقد جذب كل دير اليه الرواد من كل البلاد ، وأصبح على اتصال مستمر بالعلماء فى الأديرة الأخرى فى جميع أنحاء الغرب • وغدت أديرة الامبراطورية الفرنجية مأوى لعدد كبير من العلماء الذين اضطروا الى الهروب من انجلترا وايرلندا تحت ضغط هجمات الفيكنج ، وقد أحضر هؤلاء

اللاجئون معهم كتبا ثمينة أثرت مكتبات الأديرة ، ومجموعه من المواهب والقدرات التى أدت الى تعميق وتنويع الحياة الفكرية والأدبية • وفى أواخر القرن التاسع وبدايات القرن العاشر الميلادى ، انتقل النشاط الدراسى والأدبى عبر القنوات الدينية أكثر مما كان سائدا فى عصر شارلمان • وكانت المسائل اللاهوتية الأساسية تناقش بتمعن وروية ومهارة • وربما كان يوحنا سكوتوس اريجينا John Scotus Erigena الايرلندى ، هو اللاهوتى الذى أثار السخط والغضب فى ذلك العصر ، عندما تصدى لمشكلة القضاء والقدر والارادة الحرة • كذلك وضع باسكاسيوس رادبرتوس Paschasius Radbertus مؤلفا هاما عن طبيعة القربان المقدس ، مما أثار مشاحنات حامية بين اللاهوتيين الآخرين • وقد تناولت مؤلفات أجوبارد Agobard ، وهنكمار Hincmar ، وجوناس Jonas ، وجميعهم من الأساقفة المشهورين، ومشكلات تتعلق بالنظرية السياسية التى تختص بالعلاقات بين الكنيسة والدولة ، وطبيعة السلطة الملكية • كما ظهرت مؤلفات فى التاريخ والتراجم ، وهى تتناول فى معظمها بيوتات ديرية خاصة وقادة دينيين• وبالرغم من الاهتمام المتزايد بالدين ، فقد ظل هناك اهتمام حيوى بالعلوم الكلاسيكية اللاتينية • ويعتبر رابانوس ماوروس Rhabanus Maurus من الأشخاص الذين تركوا أثرا بالغا فى ذلك العصر • وهو تلميذ الكوين Alcuin . وقو نهج نهج استاذه فيما يتعلق بالتعليم والفنون الحرة •

وفى ظل هذه الظروف أكدت الكنيسة سيادتها على الحياة الثقافية التى تمتعت بها قبل النهضة الكارولنجية ، وأصبح بمقدورها ، مرة أخرى ، التشديد والتركيز على الآراء والأفكار التى تخدم مصالحها الخاصة • واذا كانت الانجازات الثقافية فى الغرب أثناء القرن التاسع وبدايات القرن العاشر للميلاد ، لم تستطع أن تنافس تألق العالمين البيزنطى والاسلامى وقتها ، الا أنها حافظت على الأقل على تقليد

يتعلق بالعلم والمعرفة وعلى نوع من التعليم كانا ، فى النهايـــة ، أساسا يؤكد من جديد نفوذها الثقافى فى غرب اوروبا .

وعلى أية حال ، لا يمكن استكمال صورة اوروبا الغربية فى أواخر القرن التاسع وبواكير القرن العاشر للميلاد ، دون الاشارة الى الأثر الذى تركه التنظيم السياسى والاجتماعى السىء على الحياة الدينية والثقافية فى ذلك العصر . فان تحول مجتمع علمانى الى مجتمع اقطاعى كان له انعكاس قوى على التنظيم الدينى آنذاك . فقد تحولت الوظائف الكهنوتية العليا الى اقطاعيات ، ونتيجة لذلك غالبا ما وضـــع النبلاء العلمانيون الطموحون الذين اهتموا أساسا بمكاسبهم الماديـــة أيديهم عليها . وكان كبار رجـــال الدين الذين يهيمنون علـــى تلك الوظائف الاقطاعية ، مطالبين بتقديم جميع الالتزامات المتعارف عليها فى النظام الاقطاعى ، بما فيها الواجب الأساسى وهو الخدمة العسكرية . وكثيرا ماوجدوا أنفسهم يستهينون بواجباتهـــم الروحية من أجـــل الأمور الدنيوية . وقد اشتكى كثير من اولئك الذين تناولوا الحياة الدينية فى القرن العاشر الميلادى بالشرح والتعليق ، بأن علمانية المراتب العليـــا فى الكنيسة أسهمت فى انهيار الحياة الروحية بين غالبية المسيحيين فى غرب اوروبا . كما نتج عن الحروب الأهلية وغزوات البرابرة فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، تدمير كثير من الكنائس والأديرة ، وبصفة خاصة فى انجلترا وشمال فرنسا . ولم يكن بوسع العادات الاقطاعية النامية رفع روح التقـــوى والمسئولية الاجتماعيـــة والذوق الفنى أو الأدبى . وفى الحقيقة ، فان النبيل الاقطاعى فى ذلك العصر لم يوجه سوى قدرا ضئيلا من الرعاية للتهذيب الدينى والثقافى . ولذا افتقد غرب اوروبا فى هذا الدور الصعب القيادة النشطة التى كان قـــد تمتع بها فى القرن الثامن وبواكير القرن التاسع الميلادى ، عندما عمل الحكام الكارولنجيون والبابوات ورؤساء الأديرة كنقاط تجمع أو صمـــام أمن ضد الخطر القائم على الدوام ، والذى كان يتمثـــل فى الارتداد الى

البربرية . وكان ذلك يعنى أن النضال من أجل الحفاظ على أى قـــدر من الوحدة باسم الدين والثقافة ، قد أصبح أمرا ميئوسا منه .

وفى القرن الذى جاء بعد عام ٨٥٠ م ، ساعدت كل من المدنيات الثلاث العظيمة التى كانت قائمة حول حوض البحر المتوســط ، على ظهور قدر من الاختلافات الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلــق بالشئون السياسية ، لم تكن بادية للعيان من قبل . فقد انقسمــت الحضارة الاسلامية وحضارة اوروبا الغربية الى دويلات عديدة مستقلة ، بــل لقد انقسمت فى الغرب الى امارات اقطاعية عديدة . وامتد نفوذ بيزنطة السياسى حتى بات بمقدورها اجتذاب ممالك سلافية عــديدة لتدور فى فلكها . وبذلك أوجدت مجموعة من الولايات التى تعيش معا ، ولو أن الامبراطورية البيزنطية نفسها ظلت محتفظة بوحدة قوية . ومع ذلك ، فان ظهور الوحدات السياسية المختلفة داخل نطاق كل حضارة من تلك الحضارات (الثلاث) ، لا يعنى نهاية الكيان الأكبر ، أى نهاية الحضارة نفسها . اذ استمرت القــوى الدينية والثقافية تربط هــذه الوحدات السياسية الى درجة أن كلا من هذه الكيانات الثلاثة : اوروبــا الغربية ، وبيزنطة ، والعالم الاسلامى ــ ظلت تحتفظ بصفاتها الفريدة الخاصة بها والتى تكونت منها حضاراتها .

خاتمـــــــــــــة

بعد أن تتبعنا الأحداث الرئيسية التـــى أدت الى الانتقـــال من الحضارة الكلاسيكية الى الحضارات الثلاث الجديدة ، فيما بين نهاية القرن السادس والقرن العاشر للميلاد ، نختتم حديثنا ، مرة أخرى ، باثارة السؤال الذى طرحه جريجورى الكبير فى بداية تلك الفترة ، وهو: ماذا تبقى بعد الآن من متع العالم ومباهجه بعد زوال روما ؟ ان أى فرد شاهد القرن العاشر الميلادى ، وعليم ببواطن الأمور بما يسمح له بتفهم الصورة الكاملة فى البـــلاد التى احتضنها فى يـــوم من الأيام الأسلوب الكلاسيكى فى الحياة ، باستطاعته أن يجد بعض الاجابات عن ذلك السؤال .

ويمكن لمثل هذا الشخص أن يدرك منذ البداية أن عصر جريجورى كان يتميز بالتشاؤم الشديد ، عندما استنتج أن الحضارة الكلاسيكية ، التى رمزت اليها روما ، قد اندثرت وولت . ولكن بقايا آثارها كانت فى القرن العاشر الميلادى متداخلة فى نظم وعادات وأفكار الناس الذين كانوا يعيشون فى منطقة شاسعة مترامية الأطراف ، يحدها الأطلنطى فى الغرب ونهر اندوس فى الشرق . كما يحدها بحرى الشمال والبلطيق شمالا . أما من الجنوب فتحدها منطقة ساحل شمـــال افريقية وبلاد العرب والفرس . وكانت الكنائس والمبانى العامة فى كل مكان تعكس النماذج الكلاسيكية فى العمـــارة والزخرفة . وفى حجـــرات الدراسة ومكتبات العلماء والأديرة كانت مؤلفات افلاطون وارسطـــو وفرجيل وهوراس وغيرهم من كتاب اليونان والرومان القدماء ، مصدرا هائلا للوحى والالهام فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية والعلمية والأدبية . أما بالنسبة لرجال الدولة والأمراء ، فقـــد كان القانون الرومانى هـــو الدليل للمبادىء الصحيحة لحرفة السياسة وتسيير أمور الدولة . وربما كان أشدها تأثيرا على من يمعـــن النظر فى أحداث القـــرن العاشر ، أن دلالات التراث الكلاسيكى قد وصلت الى ما وراء حدود عـــالم البحر المتوسط ، لتؤثر على أهل اسكندينافو والبلغار والمورافيين والروس الذين كان الرومان القدماء لا يكادون يعرفون عنهم شيئا ، وربمـــا لم

يكونوا يعرفونهم على الاطلاق . وان أحد الانجازات العظيمـة التى تحققت فى عصر ما بعـد جريجورى ، كان المجهود الناجـح للشعوب المختلفة العديدة فى سبيل انقاذ العناصر الهامة للحضـارة الكلاسيكية الآخذة فى الانقراض ، بما يتمش ومصلحتها . وقد أسمت هذه البقايا بدرجة غير قليلة فى ابراز « مباهج » عالم القرن العاشر الميلادى .

ومع ذلك ، فان المدقق فى القرن العاشر سوف يدرك قطعا أن فيه « أمجادا » لا تستند على بقايا التراث الكلاسيكى . وآية ذلك تلك المدن العظيمة التى ترجع الى ذلك العصر . فقد كانت القسطنطينية فى عهد بازيل الثانى لها تأثـير وحيوية اثينـا زمن بركليس أو الاسكندرية الهللينستية أو روما فى عهد اوغسطس . وقد رمزت أسوارهـا القوية العظيمة التى كانت سدا حاجزا منيعا ضد حشود الأعداء ، الى قـوة الامبراطورية التى تحكمها تلك المدينـة . وان القسطنطينية بسكانهـا المليون ، والذين يتفاوتون بين الثراء الفاحش الذى لا يصدقه العقل وبين الفقر المدقع ، قـد عاشوا حياة مثيرة ملؤهـا العزم والتصميم ، وهم يشعرون بالأمن والأمان داخل اطار زمانهم ، دون لهفة لا داعى لها لعصر كلاسيكى أعظـم وأفضل ممـا عم فيه . وكـان الامبراطـور (البيزنطى) صاحب الجلالة المعين من قبل الله ، يعيش مـع بطانته المتألقة فى القصر المقدس الفخم ، وهو يحب رعاياه ويرعاهم . كما أبعد الخطر عن المدينـة ذلك الاسطول العظيـم الواقف فى مينـاء « القرن الذهبى » ، والحرس الامبراطورى المقيم فى العاصمة . وان الحوانيت التى لا عد لها ، والمزودة بالمواد الخام التى ترد من جميع أجزاء العالم المتحضر ، والتى يرتادها التجار بحثا بكل شغف عن المنتجات المصنوعة بمهارة ، لبيعها فى الخارج ، قد أتاح الفرص الكافية لكسب لقمة العيش . كما كان آلاف من الكهنة ومئات الكنائس الجميلة تمـد الناس بالغذاء الروحى . وكان الرهبان فى الأديرة ذات القلالى المبعثرة فى جميع أنحاء المدينة ، يصلون من أجل الخطاه والحزانى ، بينما عمل العلماء فى الجامعة العظيمة على زيادة ادراكهم بطرق الله نحو الانسان . وكان التحرر من

روتين الحياة العادية يتمثل فى مباريات السباق والمباريات الرياضية فى ملعب الهيدروم ، وكذلك فى المواكب والاحتفالات البهيجة التى تجوب الشوارع كل يوم • ولا يوجد سوى القليل من المدن ، على امتداد التاريخ ، التى استطاعت أن تبلغ ما بلغته القسطنطينية من ثراء وتنوع فى الحياة فى القرن العاشر •

وما قيل عن القسطنطينية يمكن أن يقال عن المدن الرئيسية فى العالم الاسلامى ، مثل بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق • فكانت المساجد الرائعة والقصور المزخرفة تضفى سحرا وجمالا على كل منها • وكان بلاط الأمراء الحاكمين مبهرا للبصر ومثيرا للغاية • وكانت أسواقها وحوانيتها عامرة بالمنتجات الأجنبية ، كما تدفقت شعوب العالم المتحضر وهى تتزاحم فى مشاهد يعجز عنها الوصف ، حيث الضجيج والحركة والاسراف • ولما كان الغرب الأوروبى يتميز بوضعه المتخلف ، فلم يكن بوسعه الادعاء بأن له عواصم عظيمة ، وذلك باستثناء روما التى لاتصل الا بالكاد الى عالمية القسطنطينية أو بغداد • بل كانت ، أساسا ، مركزا دينيا ، ومقرا للبابوية وكنيسة القديس بطرس العظيمة التى كانت تجذب اليها أعدادا من الحجاج من جميع أجزاء العالم المسيحى الغربى• وان تواجدهم فى المدينة ، الى جانب أوجه النشاط التى مارستها الطبقة الأرستقراطية المحلية المثيرة للاضطراب ، جعل المدينة تعيش فى الضوضاء والغليان • ولكن لم يوجد فيها ما يمكن مقارنته بما وجد فى المدن الشرقية • وكان الغرب منعزلا ، الى درجة كبيرة ، عن بقية العالم بسبب صعوبة السفر ومخاطره • كما كان يفتقد الثروة والتجارة ، وتلك الدائرة الواسعة من المهارات الفنية التى تؤدى الى تجمع الناس سويا فى أعداد كبيرة • وحتى باريس ولندن كانتا مدينتين متواضعتين، اذ سيطر عليهما المحاربون الاقطاعيون أو الأساقفة • وان مصير العاصمة الكارولنجية ، وهى مدينة آخن ، يعتبر نموذجا لحياة المدينة فى الغرب • فبدلا من أن تكون روما جديدة كما كان يتوقع شارلمان ، ظلت مجتمعا

صغيرا فقط يشعر بالاختناق لحاجته الى التجارة والصناعة ، وبسبب الفوضى السياسية التى تعمقت جذورها هناك .

وحتى خارج نطاق مـدن القرن العاشر العظيمـة ، كانت هناك دلالات على أنه مازالت توجد مباهج فى العالم . فقد اشتكى جريجورى العظيم أن الحقول التى رآها كانت بورا قاحلة . ومن الصعوبة بمكان الأخذ بهذه الشكوى بالنسبة للقرن العاشر . فان الفـلاحين الأحرار الأشداء فى بيزنطة ، الذين تولت الحكومة الامبراطورية أمر حمايتهم، والذين ساهموا مساهمة شخصية فعالة فى الدفاع عن الامبراطورية ، كانوا ينعمون برخاء ملحوظ . وان المزارع الغنية التى امتدت فى وديان دجلة والفرات والنيل ، حيث أحيـا الحكام المسلمـون من جديد نظم الرى ، لم تعد منتجة بعد الآن . وكانت البساتين وحقول القمح الغنية فى اسابنيا موضع اعجاب كل من مر بها . وكان النظـام الاقطاعى فى معظم أنحـاء الغرب الأوروبى ، بعد انشـاء اقطاعيات واسعة قـام بفلاحتها أرقاء من الفلاحين ، قد حقق درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتى. وفى الواقع ، لم تكن قوة الانتاج عالية فى معظم الاقطـاعيات ، لأن اقتصاد الغرب الأوروبى لم يعط أى فرصة لفائض فى الانتاج . كمـا كانت لاتزال توجد مساحات شاسعة بين الاقطاعيات غير منزرعة على الاطلاق . ورغما عن ذلك ، ففى داخل كل قرية اقطاعية كان هناك قدر لا بأس به من الأمن الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى ، جعلا حياة الفلاح أمرا محتملا ، بل وعامرا بالرخاء فى بعض هذه الاقطاعيات . وكان الرهبان البندكتيون ، بصفة خاصة ، أصحاب دخول كبيرة بسبب الاقطاعيات الديرية الجديدة ، بالاضافة الى تطـوير أساليب زراعية جديدة ، وعلى وجه الخصوص فى تلك الجهات التى كانوا قد وفدوا اليها كمبشرين . وبذلك كانت ثمة علامات بأن نهاية العصر الكلاسيكى لم تكن تعنى الفقر التام بالنسبة لمن قاموا بحراثة الأرض وفلاحتها ، أو بالنسبة لأولئك الذين اعتمدت معيشتهم على الزراعة . ففيما بين القرنين

السادس والعاشر للميـلاد ، أعيد بناء الحيـاة الزراعية على أساس مرض •

واذا دققنا فيما وراء مظاهر الحياة اليوميـة ، سوف نكتشف ، بكل تأكيد ، أن القرن العاشر الميلادي كانت له موارده الخاصة الروحية والأخلاقية والفكرية ، التى جلبت أيضا البهجة للعالم • فان الاسلام الذى لم يعرفه جريجورى العظيـم ، قد أعطى لحيـاة الملايين معنى وأسبغ عليهم الرعاية • كما أن المسيحية نفسها كان قد اتسـع نطاق نفوذها الاقليمى وزادت سلطتها ، وأثرت حياة المؤمنين بها فى القرون المضطربة التى أعقبت بابوية جريجورى • وقد أمدت أفكارها كل من بيزنطة والعرب بالارشاد والالهام لاحياء العلم والتعليم • كذلك سرت آراؤها ومفاهيمها فى النظم السياسية والعادات الاجتماعية والحيـاة الأسرية والأخلاق ، لتمد النظام الاجتماعى بالتوجيه والمغزى • وكان التنظيم المسيحى فى بيزنطة يشكل قوة لها وزنها تدعـو الى الوحـدة ، وتؤيده فى ذلك السلطة العلمانية • كمـا كان حلقة وصـل حيوية بين الامبراطورية وتوابعها فى العالـم السلافى • أمـا فى غرب اوروبا ، فكانت هناك الكنيسة العالمية وعـلى رأسها البابا ، وكانت تمثـل فعلا الرابطة الوحيدة التى تربط الوحدات السياسية الناشئة بعضها ببعض • وان القداس الجميل الذى كان يقام فى الكنائس العظيمة ، مثل كنيسة أيا صوفيا فى القسطنطينية ، أو كنيسة القديس بطرس فى روما ، والذى كان يقام أيضا فى الكنائس الصغرى التى لاتتميز بالفخامة فى سكسونيا وبلغاريا وروسيا وانجلترا — ان هذا القداس جعل الناس أكثر قربا من الله ، ورفع من روحهم المعنوية وسط تعاسات العالم وآلامه الجاثمة دوما فوق صدورهم • ولقد امتزج السلوك والعادات المتأصلة لكل من الجرمان والعرب والسلاف والأتراك ، بأساليب المجتمـع الكلاسيكى الذى كان أكثر استقرارا ورصانة وتحضرا ، الأمر الذى أنعش الحياة وعمل على توسيع المدارك والآفاق واشباع نفوس الملايين من ورثة الحضارة الكلاسيكية • وقد ساهم هؤلاء الناس « الجدد » جاهدين ،

فى بعض الحالات ، فى اعادة بناء الصرح السياسى والاجتماعى • كذلك تأثر الاقطاع فى غرب اوروبا تأثرا شديدا بخبرات الســادة الجرمان الذين كانوا يتعشقون الحروب ، مثلما تأثر بالنظم القانونية التى كانت سائدة بينهم • وتلون الشعر المتألق فى العصر العباسى بنفسية وقيم القبائل العربية التى كانت تعيش حياة البداوة •

وأمام كل هذه الشواهد الدالة على انجازات القرن العاشر المادية والروحية ، سوف يستنتج الملاحظ المدقق أن نهاية العالم القديم لم تكن نهاية جميع العوالم المتحضرة • وسوف يدرك أن النظم السياسية ، والأفكار والمذاهب الدينية ، وطرق التفكير ووسائل التعبير ، والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية التى تشكلت فى القرون الوسطى المبكرة لتحل محل النظام القديم ، كانت جميعها بمثابة أساس سليم ومرض بالنسبة للحياة الحاضرة وأحــلام المستقبل لأناس احتوتهم هــذه الحضارات الثلاث •

وفى الحقيقة ، فان الأساليب الجديــدة للمعيشة كانت جميعها مختلفة عن النظام اليونانى — الرومانى ، وكان كل أسلوب منها مميزا عن الآخر • وتميط هذه الحقيقة اللثــام عن العصور الوسطى المبكرة ، تلك العصور التى يشار اليها بطريقة خاطئة بأنها العصــور المظلمة • وان الاختلافات والفروق التى جعلت عالــم القرن العــاشر الميلادى بمعزل عن العصر القديم ، والتى ميزت الحضارات البيزنطية والاسلامية والأوروبية الغربية عن بعضهــا ، كانت نتيجــة مجهود خلاق بذل فى القرون التى جاءت بعد عام ٦٠٠ م • فقد كان محمد (ﷺ) ، وشارلمان ، وجستنيان ، وفوتيوس ، وجريجورى الكبير ، وهارون الرشيد روادا • وهكذا كان المحاربون العرب ، والفلاحون البيزنطيون ، ونبلاء الفرنجة ، والرهبان البندكتيون ، وأرقاء الأرض فى اوروبا الغربية • لقد شاركوا جميعا فى اكتشاف الأساليب الجديدة لكل شىء وعملوا على تطــويرها

وتحسنيها ، كما ساهموا فى عملية البناء التى على أساسها أقيمت الحياة المتحضرة .

وبوسع المدقق فى القرن العاشر الميلادى أن يقول دون تردد أنه كانت توجد متع ومناهج كثيرة فى العالم . وربما تعتريه الدهشة من أن الحضارات القائمة حوله كانت عــامرة بالبهجة مثلمــا كانت الحضارة الكلاسيكية من قبل . ولاشك أنه سمع أناسا حولـــه يتجادلون ان كانت الدولة البيزنطية أو الاسلام أو اوروبـــا الغربية ، قــد هيأوا أفضل الظروف والأوضاع للبشرية ، من حيث البهجة والبهاء والتقوى . ولكن شيئا واحدا لا يمكن الجدال بشأنه أو النزاع فيه ، وهو أن الحضارة لم تمت بزوال روما . لقد انبثقت فى أشكال جديدة مختلفة من بين رماد روما لتنتقل ببنى البشر الى مرحلة جديدة من مراحل التاريخ .

جـــدول زمنی مرکـــــز

٤٨٠ — ٥٤٣ م فترة حيـاة بندكت اوف نرسيـا مؤسس النظام البندكتى .

٤٨١ — ٥١١ م فترة حكم كلوفيس مؤسس الأسرة الميروفنجية فى مملكة الفرنجة .

٥٢٧ — ٥٦٥ م عهد الامبراطور جستنيان الأول .

حوالى ٥٧٠ — ٦٣٢ م فترة حياة محمد (ﷺ) .

٥٩٠ — ٦٠٤ م فترة بابوية جريجورى العظيم .

٦١٠ — ٦٤١ م عهد الامبراطور هرقل .

٦٢٢ م هجرة الرسول (ﷺ) من مكة .

٦٣٤ — ٧١٣ م عصر الفتوحات الاسلامية .

٦٦١ — ٧٥٠ م الدولة الأموية .

٦٧٣ — ٧٣٥ م فترة حياة بيده .

٦٨٠ م المجمع المسكونى السادس فى القسطنطينية للبت فى مسألة الخلاف حول طبيعة المسيح .

٧١١ — ٧١٣ م غزو المسلمين لاسبانيا .

٧١٤ — ٧٤١ م شارل مارتل وزير البلاط فى دولة الفرنجة .

٧١٧ — ٧٤١ م فترة حكم الامبراطور ليو الثالث الأيسورى .

٧١٧ — ٧١٨ م فشل الحصار الاسلامى للقسطنطينية .

٧٢٦ م بداية الحركة اللاأيقونية .

٧٣٢ م معركة تورز ، الفرنجة يصدون التوسع الاسلامى .

٧٣٥ — ٨٠٤ م فترة حياة الكوين .

٧٤١ — ٧٦٨ م ببن القصير كوزير للبلاط فى دولة الفرنجة ثم ملكا .

٧٥٠ — ١٢٥٨ م فترة حكم الخلافة العباسية .

حوالى ٧٥٠ — ١٠٠٠ م العصر الذهبى للثقافة الاسلامية .

٧٥١ م انتخاب بين القصير أول ملك كارولنجى على الفرنجة.

٧٥٥ م « هبة بين » وتأسيس الدويلات البابوية فى ايطاليا.

٧٦٨ — ٨١٤ م فترة حكم شارلمان .

٧٧٢ — ٨٠٥ م شارلمان يغزو السكسون ويحولهم الى المسيحية .

٧٧٤ م شارلمان يغزو مملكة اللمبارديين فى ايطاليا .

حوالى ٧٨٠ — ٨٥٠ م النهضة الكارولنجية .

٧٨٠ — ٨٥٠ م فترة حياة الخوارزمى عالم الرياضيات المسلم .

٧٨٦ — ٨٠٩ م فترة حكم الخليفة هـارون الرشيد أعظـم خلفاء العباسيين .

٧٩٦ م شارلمان يدمر امبراطورية الآفار .

٨٠٠ م البابا ليو الثالث يتوج شارلمان امبراطورا .

حوالى ٨٠٠ م ابتلاء غرب اوروبا بغارات الفيكنج .

٨١٤ — ٨٤٠ م فترة حكم الامبراطور لويس التقى ، وبداية انهيار الامبراطورية الكارولنجية .

٨٤٣ م معاهدة فردان وتقسيم الامبراطورية الكارولنجية .

٨٤٣ م نهاية النزاع اللاأيقونى .

حوالى ٨٥٠ م بداية التفكك فى العالم الاسلامى .

حوالى ٨٥٠ م بداية النمو السريع للاقطاع فى غرب اوروبا .

٨٥٨ — ٨٦٧ م

و ٨٧٧ — ٨٨٦ م ؟ فترة بطرياركية فوتيوس .

٨٦١ م بداية تحول المورافيين الى المسيحية على يد المقوقس ومتوديوس •

٨٦٤ م بداية اعتناق البلغار للمسيحية على يد المبشرين البيزنطيين •

٨٦٥ — ٩٢٥ م فترة حياة الرازى ، الحجة المسلم فى الطب •

٨٦٧ — ١٠٥٦ م فترة حكم الأسرة المقدونية للامبراطورية البيزنطية ، العصر الذهبى لبيزنطة فى القرون الوسطى •

٨٧١ — ٨٨٩ م فترة حكم الملك الفريد الكبير فى انجلترا •

٨٨١ — ٨٨٨ م فترة حكم شارل السمين آخر كارولنجى يحكم الامبراطورية الموحدة •

٨٩٣ — ٩٢٧ م فترة حكم سمعان مؤسس أول امبراطورية بلغارية•

٩٢٩ م تأسيس خلافة اسلامية منفصلة فى اسبانيا •

٩٦٩ م اقامة الخلافة الفاطمية فى مصر •

٩٧٦ — ١٠٢٥ م فترة حكم الامبراطور بازيل الثانى •

٩٨٠ — ١٠٣٧ م فترة حياة ابن سينا الحجة المسلم فى الطب والفلسفة•

٩٨٨ أو ٩٨٩ م اعتناق فلاديمير الروسى الديانة المسيحية •

اقتراحات لمزيد من القراءة والاطلاع

ثمة مراجع مفيدة باللغة الانجليزية ، تعالج موضوع الحضارات الثلاث معا فى فترة العصور المبكرة ، وهى :

— Moss. H. St. L.B., The Birth of the Middle Ages, 395-814, Oxford, 1934. (1)

وهو أفضلهـا .

— Deanesly, M., A History of Early Medieval Europe, 476 to 911, London, 1956.

— LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages New York. 1949.

وهما ، أيضا ، من الكتب المفيدة ، بالرغم من أن أولهما لا يزود القارىء بمعلومات دقيقة وافية عن تاريخ كل من بيزنطة والاسلام .

— Cambridge Medieval History, Cambridge, Eng., 1936.

ومجموعة كامبريدج لتاريخ العصور الوسطى هى ثمرة عمـل جماعى مشترك بقلـم عديد من العلمـاء المبرزين فى العالم . وهذا ، ويبدو فى الجزءين الثانى والثالث الاجتهاد .

وبالنسبة لأولئك الذين يستخدمون اللغات الأجنبية غير الانجليزية، توجد كتب عديدة ممتازة ، ومن بينها كتاب لويس هالفن بصفة خاصة .

— Halphen, L., Les barbares des grandes invasions aux conquetes turques du XIe siécle, in Peules et civilisation : Histoire générale, ed. Louis Halphen and Philippe Sagnac. Vol. V; 5th ed., Paris, 1948.

— Halphen, L., Das Mittelater bis zum Ausgang der Staufer, 400 - 1250, in Propylaen Weltgeschihte, Vol. III; Berlin, 1932.

---

(١) نقل الى اللغة العربية تحت عنوان «موس (هـ) : ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥ — ٨١٤ — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — راجعـه الدكتور الباز العرينى — القاهرة ١٩٦٧ . [المترجم] .

وهناك مؤلفات تفصيلية عن الامبراطورية ، هى =

— Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire, 324 - 1453, 2nd Eng. ed., rev.; Madison, Wis., 1952.
— Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956; New Brunswick, N.J., 1957.

ويمكن أن نضيف اليهما مؤلفى بيورى الرائعين :

— Bury, J. B.,
 1 — History of the Later Roman Empire, 395 - 565, 2 vols.; London, 1923; Dover paprback, 1958.
 2 — History of the Eastern Roman Empire, 802 - 867, London, 1912.

ويتضمن كتاب جوان هاسى دراسة موجزة تزود القارىء بعرض سريع لتاريخ بيزنطة السياسى ، مع معالجة موضوعية للنظم البيزنطية :

— Hussey, J. M., The Byzantine World, London, 1957. (٢)

ومن المراجع الهامة ، أيضا ، مايلى :

— Baynes, N. H., The Byzantine Empire, London, 1925. (٣)
— Runciman, S., Byzantine Civilization, London, 1933; Meridian Books, 1956.

وقد تناول التاريخ الاسلامى تناولا جيـــدا كل من فيليب حتى وكارل بروكلمان :

— Hitti, P. K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present, 6 th, ed.; London, 1956.
— Brockelmann, C., History of the Islamic Peoples, New York, 1947.

---

(٢) نقل الى اللغة العربية تحت عنوان : هسى (ج.م.) العالم البيزنطى — ترجمة وتقديم وتعليق دكتور رأفت عبد الحميد — القاهرة ١٩٧٧ . [المترجم] .

(٣) نقل الى اللغة العربية تحت عنوان (ن) : الامبراطورية البيزنطيـــة تعريب دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد — القاهرة ١٩٥٠ . [المترجم] .

أما كتاب برنارد لويس ، وان كان أقل حجما ، الا أن له وزنه :

— Lewis, B., The Arabs in History, London, 1950.

وناقش كل من هاملتون جب و أ. جويوم الملامح الرئيسية للدين الاسلامى باختصار :

— Gibb, H. A., Mohammedanism : An Historical Survey, 2 nd ed.; New York and London, 1953; New American Library, 1949.

— Guillaume, A., Islam, 2nd ed. rev.; Harmondsworth, Eng., 1956; Penguin Books, 1954.

وتوجد تراجم عديدة للقرآن الكريم باللغة الانجليزية ، وبخاصة ترجمة ن.ج . داود N.J. Dawood فى مجموعة بنجوين Penguin Books

هذا ، وقد ألهمت مشاكل الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى المبكرة الأقلام ، الأمر الذى تمخض عنه صدور العديد من الكتب الهامة خلال السنوات الأخيرة ، نذكر من بينها :

— Pirenne, H., Mahomet and Charlemagne, London, 1939; Meridian Books, 1957.
— Dawson, C., The Making of Europe, New York, 1945; Meridian Books, 1956.(1)
— Burns, C. D., The First Europe : A Study of the Establishment of Medieval Christendom, A. D. 400-800. New York, 1948.
— Davis, R. H. C., A History of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London, 1957.
— Wallace-Hadrill, J. M., The Barbarian West, 400-1000, London, 1952. (2)

---

(١) له ترجمة بالعربية تحت عنوان : دوسن (ك .) : تكوين اوربا — ترجمة ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور — القاهرة ١٩٦٧ — [المترجم] .

(٢) له ترجمة بالعربية تحت عنوان : والاس — هادريل : اوروبا فى صدر العصور الوسطى (٤٠٠ — ١٠٠٠ م) — تعريب وتقديم وتعليق الدكتورة حياة ناصر الحجى — الكويت ١٩٧٩ . [المترجم] .

وثمة مراجـــع تتناول مواضيـــع أكثر تخصصا ليست فى صميم دراستنا ، ومع ذلك فهى تمتاز بقيمتها الفائقة فيما يتعلق بشرح وتفسير الفترة موضوع الدراسة ، وهى :

— Lot, F., The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Aes, New York, 1931.

— Dopsch, A., The Economis and Social Foundations of European Civilization, New York, 1937.

— Bark, W. C., Origins of the Medieval World, Stanford, Calif., 1957.

ويمدنا كتاب صموئيل ديل بدراســـة تفصيلية للأوضـــاع الاجتماعية والفكرية خلال العصر الميروفنجى المضطرب :

— Dill, Sir S.. Roman Society in Gaull in the Merovingian Age, London, 1926.

وبالنسبة للتاريـــخ الكارولنجى ، فانه لم يلق حظـــه من الدراسة المناسبة الوافية باللغة الانجليزية ، وأفضـــل كتاب عنه باللغة الفرنسية هـــو :

— Halphen, L., Charlemagne et l'empire carolingien, Paris, 1947.

هذا ، وقد تناول ف.م. ستنتون تاريخ انجلترا ابان تلك الفترة ، بمهارة :

— Stenton, F. M., Anglo-Saxon England, 2 nd ed., Oxford, 1947.

وعالج جبريل ترفيل بترى تاريخ الفيكنج :

— Turville - Petri, G., The Heroic Age of Scandinavia, London, 1961.

كما عالج فرنسوا لويس جانز هوف ، بوضوح ، المشاكل المعقدة المتعلقة ببدايات الاقطاع :

— Ganshof, F. L., Feudalism, New York, 1952.

وطالما أن المسائل الكنسية تظهر بوضوح فى فترة تاريخ العصور المبكرة ، فان المؤلفات المتعلقة بتاريخ الكنيسة تتميـز بقيمتها الفائقة بالنسبة للقارىء . وهناك كتابـان مفيدان ، بصفة خاصـة ، فى هذا الشأن ، هما :

— Latourette, K. S., A History of Christianity, New York, 1953.

— Hughes, P., A History of the Church, Vol. I, 2nd ed.; New York, 1949.

والكتابان يركزان على تطور المسيحية فى غرب اوروبا ، ويوجهان بعض الاهتمام الى المسيحية فى الدولة البيزنطية . ويمكـن أن نضيف اليهما الكتاب التالى :

— French, R. M., The Eastern Orthodox Church, London, 1951.

أما كتاب جوستاف شنيرر ، فهو ملىء بالآراء الحية عن دور الكنيسة كعامل حضارى فى غرب اوروبا :

— Schnürer, G., Church and Culture in the Middle Ages, Vol. I, Patterson, N. J., 1956.

ولا يمكن للباحث المتعمق فى تاريخ الكنيسة اغفال واحد من الاعمال الخالدة فى العصر الحديث :

— Fliche, A. & Martin, V. (eds.), Histoire de l'église depuis les origines jusqu'à nos jours, Paris, 1934 sqq.

وقد أسهم فى كتابة الأجزاء الخامس والسادس والسابع العديـد من النقاد ، وهى تغطى الفترة التى تناولناها فى هذا البحث .

ومن المراجع المفيدة فى المشكلة المعقدة للتاريـخ الثقافى الكتاب التالى :

— Artz, F. B., The Mind of the Middle Ages, A. D. 200-1500, 2 nd ed.; New York, 1954.

وهو يزود القارىء بمجمل واضـح للنشاط الثقافى فى كـل من الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية والعالم الاسلامى •

ومن الكتب الطيبة فى التاريخ الثقافى للغرب الأوروبى كتاب :

— Laistner, M. L. W., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500-900, rev. ed; Ithaca, N.Y., 1957.

ومن المراجع المثيرة للآراء والقضايا كتاب هنرى أوسبون تايلور :

— Taylor, H. O., The Mediaeval Mind, Vol. I, 4 th ed.; New York, 1925.

أما المراجع التالية فدائرتها أوسع من الفترة الزمنية التى تناولتها هذه الدراسة :

— Baynes N. H.&Moss H. St. B; (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1948.

— Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam. Oxford, 1931.

— Grunebaum, G. E. von (ed.), Medieval Islam : A Study in Cultural Orientation, 2 nd; Chicago, 1953.

والكتاب الأخير مفيد فيما يتعلق بتقييم الدور الثقافى للعالمين البيزنطى والاسلامى •

ومن المؤلفات القيمة عن مكانة السلاف فى تاريخ تلك الحقبـة من الزمن كتاب :

— Dvornik, F., The Making of Central and Eastern Europe, London, 1949.

ومن المراجع الجيدة ، بصفة خاصة ، فى تاريـخ روسيا المبكر ، ما يلى :

— Vernadsky, G.,
1 — Ancient Russia, New Haven, Conn., 1943.
2 — Kievan Russia, New Haven, Conn., 1948.

كشــــاف

بأسماء الأعــلام والأماكن والمصطلحـــــات

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(د)

(ذ)

(ر)

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس المحتويــات